

المؤرخ العربي

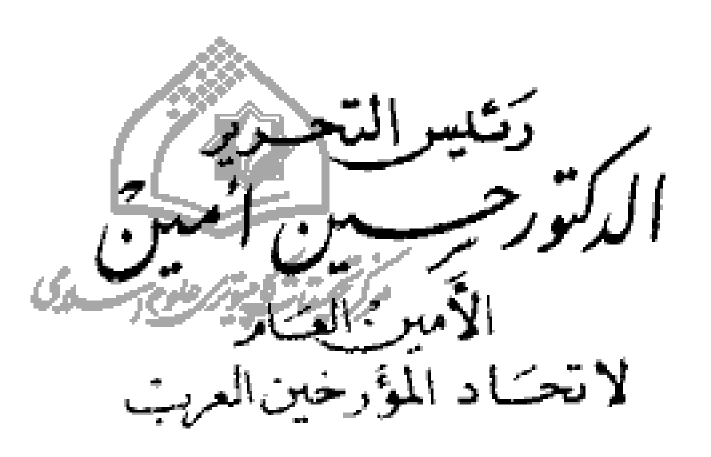


مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد السابع

7

مجلة
المؤرخ العربي



رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد السابع

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع العدد على نفقة جامعة قاريونس في الجماهيرية العربية الليبية

محتويات العـــدد

مقدّمة

بكل اعتزاز نقدم للباحث العربي مجلته العلمية (المؤرخ العربي) في عـدد جديد يبرز المكانـة الحضارية للمؤرخين العرب وقدرتهم الفائقة على منهجية البحث الذي تتمثل فيـه الروح الموضوعيـة .

اننا اذ نقدم هذا العدد الجديد لعلى ثقـة كبيرة من ان مجلة المؤرخ العربي والتي أخذت مكانها المرموق في الأوساط العلمية العربيـة والعالميـة ، ستكون هي الاولى في ميدان البحث التاريخي والمرجع الرئيسي لكل طلاب العلم .

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب تحيي هـذه الروح العلميـة التي يتحلى بها المؤرخون والباحثون العرب في كل مكان وتعاهدهم على ان تبقى وفية لمبادئهم ومخلصة لكل طموحاتهم من أجل تقدم الدراسات التاريخية وازدهارها.

والله ولي التوفيـق ..

الدكتـور حسين امين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب



مفهوم التاريخ الاسلامي في العصر الحديث

بقلم الدكتور عبد المنعم ماجد
استاذ التاريخ الاسلامي
ورئيس قسم التاريخ بآداب عين شمس

تميزت حضارة المسلمين في العصور الوسطى ، بأنها حضارة عالمية ، نتيجة أنها ثمرة لانصهار حضارات شعوب متعددة ، في بوتقة واحدة ، فتحقق على يد المسلمين ، ما لم تستطع بيزنطة وريثة الرومان أن تحققه ، كما ان الفرس بدورهم ، لم يكونوا حلقة لانصهار الحضارات ونشرها ، في عزّ دولتهم •

والتاريخ بحق يعتبر علم المسلمين ، اذ تطور على ايديهم بطريقة ذاتية ، تظهر أصالتها وصدقها ، ولذا يعد عندهم من العلوم الشرعية أو النقلية ، أي المستمدة من الدين الاسلامي • ولا غرو ، فقد ظهرت طوال فترة الحضارة الاسلامية ، طبقات للمؤرخين المسلمين ، اذ يكفي الرجوع ، لكتابي : الفهرست لابن النديم ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ، لنعد منهم المئات ، بينما المؤرخون في العصر القديم نخبة ضئيلة يعدون على الأصابع ، فأبناء هيردوت كانوا قليلين جدا •

حقا ان التاريخ بدأ عند العرب بالحفظ في الذاكرة ، فكان تاريخ العرب الاول وهو وقائع وايام وغزوات ، محفوظا في الذاكرة ، يرددونه على ألسنتهم ، وأعانهم على حفظة بيئتهم الصحراوية الطليقة ، التي ليس فيها تعقيد • ولكن بعد أن أسلم العرب ، وتفوقوا في الأرض للفتح والغزو ، بين شعوب لا تتكلم لغتهم ، ضعفت ملكة الحفظ عندهم ،

وظهرت الحاجة الى التدوين ، بخاصة وانهم كانوا في حاجة ملحة الى ضبط ونقل أحاديث النبي والسير والأحوال ، ليصلح الناس في أمور دينهم ، وكا نهذا بداية تدوين التاريخ الاسلامي •

ومع ذلك ، فان التدوين في التاريـخ الاسلامي ، لم ينتشر الا في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري ، حينما أقبل أهالي البلاد المفتوحة على الاسلام ، وأقبلوا على تعلم العربية • فكان المؤرخين الأوائل في الاسـلام ، هم المستعربون من العجـم ، لأن العرب في أول الأمر ، كانت تلحقهم أنفة من انتحال العلم ، لكونه من جملـة الصنائع • وقد لاحظ ابن خلدون ذلك ، فذكر في مقدمته ان حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجـم •

وكان أول ما دوّن في التاريخ الاسلامي ـ بطبيعة الحال ـ يعتمد على الذاكرة الانسانيـة ، لبعد التدوين عن اخبار الجاهليـة والعصر الاسلامي الأول • وان من يقرأ ما دوّن من الذاكرة العربية ، يتجلى لـه أن أغلب التاريخ الأول ، مستمد من السماع والمشاهـدة • ولذا لجـأ المؤرخون الأوائل الى تدوين ما استوعبته الذاكرة ، بالنقل من فـلان عن فلان ، من الحفاظ الموثوق بهم ، وهو ما عرف بالأسانيد ، جمع سند بمعنى رفع القـول الى قائله • فكان الحفاظ هم الوسطاء بين الخبـر والمؤرخ ، وهي طريقة للاجماع على صحة الخبر •

فكانت طريقة الأسانيد للتحقق من صحة الخبـر ، أول ما ظهرت على أيدي المسلمين ، اذ كانت مستلهمة من الطريقة نفسها ، التي كانت قد اتبعت عند جمع الأحاديث النبوية ، ليطمئن جامعو الأحاديث الـى اتصال الأحاديث بالرسول ، مما يبين ان التاريخ أخذ طريق الحديث في أول تدوينه • بل ان التاريخ ، كان يجمع من نفس رواة الحديث ، في سلسلة من الأسانيد الموثوق بهم ، ومن ناحية اخرى ، اعتبر التاريخ نفسه من وسائل الحديث ، في الجرح والتعديل •

ولكن بعد انتشار التدوين ، وتمكن التاريخ في النفوس ، لم تعد

الرواية المسندة ، التي اعتبرت في أول الأمر من الدين ، تكفي في نقل الحقيقة التاريخية ، لأنها لم تكن تحمل من الحقيقة الا صداها ، دون أن تحيط بظروفها ، لضعف الذاكرة الانسانية • وعلى هذا تحول المؤرخ الاسلامي ، من مجرد ، « اخباري » أو « راوية » ـ كما كان يطلق عليه في أول الأمر ـ غرضه استيعاب الاخبار ، والمحافظة على كيفية اتصالها من حيث رواتها ، الى البحث عن الخبر في ذاته ، زيادة في تحري الحقيقة • وبذا تخلص التاريخ من طريقة الحديث ، الى مجال أوسع مستقل ، ازدهر فيه منهاجه •

فهكذا وجد تطور ثان على يد المسلمين في كتابة التاريخ ساعد على ابراز شخصية المؤرخ وذاتيته في البحث العلمي ، حتى أن ابن خلدون هاجم المؤرخين الأوائل ، لاعتمادهم على مجرد نقل ما رأوه أو سمعوه ، وعدم تأمل الحقيقة التاريخية في ذاتها ومناقشتها • فلم يعد التاريخ في رأيه اخبارا وحوليات ، ولكنه نقد للحقائق ، وبحث عن أسبابها • فكان نص ابن خلدون على ذلك ، مما لم يسبق اليه من قبل في علم التاريخ •

ومع ذلك ، فان المؤرخين المسلمين ، لم يكونوا في أي وقت ، يستطيعون ان يكتبوا التاريخ دون أن يذكروا المصادر التي استقوا منها معلوماتهم ، وبدلا من قولهم فلان وفلان ، ذكروا الكتب التي أخذوا منها حقائقهم ، وظهر بدل العنعنة الكتب ، أو حتى ما يعرف بأسانيد الكتب ، فكان هذا دلالة جديتهم في دراسة هذا العلم ، بخاصة وان ابن خلدون قد لاحظ بفطنة في مقدمته ان الكذب يتطرق الى الخبر بطبعه ، فكان حرص المؤرخين المسلمين على ابراز مصادرهم في معظم تآليفهم ، اضافة ثالثة لابداعهم في هذا العلم •

ولكن بانتهاء فترة العصور الوسطى ، ضعف علم التاريخ عند العرب وكأنه مقياس لاحوالهم • فقد تدهوروا سياسيا وحضاريا بخضوعهم للترك العثمانيين ، ولا سيما ان لسان هؤلاء كان التركية ، مما أضعف التأليف

في التاريخ بالعربية • فترتب على ذلك انتقال مشعل هذا العلم الى غيرهم، وبخاصة علماء التاريخ في اوروبا الذين تلقفوا الاسس التي وضعها العرب وزادوا فيها ، مما ساعد على تطور المنهاج العلمي للبحث التاريخي على أيديهم • وزاد من تفوق علماء التاريخ في وأوروبا ، انهم لم يقتصروا مثل علماء العرب على تاريخهم وحده،وفي النادر على تاريخ الشعوب ملتي اتصلت بهم كالروم والقوط والمغول والخزر والفرنجة ، وانما اهتموا بتاريخ غيرهم ، بتفصيل لا يقل عن الاهتمام بتاريخهم الخاص • وقد كان اهتمام علماء من غير العرب بتاريخ العرب وبأصناف علومهم هو ما عرف في وقتنا بالاستشراق •

فلما عادت للعرب نهضتهم الحديثة ، بمجيء القرنين التاسع عشر والعشرين ، نتيجة لتيقظ الشعور بالقومية العربية ، عاد حبهم للتاريخ • وفي أول الأمر تقصوا بحثه على الاسس التي كان اجدادهم يكتبون بها في العصور الوسطى ، دون أن يحاولوا اقتباس طرق البحث الحديثة • ثم كان اتصال العرب بمراكز الحضارة الغربية بارسال بعثاتهم الى أوروبا، وفتح جامعات ومدارس على النسق الاوروبي ، مما جعلهم ينقلون طرق البحث العلمي في التاريخ ، ويخلطونها بطرقهم القديمة • وأخيرا ظهر من علماء العرب في وقتنا ، فئة من الباحثين في التاريخ ، أخذت تسهم في تقدم هذا العلم العربي العتيد ، بنفس المستوى الذي يسهم فيه غيرهم من العلماء •

فبالنسبة لمصادر التاريخ الاسلامي ، لم تعد المشاهدة او السماع أساس كتابته ، مثلما كان الحال من قبل ، وانما زاد الاهتمام بمصادر اخرى ، لم تكن تدخل في حساب مؤرخي الاسلام في العصور الوسطى • فقد زاد الاهتمام بالوثائق والآثار والنقوش والعملة ، وذلك على أساس أنها تعتبر من أوثق مصادر التاريخ ، لاحتوائها على المادة الخام ، الحية النشيطة ، القابلة للتشكيل،والبعيدة عن المؤثرات والعواطف • كما أصبح يميز بجلاء في المصادر القلمية ، بين ما يعرف بالمصادر الأصلية ، والمراجع الفرعية ، فالأولى هي الانتاج الاصلي ، لمؤرخي الاسلام

القدامى ينقلون فيها اخبارا معاصرة ، أو يعتمدون على أخبار معاصرة ، ليس من السهل الرجوع اليها ، أما الثانية ، فهي الكتب الحديثة ، التي ألفها المستشرقون ، أو الحديثون في الشرق .

ثم ان التاريخ الاسلامي في عصرنا ، لم يعد كما كان مجرد نقل الحقائق ، أو تحري صحتها ، وانما أصبح أيضا المؤرخ نفسه ، حتى يصبح الماضي حيا في الحاضر ، وهذا هو الربط بين الماضي والحاضر . وقد زاد دور المؤرخ الاسلامي على اساس انه هو الذي يكشف الوقائع والمادة التاريخية ، التي تبقى غير مستعملة الى أن يظهرها ، ثم هو الذي يرتب تسلسل أحداث الماضي ، وما يستخلصه منها بعد تمثلها في فكره ، ليس على أساس انشائي ، وانما بالاولى على أساس العلية ، أي العلة والمعلول، والسبب والمسبب ، أو بمعنى آخر على أساس البواعث والحيثية .

وقد جر ذلك ، الى ان مؤرخي الاسلام أضحوا مثل غيرهم يتبعون مدارس التفسير الحديث . فكثير منهم من ينهج في تفسيره على أساس ديني ، لأن التاريخ الاسلامي ارتبط بظهور الاسلام . وان قدر الانسان قد خط في لوح محفوظ ، وأن التاريخ هو برهان للخير والشر . وعلى العكس ، فقد ينهجون في تفسيره منهجا علمانيا محضا ، بمحاولة البعد عن العواطف الدينية ، أو أي شيء سوى الحقائق العلمية ، أو على اساس مادي وهذا هو التيار الماركسي او الفلسفة المادية ، فالعلاقات الاقتصادية هي محاور التاريخ ، وانها هي التي تحتم الاوضاع الاجتماعية والاخلاقية والدينية والسياسية والحضارية أو حتى على أساس الحتمية او الجبرية، او المصادفة ، او غير ذلك من مذاهب التفسير .

وفوق ذلك ، لم تعد الأغراض السابقة ، التي كان من اجلها يكتب التاريخ الاسلامي في العصور مقبولة لدى مؤرخي الاسلام الحديثين ، فهم لا يقبلون ان يكتب التاريخ بقصد المنفعة والعبرة والحصول على ملكة التجارب ، حيث كان المؤرخون القدامى يقتدون بالقرآن الكريم ، الذي قص كثيرا من أخبار الامم الماضية للتذكرة والعبرة ، ولذلك كانت

المؤلفات الاسلامية الاولى ، يتوسع فيها لبدء خلق الارض ، حتى انهم رددوا هذه الجلسة المعروضة : من حفظ التاريخ في صدره أضاف اعمارا الى عمره ، فهم الآن لا يقنعون بجمع تجارب الغير ، فضلا عن ان التجربة الانسانية غير محدودة ، وانما هم بالأولى لا يرون في مادة التاريخ ، الا محاولة للكشف عن حقيقة الانسان في الماضي ، لزيادة معرفته في الحاضر، وان كان هـذا لا ينفي وضع دروس الماضي في خدمة المجتمع الانساني الحديث •

كذلك ، لم يعد مؤرخو الاسلام الحديثون يقبلون كتابة التاريخ لابقاء الذكر ، ومثلما كان سابقا ، بالعمل على تسجيل أخبار الصفوة وبخاصة الملوك ، حتى انهم كانوا يرددون من أقوال النبي : من ورّخ مؤمنا ، فكأنما أحياه ، ذلك لانهم لا يرون ان التاريخ للصفوة وحدهم ، وحتى اذا تعرضوا لهم ، فانهم يضعونهم تحت المجهر ، حتى ولو كانوا من الأنبياء ، ذلك لأنهم بشر ، وان حياتهم ملك التاريخ ، والتاريخ لا يجامل أو يكذب ، وأن السرد على أساس المناقشة قبل كل شيء •

وحتى القالب الذي يصاغ فيه العرض التاريخي الحديث ، فقد اختلف عن ذي قبل ، حينما كان يكتب في جمل قصيرة جافة ، الواحدة بجانب الاخرى ، بدون ربط ، او حتى على اساس اسلوب انشائي أو أدبي ، يستخدم فيه السجع أو غيره ، فانه أصبح يستخدم في كتابته اسلوبا واضحا بسيط وممتعا ، وخاليا من الاخطاء اللغوية ، في دقة وايجاز وضبط واحكام ، في فترات متعددة ، يعني قبل كل شيء بابراز الفكرة ، وينهج منهج الدقة والاحتياط ، بحيث تكون لكل كلمة دلالتها وقصدها ، كذلك ، لم يعد هناك داع ، لأن تذكر صيغة الاجلال، كلما ذكر احد الانبياء المرسلين ، لأن المؤرخ قاض محايد ، ببراهينه يحكم في كل شيء يتعلق بالانسانية ووجودها • هذا وان عدم ذكر ، مثل هذه الصيغ ، لا ينتقص من قيمة الاحترام للانبياء ، أو يشكك في ايمان المؤرخ •

وفوق ذلك فان المؤرخ الاسلامي اضحى يهتم بالتهميش ، الـذي أصبحت له قواعد تكتيكية محكمة ، بحيث أصبح صنعة ، تحتاج الـى تمرس بمعرفتها ، وهو الذي يوجد في أسفل الصفحة ، أو في آخر الفصول أو الكتاب ، أو ما يسمى أيضا بالحواشي ، ويحتوى على المصادر والمراجع وبعض الملاحظات • فالتهميش بشكله الحالي ، لم يكن له وجود مـن قبل ، وحل محل السنـد أو أسانيد الكتب • والواقع ان الاهتمـام بالهوامش في وقتنا ، أصبح لا يقل عن الاهتمام بالمتن •

ومع هذا التجديد ، الذي حدث في منهج التاريخ الاسلامي ، فانه في رأيي يجب على مؤرخي الاسلام الحديثين أن يأخذوا حذرهم في كل منهج تفسيري ، اذ ان مهمتهم الاولى هي تعمق طابع الحياة الاسلامية وقيمها في وقتها ، فيكونون معبرين عنهـا ، حتى لا يجعلـوا الوسيط حديثا ، والاسلامي أوروبيا ، فالموضوعية مهمة ، والا جعلوا تاريخهم سطحيا لا أصالة فيه • حقا ان ماركس وانجلز هما اللذان ابرزا التفسير المادي ، ولكن أيا منهما لم يتعرض للتاريخ الاسلامي ، الذي هو قطاع في التاريخ مختلف عن القطاع الاوروبي ، كما أن الاقتصاد وان كان هو الذي يحرك كل شيء في عصرنا ، الا أن الدين كان هو المحور المهـم في العصـور الوسطى ، وكل شيء يدور في فلكه • ومع ذلك ، فان مؤرخي الاسـلام يجب ان يتحرروا الى حد ما من الارتباط البيئي والديني ، اذ ان المؤرخ جزء من عصره ، وان معنى التاريخ في أي زمن ، هو الزاوية التي ينظر منها الى مجتمع في زمان ومكان محددين ، وذلك دون القطيعة طبعا مع البيئة ، والا وجد معارضة شديدة من رجال الدين المتزمتين في الشرق ، وهم كثيرون •

ثم أن مؤرخ الاسلام الحديث ، أصبح أشد فئة المؤرخين اقتناعا بأن التاريخ لا يكتب الا اذا تبلور ، والا أصبح في نظره صورة بدائية ، لا

تعني شيئا في سيرة الانسان ، ولأن التبلور هو الغربلة التي تتم عبر السنين ، وهو الأقرب الى الوضوح الشفاف وذلك على عكس ما كان مفهوما سابقا من أن التاريخ الحقيقي هو ما كان يكتب في وقته ، بالسماع والمشاهدة . ولذا فهو يتردد كثيرا في ان يعترف بما يسمى التاريخ الاسلامي المعاصر ، وان كان المستشرقون قد أوجدوا هذا الفرع من التاريخ عندهم في بلادهم . فالمؤرخ الاسلامي الحديث يفضل ان يقوم بالتاريخ الاسلامي المعاصر من يشتغلون بالاولى بالتاريخ الحديث .

كذلك ، يجب ان نهتم باتجاه لابن خلدون ، تجاهله مؤرخو الاسلام مع أهميته ، وهو دراسة التاريخ على أساس حضاري ، اذ ان هذا من شأنه ان يجعل نظرتنا الى احداث التاريخ على أساس حضاري ، اذ ان هذا من شأنه ان يجعل نظرتنا الى أحداث التاريخ أكثر تعمقا . ولكن هذا لن يتأتى الا اذا اهتممنا أكثر بالتعبيرات الاصطلاحية الاسلامية ، التي هي في الواقع كما التاريخ ، أو أشبه بالأرجل للانسان . وقد وجد من تناولها بالاهتمام في العصور الوسطى مثل ابن سيده ، وفي العصر الحديث مثل المستشرق الكبير دوزي . ولكن بعد ان ظهرت ابحاث تاريخية عديدة، تتناول النظم والرسوم وصنوف الحضارة ، أصبح لزاما الاهتمام بهذه الاصطلاحات ، واعادة تأليف المعاجم فيها ، حتى يتهيأ للمؤرخ فهم أعمق للتاريخ .

وعلى العكس ، لا بد من ايجاد مفتاح آخر للتدهور والازدهار في الحضارة ، غير ما قاله ابن خلدون ، الذي جعل لكل حضارة عمرا معلوما ، وانه لا بد أن ينزل بها الهرم ، بل يحدد لها ثلاثة أجيال ، والجيل عمر شخص واحد ، فكل حضارة في رأيه ، تحمل في طياتها جرثومة عدم الكمال ، وفي اللحظة التي تبلغ فيها الحضارة أوجها يبدأ الانحلال والسقوط . ثم انه يرى أيضا ان أشد أعداء الحضارة الترف ، اذ ان خلال الخير تذهب ويزداد الشر . فالحضارة تتدرج من الخشونة الى الترف الناعم ، وان الخشونة وحدها هي التي تحفظ الحضارة . ولكن في وقتنا

اذا نظرنا الى أي حضارة بصفة عامة ، نرى ان الحضـــارة ليست فقط مسألة عمر ، وانما هي بالاولى أسلوب لحل مشاكل الحياة ؛ وذلك فان مجيئها وذهابها يكون بسبب تطور الحياة • ثم أليست الحضارة بتقدمها وتدهورها دليلا جديدا على ان الخير والشر من مستلزمات الانسان ، فالتقدم دليل على عمله واجتهاده ، والتدهور دليل على تقصيره ، مما يدعو الى العمل والاجتهاد من جديد •

مما سبق ، يتبين ان التاريخ الاسلامي علم له أصالة عربيـــة وان التجديد الذي حدث له ـ مبنيا على أصالته العربية هذه ـ دليل علـــى الأصالة والتجديد فيه •



القضايا الافريقية المعاصرة في التراث المكتوب للعلامة توينبي

د. عبد القادر زبادية
أستاذ كرسي الدراسات الافريقية
ورئيس قسم التاريخ / جامعة الجزائر

يجد المتتبع للقضايا الافريقية في التراث المكتوب للعلامة توينبي، أن الرجل بدأ يكتب ويهتم أكثر بالقضايا الافريقية حينما أصبح في سن الشيخوخة ، وهو ربما كان يتتبع ويهتم بهذه القضايا قبل ذلك بزمن طويل أو قصير ، الا أن التطورات السريعة التي رأتها القارة الافريقية منذ الستينات من هذا القرن لفتت انتباهه أكثر على ما يظهر ، وبدأ يكتب عنها مع بداية السبعينات : فقد زار توينبي الجمهورية العربية المتحدة (مصر) في الفترة ما بين ٢ الي ٢٢ كانون الاول ١٩٦١ ، وزار المغرب الأقصى في الفترة ما بين ٦ الى ١٣ حزيران ١٩٦٢ ثم زار كلا من الجمهورية العربية المتحدة للمرة الثانية وبعدها نيجيريا والسودان وأثيوبيا وليبيا في الفترة ما بين ١٩ شباط الى ٢٢ نيسان ١٩٦٤ . وقد صرح توينبي على أثر هذه الزيارات بأنه اكتشف تلك البلدان الافريقية حسب تعبيره[١] .

وعلى أثر تلك الزيارات كان توينبي يكتب انطباعاته الى عدد من المجلات والجرائد البريطانية ، غير أن معظمها كان قد خص به جريدة الأوبسرفر Observer الاسبوعية . ثم جمعت تلك المقالات في كتاب اصدرته مطابع اكسفورد الجامعية في لندن سنة ١٩٦٥ تحت عنوان بين

(١) A. J. Toynbe - Afrique Arabe Afrique Noir, Paris (Sindbad), 1972 (Aver- tissement de l'édition originale).

النيجر والنيل • وقد ترجم هذا الكتاب نفسه الى اللغة الفرنسية وطبعته مؤسسة السندباد سنة ١٩٧٢ تحت عنوان آخر « افريقيا العربية وافريقيا السوداء » •

وقد جاءت فكرة هذا العنوان الأخير على ما يبدو من المقدمة القصيرة التي كان قد كتبها توينبي للطبعة الانجليزية سنة ١٩٦٥ ، والتي جاء فيها : (ان هذه النصوص « أي نص الكتاب » لها محور أساسي هو التنازع بين العروبة والزنجية في افريقيا الذي سيكون دون شك عنصرا مهما في السياسة العالمية في المستقبل) [1] • انتهى النص •

والحقيقة أن كلا من العنوانين لهذا الكتا بله أهميته هنا ، فقد زار توينبي أفريقيا واهتم خاصة بالمنطقة المعروفة لدى العرب منذ العصور الاسلامية الزاهرة بمنطقة السوادين ، (جمع سودان) ، وهي المنطقة التي يشير اليها عنوان الكتاب في أصله بالانجليزية بما بين النيجر والنيل ، فكان لذلك معناه الجغرافي ، أما المحتوى التحليلي الأهم فيما يتعلق بالنظرة الى المستقبل والماضي والذي كان توينبي يرمي اليه فهو ما ينطبق عليه عنوان الطبعة الفرنسية للكتاب •

ان منطقة السوادين هي المنطقة التي دخلت في ظل الحضارة العربية الاسلامية وامتزجت فيها بالتدريج أكثر من أي جزء آخر في أفريقيا السوداء ، فلما بدأت الفترة الأوروبية في القارة السوداء مع نهاية القرن الماضي ، خضع السكان في السوادين لتوجيهات أخرى كما هو معروف ، ولكنهم أظهروا صلابة فيما يتعلق بالتصاقهم العقائدي والحضاري السابقين كمجموعات أحيانا وكأفراد في أحيان أخرى ولو لبعض الوقت ، وقد نجح الأوروبيون في جميع افريقيا الى الجنوب من حدود السوادين في كسب السكان لعقيدتهم ولأهدافهم الحضارية الأخرى ، فأعطوهم من حظوظ التثقيف ما جعل النخبة من بينهم تتفوق في ميدان الثقافة الحديثة

---

(1) Ibid.

على سكان السوادين الذين كانوا خلال الفترة السابقة للاحتلال والتوسع الأوروبيين هناك ، أكثر من غيرهم معرفة والماما به •

ولما جاءت فترة الاستقلال وجدت هناك أسباب لوجود منطقة أو مناطق للتوتر على هذا الأساس ، وقد تتبعها توينبي بالشرح الوافي وحلل دواعيها البعيدة والقريبة على طريقته المعهودة في التعميم الشامل ، وذهب في تحليلاته تلك الى حد انتكهن أحيانا بما كن سيحدث في المستقبل القريب •

يقول توينبي في مقدمته التي كتبها للطبعة الفرنسية : (ان السبع سنوات التي تفصلنا عن الطبعة الأولى قد رأت لسوء الحظ تحقيق بعض التوقعات المتشائمة المسجلة في هذه الصفحات ، ففي نيجيريا وقع الصراع الأكثر مأساة ، وقد كان لي الشعور أثناء زيارتي (لها) بضغوطه القائمة في كل مكان •••

وفي أثيوبيا كنت أحس بالتصادم القائم الى الآن ، والذي يعارض فيه الوطنيون الامهريون رفض صوماليي الشرق للأمبراطورية ، ولكني لم أكن أتوقع قيام حرب العصابات في أريتريا ، أما تغيير نظام الحكم في ليبيا فانه لم يفاجئني ، فقد كان واضحا خلال زيارتي الى أن الحكومة الملكية لم تكن تقبل متطلبات وقائع الحياة العصرية [١] •

ويستطرد توينبي في تعليقه على حرب ١٩٦٧ بين العرب واسرائيل ونتائجها خاصة فيما يتعلق بمصر العربية وموقعها الافريقي فيقول : (وفي مصر كنت مقتنعا بصورة واقعية بطبيعة حدة التصادم الذي يتعارض فيه العرب والاسرائيليون ولكن لم يتبادر الى ذهني أن يقوم الاسرائيليون بهجوم حزيران ١٩٦٧ ضد الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والاردن ، وقد كان من نتائج ذلك الاعتداء احتلا لمسلح مرة أخرى لأراضي عربية هامة واخضاع آلاف من العرب الى القوانين العسكرية لاسرائيل بعد أن كانوا أحرارا الى وقت قريب قبل ذلك ، وهؤلاء العرب هم اللاجئون

---

(١) Toynbee, op. cit., (préface de l'édition Française).

أنفسهم من جراء اعتداءات اسرائيلية سابقة ، كما أني لم أكن أتوقع أن تتوقف قناة السويس من جديد عن العمل) .

ويشير توينبي بعد هذا الى قضية الشمال والجنوب التي عرفها السودان بصورتها الانفصالية المعروفة فيرى ان الشماليين ألحقوا بالجنوبيين من الآلام ما يلحقه الاسرائيليون بالعرب في المناطق المحتلة ، ثم يرى في الاتفاق الذي عقده الجانبان بهدف التصالح الوطني حلا عادلا (مما كان يشير بسلم دائمة لتلك البلاد) على حد تعبيره [١] .

وبعد أن يقرر توينبي في مقدمة كتابه ، هذا في طبعته الفرنسية بأن القارة الافريقية كانت تشهد على أيامه ولا تزال تطورات سريعة تفوق في سرعتها ما كان يجري على ساحة أية قارة أخرى ينتهي الى النتيجة التالية وهي (أن أعمق ما تحتاج اليه افريقيا والعالم معها هو تغيير جذري في المفاهيم)[٢] .

ان المتتبع لما كان يجري وما هي الأوضاع الحقيقية في بلدان افريقيا المستقلة الآن يدرك ولأول وهلة الى أي حد تبدو هذه العبارة عميقة وصادقة فيما كتبه توينبي عن افريقيا ، فلقد خلقت طبقة « النخبة » الجديدة أثناء الفترة الأوروبية وأعطي لها الحكم لتخدم كما معلوم اهدافا خاصة وتنتقم من كل من يعارضها أبشع انتقام [٣] .

لقد صنف توينبي نفسه في كتابه (العالم في مارس ١٩٣٩) بين أولئك الذين يهتمون بالقضايا العالمية وذلك لأنه حسب تعبيره (يكون مخطئا

---

(١) Toynbee, op. cit.

(٢) Ibid.

(٣) Cf. Samir Amin, New Colonialisme in W-Africa, N. York, 1972; Lucy Mair, «New elites in East and W. Africa» in Victor Turner, Ed., *Colonialism in Africa 1870-1960*, London 1971, Particularly pp. 180 ff.; AJAYI et al., Christian missions in NIGERIA 1841-91, the making of a new elite, EVANSTON, 1965; Georges Hardy, Une Conquête Morale = L'enseignement en Afrique Occidentale Française, Paris 1917.

من ينظر حوله ويتناسى أن يلقي بنظرة نحو المستقبل والماضي معا) [١]

وانطلاقا من هذه الفكرة كان توينبي يكتب عن القضايا الافريقية بروح المؤرخ الفيلسو فمبينا أخطاء الاوروبيين نحو الافارقة ، ففي كتابه (المسيحية والديانات الاخرى للعالم) كان يرى بأن عالم اليوم عالم مادي ويرى أن على المسيحيين أن يبشروا بدياناتهم على أساس التسامح الحقيقي وليس على أساس التعالي [٢] .

وفي كتابه (العالم والغرب) أكد هذا الانطباع : (ان الشعوب غير الغربية يمكن أن تختلف حول الجنس أو اللسان أو الحضارة أو الديانة ، ولكنها تتفق اتفاقا كليا حول نقطة هي أنه اذا سئلت من طرف أحد الغربيين عن رأيها حول الغرب فانها تفضل كلها جوابا واحدا . فتقول كلها ان الغرب كان معتديا كبيرا خلال العصور الحديثة ، وكل شعب يستطيع اثارة تجاربه ليعلل هذا القول) ، وبعد أن يأتي توينبي على تعداد نوعية الأجوبة التي يثيرها في هذا الصدد كل من الآسيويين والأميركيين ، ينتقل الى ما يجيب به الأفارقة فيقول : (يتذكر جميع الأفارقة بأنهم كانوا قد أنزلوا الى العبودية وحملوا الى الطرف الآخر من المحيط ليخدموا الأوروبيين الذين كانوا قد استعروا الاميركتين وأصبحوا بين أيديهم مجرد آلات مكلفة بالسهر على الثروات التي كانوا متعطشين لها) [٣] .

لقد كان توينبي في كتاباته عن القضايا الافريقية ينطلق دائما من فكر انساني واسع الافق ، فهو يؤكد دائما على الجانب الانساني كأساس للحياة ، وهذا يظهر بجلاء من كتابه (المدن في التاريخ) الذي أكد فيه توينبي على ضرورة العناية بالانسان كأساس للحياة القومية على الأرض [٤] .

---

(١) Toynbee et Aston Frank, Le Monde en Mars 1939 (trad. Marie Todd, Paris 1958) - introduction.

(٢) Toynbee - Le Christianisme et les autres religions du monde, Paris 1959.

(٣) Toynbee - Le Monde et l'Occident, Paris 1953, p. 72 f.

(٤) Toynbee - Les Villes dans l'Histoire, Paris, 1972.

كما أنه في المحاضرات الاربع التي ألقاها في كليات القاهرة سنة ١٩٦٦ كان يدعو الى وجود التخلي عن جميع الأفكار الضيقة ، ويحث على وجوب الاهتمام بالنظرة العالمية الشاملة التي تتناسب وتضايق المسافات بين الامم والشعوب وكل أجزاء الكرة الأرضية،ويدعو كذلك الى وجوب خلق البرامج المناسبة لتغيير أفكار الفرد التقليدية المتعصبة ، وقد كانت كتاباته عن القضايا الافريقية تتسم دائما بهذه الميزة [١].



(١) راجع محاضرات توينبي ــ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ــ القاهرة ١٩٦٦ .

التأثير الشرقي على الفن المسيحي المبكر في ايطاليا

الدكتور سامي سعيد الأحمد
قسم التاريخ / كلية الآداب
جامعة بغداد

ان تاريخ القرون الاولى للمسيحية مبعثر ، غير منظم ومعقد للغاية . فهو زمن تفكك الامبراطورية الرومانية والعالم القديم . ويعكس لنا الفن المسيحي حقا هذا التعقيد والفوضى التاريخية بصورة بينة . ولما كانت المسيحية قد نشأت في عالم سيطرت عليه روما وكون معالم النظم المسيحية الجديدة لم تتوضح وتتكامل فجأة بل بصورة تدريجية فمن المتوقع ان نشاهد الامثلة الأولى من الفن المسيحي قد تأثرت كثيرا بمعالم حضارة العالم القديم المتأخر . ولكن الفن المسيحي المبكر لا يمكن ادراكه كاستمرار او ترد لفن تلك العصور اللاحقة من التاريخ القديم . فالتأثير اليوناني على الفن المسيحي ، على سبيل المثال ، كان فعالا ومؤثرا ولكنه تأثيرا واحدا حيث تستحيل على أنماط الفكر اليوناني أو تغيراته ارضاء العقل المسيحي . فالمسيحية شرقية في الروح والادراك . فقد ابتدأت مع المسيح في خبرته وخلاصه . ففي الفن مثلا نرى المسيحية قد عملت على اظهار معنى روحيا للامور التي يمكن رؤيتها وهذا في الواقع يمثل الاتجاه الشرقي في التوصل الى مبدأ الحقيقة . والهيلينية التي ركزت اهتمامها على حقيقة كون الاشكال الظاهرة خادعة للبصر لا يمكن أن تكون المصدر الوحيد لأي تعبير في المسيحية المبكرة .

وقد كتب الشيء الكثير عن أدوار فنون الامم المختلفة في بناء وتكوين بدايات الفن المسيحي ، ولكن الباحثين لا يزالون مختلفين حول

تعيين المنطقة التي لعب فنها الدور الاكبر في التأثير عليه • فقد تحمست فئة لقوة تأثير روما واعتبروا الفن المسيحي المبكر تطورا لفن ايطاليا الوثني ليس الا • ووضع غيرهم الثقل على منطقة شرق البحر المتوسط خاصة فنون سوريا وفلسطين • فالافكار الجديدة التي يمكن ملاحظتها في الفن قد تغلغلت الى مناطق اخرى مع الدين الجديد الذي ولد وترعرع في تلك الأصقاع • وأعطى آخرون دورا حيويا الى آسيا الصغرى حيث وعظ القديس بولس وحيث كان موطن غالبية آباء الكنيسة الاوائل ومحل تدريبهم لأتباعهم • في وقت أعطت فئة أخرى الأهمية الى فن بلاد الرافدين وايران حيث نشأ وتطور نوع مستحدث من الفن يخدم البلاط الفارسي أو حكامه في المقاطعات أو الأديان المعروفة آنذاك والتي منها على سبيل المثال المثرائية • وأصرت جماعة على عدم تشجيع المسيحية الاولى للرسم والتصوير وبذلك لم يبرز الفن المسيحي ، حسب رأيها، الى الوجود الا بعد فترة من الاعتراف بها رسميا • والواقع ان كل منطقة قد تبنت معالم الفن المعروفة فيها لدى اعتناقها المسيحية وأخضعته الى استعمالات وعرف هذا الدين الجديد • وبتزايد الاتصالات بين مختلف المناطق قوت حركة تبادل الأفكار واختلطت العناصر الفنية التي أدت أخيرا الى تبادل في الفنون المحلية وعملت على تطويرها •

وبصيرورة المسيحية دينا رسميا أخذ الفن المسيحي يظهر علنا في روما • فالصور التي كانت مقتصرة من قبل على تزيين جدران المدافن والغرف الصغيرة والمصليات أخذت الآن ترسم علنا في الكنائس الجديدة حال بنائها • وفي الوقت ذاته خرجت الرعاية من أيدي الطبقات الفقيرة من الناس الى الثرية منهم وتم استخدام الفنانين ذوى الكفاءات العالية الآن • واضيف الى تصوير الجدران أيضا المنحوتات والفسيفساء الجميلة •

وكان دخول معالم الحضارة الشرقية الى الغرب مكثفا للغاية وعلى غاية من الأهمية في القرون الثلاثة الاولى • وكان من نتائج هذا التغلغل الشرقي الواسع حلول الفن اليوناني ـــ الاسيوي للشرق المسيحي محل الطراز اللاتيني المضمحل • وكان لسكنى الكثير من اليونانيين والسوريين

في الغرب اللاتيني خلال القرون الميلادية الاولى أهمية قصوى في هـذا الباب • فمنذ القرن الرابع زادت حركة الاتصال نشاطا خاصة في الدوائر الدينية • والكتابات اليونانية من فينا وترير Trier ومراكز تشيرالى كثرة الشرقيين بين السكان •

فالفن المسيحي المبكر في شمال ايطاليـا مثلا كان متأثرا الى حد كبير بالشرق [١] • فقـد كانت عناصر فنه الأساسيـة مستمدة من فنون مناطق سيرميوم Sir Mium (حاليا ميتر وفيتز) في بانونيا (مقاطعة رومانية بين الدانوب (نهر ايستر Ister قديما) والألب وأراضيها الآن موزعة بين هنغاريا والنمسا ويوغوسلافيا) وسالونيك وبيثينيـا في آسيا الصغرى واجزاء اخرى من شبه جزيرة الاناضول • فجميع المطارنة في رافينا Ravenna بشمال ايطاليا حتى بطرس (٣٩٦ ـ ٤٢٥) كانوا سوريين • وكانت موانيء كلاس Classe وأكويليا نشطـة للغاية في التجارة بين مدن سواحل شرق البحر المتوسط والادرياتيك • وفي الوقت الذي كانت فيه كاللا بلاسيديا Galla Placidia (ابنـة تيودوسيوس) تعيش في رافينا وتعني على اصلاح البنايات القديمة بروما كانت هـذه التأثيرات الشرقية من منطقـة غرب آسيا المسيحية مؤثـرة للغايـة •

وبمجيء القوط ازدادت الارتباطات الشرقية لشمال ايطاليا • وكانت علاقة هذه المنطقة على وجه الخصوص مع كبادوكيا ، تلك المنطقـة التي تعتبر نقطة التقاء للتأثيرات الايرانية والآرامية والأرمنية • وقد اعتنق القوط أنفسهم المسيحية نتيجة اتصالهم بآسيا الصغرى كما ان سكناهم شمـال البحر الأسود جعلهم يتأثرون بالحضارة الايرانية وتلك لبيزنطة • وانتج حرفيهم بعض المصنوعات التي تظهر عليها التأثيرات الشرقية بكل وضوح• وهناك من يؤكد جلب القوط لصناع من أرمينيا وسوريا وآسيا الصغرى معهم [٢] • والى هؤلاء الصناع الأجانب يعزى دخول البنايات المعقودة Vaulted الى ايطاليـا لأول مـرة والتي منهـا دخلت الأقطـار الأوروبية الاخرى •

وبعد الاعتراف رسميا بالكنيسة سنة ٣١٣ صار من الممكن تشييد محلات مسيحية للتعبد • ولكن لم يمض وقت طويـل حتى صرنا نلحظ البنايـة المستطيلة الخطة ذات الأبعاد المختلفة قد شيدت لهذا الغرض في الكثير من مناطق الامبراطورية • ففي روما شاع هذا النوع من العمارة في القرن الرابع وهي التي صارت تعرف بالباسيليكا المسيحيه المبكرة • ولا يزال أصل الباسيليكا مختلف عنه في تاريخ الفن والذي ربما اخذت بعض الأفكار عنه من البيوت الرومانية الخاصـة حيث كان يجتمـع المسيحيون الأوائل أو ربما من الباسيليكا الرومانية الرسمية السابقة • ومهما اختلفت الآراء حول أصل الباسيليكا فان المتفق عليه انها غربية الأصل [٣] •

ولرؤية التأثيرات الشرقية فلنتفحص شكلا آخر من البناء استعمل بالعصور المسيحية الاولى وهي الكنيسة المركزية الخطة بأنواعها المختلفة الدائرية التي تشبه التولوس القديم ، والمربعة أو الصليبية ذات الصليب ذو الأبعاد المتساوية كما في الصليب اليوناني ثم الخطـة الكثيرة الأضلاع• ومهما اختلفت الخطة المستعملة فان القسم المركزي للكنيسة كانت تغطيه قبة Dome • وهناك طراز آخر تصل فيه القبة الى الأسفل دونمـا سبندل Spendrel (وهو الفسحة المثلثة الشكل التي تقع بين المنحنى الخارجي الأيمن والأيسر من القوس) بين الأقواس الساندة • ويمكـن ملاحظة امثلة هذا في جرش Gerasa في شرق الاردن وقصر النويس En-nueiyis في حمام الصراخ Es-sarakh بسورية من القرنين الثاني والثالث • وكان هذا النوع من العمارة سائدا في آسيا الصغرى وربمـا وصل الى رافينا من القسطنطينية حيث يعطينا مدفن كاللا بلاسيديا خير مثال لذلك [٤] • وهو عبارة عن عمارة صغيرة مخروطية معقودة على شكل صليب مع قبة Cupola على تنوئات Pendentives كروية أو متصلة • وقد شيدت بقنوات فخارية أخفيت من الخارج بالجدران والسقف الهرمي الشكل • وهذا النوع دفين Sepulchral وربط البعض أصله بالمدافن الصليبية الخطة من تدمر [٥] • وذهب آخرون الى اعتبار أصل القبة التي التي تبنى على قاعدة مربعة في أرمينيا وهناك دليل عن وجوده في كنيسـة

القديس جميس بنصيبين في شمال العراق الغربي (حاليا في تركية) التي بنيت في سنة ٣٥٩ . واعتبر البعض هذه الكنيسة اقدم بناية دينية مسيحية في العراق .وبذلك تكون الأمثلة الاولى من طراز عمارة الكالا بلاسيديا (سقف على شكل قبة يبنى داخل برج مربع) موجود في تاكار Tekar بأرمينيا ونصيبين في شمال العراق [٦] . وان بيت المعمودية في نابولي الذي شيده المطران سوتير Soter بعد سنة ٤٦٥ حوى على قبة شيدت فوق بناية مربعة ذات ايسقنشات (مفرد ايسقنش Sauinch وهو قوس يبنى عبر زاوية الغرفة لتدعيم ما فوقه) . ويتحمس البعض الى كون الايسقنش شرقي الأصل ظهر في الغرب نتيجة الاتصال مع منطقة كامبانيا Campania بايطاليا والشرق [٧] . وهناك من يرفض هذا الأصل الشرقي ويذهب الى كونها ايطالية المنشىء وان بيت المعمودية هذا بالذات هو أقدم بناية في ايطاليا موجودة الآن بايسقنشات[٨] ، وحتى البناية ذات القبب المتعددة فقد عزا البعض أصلها الى الشرق وجعلها نوعا متقدما من البيت الايراني . فالقصر عند فيروز اباد بايران حوى على ثلاث قبب على طول المحور المستعرض Transverse Axis للبناية بين الغرف عند المدخل في الامام والساحة الخلفية . وتمثل كنيسة الرسل في القسطنطينية مزجا من الخطة الطولانية والعرضية ووضع القبب على المحاور . وترينا كنيسة القديس لورينزو Lorenzo في ميلانو بايطاليا خطة الحلية ذات الاربعة فصوص Quater Foil والداخل مثمن الخطة ذا ثمان دعائم بينها أعمدة [٩] . وهناك من جعل هذه الكنيسة حلقة أخيرة من سلسلة تبدأ من الطراز الأرمني المتوضح في زوار ثنوتس Zwarthnots وتتوضح في الكنيسة الحمراء في بيروشتيتزا Perushtitza (حاليا في بلغاريا) وهي من المناطق التي اعتنقت المسيحية في وقت مبكر [١٠] . وتشبه خطة كنيسة القديس فيتالي Vitale في رافينا تلك للقديس لورنيزو . ورغم هذا التماثل فان البعض ربطها بطراز بيت المعمودية السالف الذكر وحتى بطرز بناية المينرفا ميديكا Minerva Medica (الليكينياث نيمفيوم Licinian Nymphaeum) على أساس وجود الجدار

الخارجي الثماني الأضلاع [١١] .

واذا انتقلنا الى فن التصوير نرى بأن التصوير المسيحي المبكر يظهر في اسلوبين واضحين : طراز الفسيفساء المرسومة على الجدران وتلك بالحبر والقلم (Tempera) المعروفة باسم المصغرات (Miniatures) لرسم المخطوطات الدينية الاولى.وقد دعى الفنان لرسم صور على الجدران وهي طريقة أقل تكليفا من الفسيفساء ولكن مع الاسف فان ما وصلنا من هذه الصور من خارج المدافن قليل . ويمكن ملاحظة الانفصال عن التقاليد الوثنية القديمة منذ حوالي ٢٧٠ م . فالتصاوير الجصية Frescoes على جدران عقادة امبلياتوس Vault of Ampliatus ومدفن دوميتيلا Domitilla ترينا مبدأ فنيا جديدا . والتمثيل في صور مدفن بريسكيلان أورانس Priscillan Orans يرينا الخلاص في الوسط ثم فيلسوف واثنين آخرين على اليسار وصورة مريم العذراء وطفلها على اليمين في الاسلوب الخطي . واشكال الاشخاص متباعدة على سطح مستوي دون ابراز أي حجم . أما الصورة الجصية التي ترينا المسيح بين حوارييه في مدفن دوميتيلا (من أواسط القرن الرابع) يعرض نفس التصوير الخطي الصلب المبسط [١٢] ، ويمكن رؤية الأمثلة المشاكية لهذه الصور والسابقة لها بالزمن في الشرق . فالصور من معبد الأرباب التدمرية في دورا يوروباس (تل الصالحية على الفرات) بالعراق (حاليا في سورية) من القرن الاول الميلادي تعتبر أحد الأمثلة [١٣] . فصور المدافن منها تمتاز باشكالها الصارمة المظهر رسمت في سبع وقفات أمامية في بعدين منظورين وألوان براقة . وكذلك الصور الجدرانية في كنيسة دورا Perspective والتي تعود الى سنة ٢٤٥ . وترينا هذه اسلوبا معبرا حقا ولكن في طريقة بعد لا تزال بدائية . ولو ان هذه الصور تشابه تلك من المدافن الرومانية الا أن هناك اختلافات عدة واضحة بينها . وقد اقترح بأن لا بد وان كان هناك طراز شرقي في التصاوير والمنحوتات الدينية أثر الى حد على طراز الفن المسيحي الذي تطور قبل أواسط القرن الثالث الميلادي [١٤] . واستنتج آخر بمقارنة التصاوير الجصية المسيحية من دورا بتلك من المدافن

الرومانية بأن الطرز الفنية الاولى التي اعطيت الى مواضيع مستمدة من العهد الجديد هي هي في الشرق والغرب مع فارق واحد نلحظه في تأكيد الطرز الغربية على الاختصار في التفاصيل [١٥] • والمخطوطات الدينية المصورة ذات علاقة وثقى بالصور الجدرانية • ومن المخطوطات المصورة التي وصلتنا في نسخ عدة مختلفة هي مصغرات الكرونوغراف من سنة ٣٥٤ [١٦] • وهذه عبارة عن مجموعة متنوعة حوت قائمة القناصل Fasti حتى ذلك الوقت وقائمة بأسماء مدراء شرطة روما ثم النوتيتيا ريكيونوم (Notitia Regionum) (وهن قائمتين حوتا المناطق الأربعة عشر التي قسم الامبراطور اوغوسطوس لها روما مع أهم البنايات فيهما) والشهداء ثم قائمة بمطارنة روما ودليل فلكي شهري يحوي على الكثير من الصور • وتظهر التزينات أصلا شرقيا حتى في اسم خطاط الكتابة (فوريوس دايونيسيوس فيلوكالوس) • وان طرز حواشي المخطوطة وصور الأوراق التي تتوج النقوش المرسومة واساءة استعمال الاجزاء العمارية وما الى ذلك جميعها تشابه الطرز التي نلحظها في مخطوط رابريلا Rabrilla للكتاب المقدس [١٧] • والأخيرة عبارة عن مصغرات في الكتاب المقدس السرياني المخطوط رسمها الراهب العراقي رابريلا من شمال العراق سنة ٥٨٦ ــ ٥٨٧ • فالحلية الحلزونية Volutes المزدوجة للاعمدة معروفة في طرز التوابيت الشرقية وتناوب الجمليون والأقواس ربما تكون أساس القوس والجملون بأعلى نص التقويم في كرونوغراف سنة ٣٥٤ • والمخطوطة الثانية التي نلحظ فيها التأثير الشرقي هي مخطوطة ايتالا كويدلينبورك Itala of Quedlinburg التي ربما تعود (على أساس خط الكتابة) الى القرن الخامس الميلادي [١٨] • وطرازها يشابه تلك لفرجيل الفاتيكاني • ولليوم الاثنين تشابه تلك في منحوتات عمود تيوديسيوس بالقسطنطينية والعاجيات الايطالية ــ الغالية Italo-Gallic مما يجعلنا نصف هاتين المخطوطتين كجزء من منتجات المدرسة اللاتينية المتأثرة بالشرق من القرن الخامس الميلادي [١٩] •

واذا انتقلنا الى الفسيفساء فنجد ان الكثير من المواضيع الوثنية

السابقة قد استمرت خلال العصر المسيحي المبكر • فالفسيفساء التي زينت جدران الكنائس بايطاليا خلال القرن الرابع ترينا تأثر قليل بالشرق بل انها تستمر في التوسع بمواضيع الفن المسيحي اللاتيني مع اضافات يونانية ــ اسيوية نلحظها في طرز وفن ايقونات القرن الخامس • ولكن فسيفساء القديس كوستانزا (Costanza) (قبر شيده الامبراطور قسطنطين الى ابنته بروما من القرن الرابع الميلادي) يعتبر أقدم دليل للطراز الايراني رغم وجود بعض العناصر الهيلينية المتطفلة • وان العقادة البرميلية Barrel - Vaulting للجناح الدائري في الكنيسة مقسم الى اثنى عشر قسما متميزا بعضها نقشت بطرز هيلينية وأحدها يوضح طرازا ايرانيا شائعا وصل دون شك عن طريق سورية • ويتألف هذا الطراز من أغصان أشجار منفصلة من نوع الرمان مع مزهرية أو برعم بكل غصن منها • وان احد عقادات قصير عمره البرميلية بسورية يحوي نفس الطرز ولكن ضمن مضلع معيني كما نراه في مخطوطات الكتب الأرمنية المقدسة [٢١] وكذلك في التعاليم الكنسية اليوزيبسية Eusebian Canons في سورية وكتاب الراهب العراقي رابريلا المقدس [٢٢] •

وقد مضى قرن من الزمان بين تشييد قسطنطين للكنيسة وبناء بيت التعميد في رافينا بايطاليا نرى خلالها اختفاء الطرز الهيلينية ولكن السورية الخالصة منها قد استمرت في البقاء•وبقت التزيينات بالفسيفساء والزخارف المجصصة Stucco ايرانية بالشكل • وقد ملئت المنطقة الوسطى من القبة بالأقواس العمياء من الزخارف المجصصة مع الطرز الخاصة التي تتوجها والتي نلحظها شائعة بالبنايات الايرانية الشرقية في كشمير • كما ملئت مجالات الأعمدة حول المثمن عند القاعدة بطراز لولبي يحيط بطرز وسطي تشبه الاوراد التي نلحظها في واجهة قصر مشاقة بشرق الاردن [٢٣] •

ففي كنيسة سان آكويلينو بميلانو (ايطاليا) نرى صورة المسيح مع حواريه في جناح الكنيسة النصف الدائري (Apse) الايمن نلحظ فيها التأثير الشرقي بكل وضوح • وترينا ألوان الصور الانطباعية تشابها

مع كسرات في هوسيوس داود Hcssios David في سالونيك (٢٤) .
ونـرى في قبـة بيت التعميـد الارثوذوكسي (أو القديس جيوفـاني Giovanne) في فونتي Fonte من القرن الخامس (٢٥) صورة التعميد في شريط وسطي مع حاشية ستارة منقوشة . وتحته نجـد استعراض الحواريين رسمت في منطقة أضيق من الفسيفساء مع أجزاء من داخـل الكنيسـة (الهيكل أو المصلى) . ويمكن مقارنة هذه مـع الفسيفساء العمارية في بناية القديس جورج بسالونيك (٢٦) . وكنيسة المهد في بيت لحم (٢٧) . وبالاضافة الى الصور الجصية التي توضح الوجه الشرقي هناك أيضا صورة الشمعدان الورقي الشكل ذو الشعب العدة وكذلك في الستائر حول الشريط الوسطي . ويحوي بيت التعميد أيضا على جانبي الشبابيك صورة شهيد واقفا حاملا الاكليل وبملابس ترينا تأثير الطراز الشرقي ذا الخطوط المستقيمة كما نشاهد التأكيد على جفن العين الأسفل الذي نرى ما يماثله واضحا في فسيفساء هرميس من انطاكيـة (٢٨) .
وهذه توضح لنا التأثيرات السورية وتلك للعاجيات القبطية المتأخرة من مصر (٢٩) . وتوضـح صور المسيـح في بنايـة ابوليناري نيوفـو Apollenari Nuovo في رافينا التي شيدت زمن ثيودوريك (٤٩٩ ـ ٥٢٦) وكرست سنة ٥٠٤ الى القديس مارتين Martin الصفات المزدوجة لفن نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس من رافينا والتي نراهـا واضحة في تصوير كل من المسيح الملتحي (على الطراز السوري) وبالوجه المحلوق الذي دخـل من آسيا الصغرى الى ايطاليـا ليحل محل الرأس القصير الشعر بمدافن القرن الرابع (٣٠) . فقد رسم المسيح حتى وقت تعذيبه Passion كشباب دونما لحية ولكن منذ العشاء الأخير صار يرسم بلحية . ويظهر من دراسة التفاصيل ان هناك يد واحدة عملت على رسم هذه الفسيفساء (٣١) . وحتى اذا ما أسلمنا القول بأن أكثر من فنان واحد قد أنجزوا هذه الصور فان الصور توضح دون ريب بأنها من انتاج ورشة فنية واحدة . ولنا ان نعرف بأن صورتي المسيح في هذه الرسوم تمثل الفكرة الايروسية Arian للمسيح والتي ترفض كونه ابن الرب

منذ البداية . وقد اعطت اللحية لصورة المسيح هيبة وجلالا وجعلته أكثر شبها بالأب . والتأثير الشرقي هنا واضح في طراز الفسيفساء . فالأوجه والأعين المدورة الشاخصة قد تحررت الآن من الاتجاه الهيليني الذي يبرز ثلاثة ارباع الشكل وصارت تبرز الامامية الكاملة Frontality وهذه الامامية في التصوير حسب ما يظهر قد تبلورت بالفن السوري ــ الحيثي وولع به الفرثيون فنشروه . ولم يكن جميع الباحثون يؤيدون كون هذه الصور متأثرة بالشرق ففسيفساء بناية القديس ابوليناري نيوفو في رافينا تظهر اتفاقا مع النماذج الرومانية مثل صورة قيام لازاروس والتنبوء برفض بطرس التي تشابه الصور من المدافن الرومانية وبعض المنحوتات على التوابيت المسيحية المبكرة من القرن الرابع الميلادي . وأكد هؤلاء على ان الامبراطور ثيودوريك لا بد وان جلب فنانين من روما للعمل على تزيين المباني التي بناها في رافينا وليس من الشرق كما بين كاسيودوروس Cassio Dorus (٤٨٠ ــ ٥٧٥) (٣٢) .

وان تشييد بناية سان فيتالي San Vitale في رافينا قد بدأ زمن رئيس المطارنة أكليسيوس Ecclesius (٥٢٤ ــ ٥٣٤) وأكملت زمن ماكزميان Maximian رئيس مطارنة الامبراطور جوستنيان سنة ٥٤٧ . ونعرف ان ماكزميان هذا قد قام برحلة الى القسطنطينية قبل تعيينه مطرانا وربما جلب معه لدى عودته جماعة من الصناع . واذا كان هذا الغرض صحيحا فانه يفسر عنصر المحافظة الذي نلحظه في الجناح النصف الدائري Apse وكذلك الفرق بين الرسوم الأولى وصور الالواح التي نرى فيها تقدما ملحوظا بالصنعة . وقيل انه جلب معه ايضا بعض العاجيات التي دخلت في تركيب العرش الذي يحمل اسمه (٣٣) .

وتمثل بناية سان فيتالي قمة الفن البيزنطي المبكر . فالجناح النصف مدور Apse قد بني في الطراز البيزنطي الصلب ونشاهد فيه المسيح الشاب يتوج بين اثنين من رؤساء الملائكة وقديسين . ونرى في الجدران الجانبية صورة الامبراطور قسطنطين والامبراطورة ثيودورة . فالصور رسمت مواجهة للناظر والملابس في طيات صلبة متوازية مهلهلة مع اهتمام

في اللون والنموذج والزينة • والزينة التي استعملت بهذه الحالةلم تستعمل (على حد معرفتنا) بأي انتاج فني من قبل بايطاليا [٣٤] • وتسربت العناصر الفنية الدخيلة من شمال ايطاليا ورافينا الى روما حيث نلحظها في فسيفساء الجناح النصف المدور Apse وقوس كنيسة القديسين كوسماس Cosmas ودامیان Damian في الفورم الروماني • فقد صور المسيح الآن بدينا باسلوب انطباعي ذا شعر طويل ولحية سوداء • وبين القديسين الذين صوروا كان القديس ثيودور وهو قديس كان بالغ الشعبية في الشر حتى ذلك الوقت مما يدل على مدى تأثر الطقس الذي عرف في روما بالشرق [٣٥] • وتبلور الطراز الشرقي هنا تبلورا جعل معه هذه الفسيفساء تمثل نهاية العصور القديمة بالطرز الفنية في روما • واستمر الفن في العاصمة الرومانية حتى الانبعاث القوطي ما هو الا نسخة محلية شديدة التأثر بالشرق •

وأهم الأمثلة المتوفرة من النحوت المسيحية الأولى هي المنحوتات على الصخر والمرمر والعاج • أما ما وردنا من النحوت المدورة فقليل وربما يكون سبب قلتها ندرة انتاجها لمشابهتها للتماثيل الوثنية السابقة • ومن الأمثلة كانت تمثال الراعي الطيب في متحف لاتيران Laterran بروما والتماثيل الخشبية التي نراها في أبواب بناية سانتا سابينا Santa Sabina بروما [٣٦] •

وتعود التوابيت في رافينا الى الفترة من النصف الأول للقرن الرابع الى السنين الاولى من القرن السادس • ويكن ان نلاحظ بعض العناصر الهيلينية من آسيا الصغرى في تلك التوابيت • والبعض منها تحت التأثير السوري الكثيف كما في تابوت بيكناتا Pignatta من القرن الرابع وتابوت اسحق من القرن الخامس [٣٧] • وما نحوت هذه التوابيت الا تكرار للصور الايقونية من سورية وفلسطين • ويمكن ملاحظة هذه في الوقفة الصلبة والاشخاص البدنيي الأجسام والملابس الثقيلة • ولا تزال المنحوتات في هذه الأمثلة من النحت البارز دون اظهار الاشكال مواجهة للناظر • ولكن منذ أواسط القرن الخامس صارت المنحوتات أقل عمقا

واضمحل التناسق بين الاشكال والاعضاء وصارت الوقفات مزواة (بزوايا) Angular وصارت الوقفة الآن مواجهة للناظر في الغالب ٠ ونرى من ذلك في لبارباتيانوس Barbatianus ورينالدوس Rinaldus و وايكسوبيرانتيوس Exsperantius [٣٨] ٠ كما نلحظ العنصر الشرقي في توابيت بوابة المدينة التي يظهر انها بدأت في شمال ايطاليا [٣٩] ٠ وتستخدم هذه طراز المنحوتات المعروفة برسالة الرسل التي فيها الرسل جالسين على جانبي المعلم مرسومين في الاتجاه الواحد الذي فضله الذوق اليوناني ــ الشرقي ٠ واشتق اسم المجموعة هذه من فتحات أبواب المدينة التي قدمت الشكل العماري التقليدي للخلفية ٠ وقد تأثر رسام نهاية القرن الرابع الميلادي بالرسام الذي صور التوابيت المزينة من الامام بصور عبور البحر الاحمر [٤٠] ٠ وقدم لناهذا المنظر مريم ترقص في ملامح آسيوية على رأس مجموعة من الناس ٠ ويعاصر الفنان الذي صور الرأس الآسيوي والشعر والملابس في الأشكال الرسام الآخر الذي أنتج صور توابيت بيت سيدا [٤١] ٠ وفي الطراز الآسيوي نرى الشعر ينتهي عند الحواجب ويتوسط البؤبؤ كرة العين ويحيط طيلسان الاسقف Pallium بالجسم من فوق ركبة واحدة وتظهر منطقة كبيرة من خلال الرداء الاغريقي الطويل Tunic للرائي ٠ وان الالهام الشرقي لرسم الاشكال هنا والتأثر بصور توابيت بيت سيدا نراها واضحة الآن لأول مرة في الغرب كما في منظر الصرع من موقع دورا يوروباس ،العراق القديم [٤٢] ٠ وتحت يمكن رؤية الرجل المشلول على فراشه وفوق نشاهد المسيح يوعز اليه بالخروج حاملا فراشه ٠

فالصلات بين توابيت راميتا والفن البيزنطي قوي ومتشعب [٤٣] ٠ وبالنسبة الى الفن الايقوني فيظهر المسيح في هيئته السماوية بجلال لا متناهي واقفا او يتوج بين رسولين مهمين ٠ وان امامية الاشخاص وتفرقتهم على السطح القليل العمق وطيات الملابس المتميزة تظهر كلها والمنحوتات عند قاعدة مسلة ثيودوسيوس [٤٥] ٠ وعلينا ان لا ننس هنا تأثير الهيلينية الشرقية ٠

وأهم الاتجاهات بطرز الفن المسيحي المبكر يمكن رؤيتها في عرش ماكزيميانوس Maximianus العاجي من القرن السادس في رافينا • فطراز النحوت ليس واحدا وقد ميز البعض أربع أياد فنية عملت على صنعه[٤٦] • فالفنان الذي صور الألواح الأمامية (يوحنا المعمدان ومؤلفي الأناجيل) كان متأثرا كل التأثير بالمدرسة الآسيوية • ورسم يوحنا المعمدان في طراز سوري مع خلفية عمارية تماثل التوابيت من ليديا • والصور من حياة يوسف تحوي اتجاهات شرقية صرفة • والطراز مفعم بالحركة والشعور والملابس فارسية والمحاريب عميقة حيث تشير الأشكال الى تأثير فن قندهار (اليوناني ــ البوذي) • والبعض مشابهة الى المنحوتات القبطية • وان منحوتات العهد الجديد على الظهر اكثر صورا ولو أن الطراز الشرقي الانطباعي الشامل قد استخدم • وتقترح لنا الشرائط التي تزين المناظر علاقة وثقى مع سوريا •

وهناك منحوتة عاجية سورية الأصل من القرن السادس تظهر العناصر التي أخذها الغرب من الشرق • وهذه المنحوتة العاجية حوت منظرين الأول تعبدي والثاني لميلاد المسيح • وتشمل طراز العاجيات السورية الواضحة في هذا الشكل تشمل تصوير العذراء وهي تواجه المشاهدين بكل صرامة برؤوس كبيرة وحركات مرتبكة غير منتظمة مع كبر حجم الشخص الرئيسي بالنسبة الى الأشكال الأخرى مع استعمال الثقب لتمثيل بؤبؤ العين •

فالفن المسيحي المبكر خلال القرون الستة الأولى بايطاليا عرض لنا تأثره الكبير بالفنون الشرقية • وبينما كان هذا غير مهم في السنين الأولى ولكن بتدهور روما السياسي التدريجي ورفعة القسطنطينية زاد التأثير عبر القرون • ولما احتل بيلزاريوس Belsarius الضابط البيزنطي رافينا وبقية ايطاليا سنة ٥٤٠ وقعت عاصمة العالم القديمة تحت سيطرة الشرق • ومن الآن صار فن رافينا والفن الروماني تحت تأثير الفن

البيزنطي الكامل . وكانت العناصر الفنية اليونانية ـ الرومانية مؤثرة للغاية في الفن المسيحي المبكر وشكلت بالواقع الاساس الذي ردت عليه دعائم العناصر الشرقية التي صارت تشتد قوة حتى غدت العنصر المحرك والأكثر أهمية في الفن المسيحي المبكر .

الحواشي والمراجع :

1 — O.M. Dalton, East Christian Art, (Oxford, 1925), p. 27.

2 — ibid, p. 58.

3 — W. Lowrie, Monuments of the Early Church, (New York, 1906), pp. 89 ff.

4 — Dalton, op. cit., p. 85.

5 — ibid, p. 157.

6 — J. Strzygowski, Origin of Christian Church art, (Oxford, 1923), pp. 59, 91.

7 — Dalton, op. cit., p. 156.

8 — G.T. Rivoira, Lombardic Architecture, (London, 1910), p. 129.

9 — Strzygowski, op. cit., p. 60.

10 — Dalton, op. cit., p. 156.

11 — Rivoira, op. cit., p. 56.

12 — W.F. Volbach, Early Christian Art, (New York, 1962), p. 13.

13 — D.T. Rice, The Beginnings of Christian Art, (Nashville, 1957), p. 31.

14 — ibid, p. 33.

15 — C.R. Morey, Early Christian Art, (Princeton, 1942), p. 66.

16 — ibid, p. 130.

17 — ibid, p. 115.

18 — ibid, p. 154.

19 — ibid, p. 155.

20 — Strzygowski, op. cit., p. 133.

21 — ibid, p. 135.

22 — Morey, op. cit., p. 116.

23 — Strzygowski, op. cit., p. 134.

24 — W.F. Volbach, Early Christian Mosaics, (New York, 1946), p. 10.

25 — Dalton, op. cit., p. 274.

26 — ibid, p. 280.

27 — ibid, p. 292.

28 — Strzygowski, loc. cit.

29 — Morey, op. cit., p. 135.

30 — ibid, pp. 159 ff.

31 — A.M. Cetto, The Ravenna Mosaics, (Greenwich, Connecticut, n. d.), p. 33.

32 — G. Bovini, Ravenna Mosaics... op. cit., p. 33.

33 — Rice, op. cit., p. 80.

34 — ibid.

35 — Morey, op. cit., p. 170.

36 — ibid, p. 145.

37 — Dalton, op. cit., p. 184.

38 — ibid.

39 — M. Lawrence, «City-Gate Sarcophagi», Art Bulletin, Vol. X, (1927), 1 ff.

40 — C.R. Morey, «Notes on East Christian Miniature», Art Bulletin, Vol. XI (1929), pp. 40 ff.

41 — M. Lawrence, «Columnar Sarcophagi», Vol. XIV, (1932), pp. 121, 175.

42 — Morey, Early...op. cit., p. 66.

43 — Volbach, Early Christian Art, op. cit., p. 31.

44 — ibid, p. 25.

45 — ibid, p. 24.

46 — Rice, op. cit., p. 56.

سيرة الفكر التاريخي عند توينبي

بقلم محمود زايد
الجامعة الامريكية - بيروت

توينبي مؤرخ عظيم بأي مقياس ومن أي زاوية كان النظر اليه . ولعله ظاهرة هذا العصر بين المؤرخين . فقد اجتمع له في تراثه التاريخي ما لم يجتمع لغيره من أسباب الضخامة والصناعة وسعة الاطلاع وشمول النظرة . وكان من الممكن له ان يقول عن تراثه ما قاله الشاعر الروسي بوشكين عن آثاره في قصيدة له بعنوان « لقد أقمت أثرا لنفسي » .

لقد أقمت أثرا لنفسي لم تشيده
يد انسان . وهناك طريق سوف يسلكها الناس اليه
وليس نصب الاسكندر بأعلى من عمودي
الذي يرفع رأسه الرائع في شموخ[١] .

ولقد اعترف حتى أقسى النقاد عليه[٢] بعدد من الملامح شبه

---

(١) A. Yarmolinsky, ed., *The Poems, Prose and Plays of Alexander Pushkin*, New York, 1964, p. 88.

(٢) كتب بيتر جيل يقول : « ان ما قدمه لنا توينبي الى الآن (وكان تسع مجلدات) انجاز جليل . ان احدا من سابقيه

المعجزة التي تميز تراثه وفي مقدمتها ثقافته الكلاسيكية الدقيقة واطلاعه الواسع وبصيرته النافذة ، ونظرته الشاملة وديباجته المشرقة ، وثروته الهائله من المقارنات والمقابلات التاريخية الرائعة ، ولقد احدثت فلسفته التاريخية من الدوي ـ وبخاصة في الغرب ـ ما لم يحدثه مؤرخ آخر ! وانتشرت أفكاره في محيط بشري واسع ، وتوافر على دراستها العديد من الكتاب والباحثين •

لكن بالرغم من هذه الشهرة الواسعة التي حظي بها ، فقد تفاوت الاهتمام بمختلف جوانب تراثه • ففي حين أن نظرته الى الحضارة والدين حظيت بالكثير من الاهتمام ، فان هناك جوانب لم تحظ الا بالقليل منه ومن هذه الجوانب سيرة فكره التاريخي ـ أي منابت أفكاره ، والظروف التي تبناها فيها ، والمكانة التي احتلتها نظرته الى التاريخ والحضارة ، ومصيرها في كتاباته عبر حياته المديدة ، وما اعتراها في تلك الأثناء من تعديل طفيف او كثير ومن تغيير جزئي أو كلي !

ولا حاجة بنا الى المبالغة في التأكيد على أهمية سيرة فكره • فهي قبل كل شيء مفتاح لفهم نظرته ، بل لا يمكن فهم نظرته بدونها • وفضلا عن

لم يبلغ ما بلغه هو في علمه وسعة اطلاعه . انه يصول ويجول في الحضارات الآسيوية الصينية والهندية كما يفعل في الحضارة الاميركية . فمعرفته وثيقة بالتاريخ الروماني وأعظم منها معرفته بتاريخ الاغريق . انه يعرف الادب الكلاسيكي . وعندما أقول « يعرف » أعني انه عميق الاطلاع ، ويستطيع ان يفيد منه بحرية تمكنه ان يقيم حججه وتأملاته على أساس أعمق . وما عنده من هذا يعدوه الى التوراة . فتوينبي يعيش مع التوراة التي ترصع صفحاته بكثرة . وفضلا عن هذا فهو يطلق لنفسه العنان أيضا في اقتباس جوته وشكسبير ومارفل وشلي وبليك ومردث . ويعرف كيف يستند في حججه الى المفهومات الاثنولوجية والسوسيولوجية والفلسفية والسيكولوجية . وهو الى هذا صاحب اسلوب مشرق مطواع متقن وهو قبل كل شيء منتبه أشد الانتباه الى الاطار الذي ينتظم جميع أفكاره . انه مفكر عظيم لا مثيل له بين من نعرفهم من المؤرخين .

Pieter Geyl, Debatates with Historians, New York, 1958, pp. 109-110.

هذا فهي تلقى ضوء على تجربة تاريخية غنية بالايحاء والالهام . وهي الى هذا كله تلقي ضوءا كبيرا على الفكر التاريخي في عصره . ومن حسن حظ المعنيين بها انهم يجدون في كتابات توينبي نفسه خير عون لهم على تتبعها ! فقد عني توينبي أشد العناية بولادة المؤرخ في شخصه ونشأتـه ومساره وثمرات بحثه وفيما يلي عرض موجز هذه السيرة الفريدة .

كيف صرت مؤرخـا ؟ :

قلما طرح اعلام المؤرخين هذا السؤال ، وأجـابوا عنه بالدقـة والوضوح اللذين اتسمت بهما اجابته . وقد نسب الفضل في توجيهه الى التاريخ الى امه . قال :

« لماذا درست التاريخ بالذات ؟ ان حب الاستطلاع يجرف امامه كل شيء وفي الكون امور كثيرة يمكن ان تثير حب الاستطلاع عند البشر وتثيره فيهم بالفعل ! لكن لماذا تركز حب الاستطلاع عندي في التاريخ دون غيره ؟ اعرف الجواب على هذا السؤال معرفة أكيدة . انني مؤرخ لأن أمي كانت من قبلي مؤرخة ! ولم يحدث يوما أن شككت في أننـي سأكون مؤرخا ! »[٣] .

لقد وقع توينبي تحت تأثير أمه التي نشرت كتابا يشتمل على قصص حقيقية من تاريخ اسكتلندا لكنه يضيف الى ذلك ان تأثير توجيه امه له كان توجيها عاما فقط .

ففي حين أنها كانت تحب الوقائع التاريخية لذاتها فانه احبها لا لذاتها، وانما لدلالاتها على أمور وراءها . أحبها لأنها تكشف ما استغلق فهمه من طبيعة الكون ومعناه . قال :

« نحن نحب أن نعرف مكاننا في الكون . اننا ندرك اننا لن نفهم سوى قبس منه لكن هذا لا يردنا من السعي الى القاء أعظم قدر من الضوء عليه »[٤] .

---

(٣) Arnold Toynbee, Experiences, London, 1969, p. 89-90.

(٤) *Ibid.*

لكن كيف بدأ توينبي يشتغل بالتاريخ ؟ يقول بأن ذهن المؤرخ كالطائرة النفاثة التي لا بد لها من الدافع لانطلاقها . وانطلاق المؤرخ لا يكون الا بمثل ذلك ، لكن انطلاقه يتأتى من الشرارة التي تثير حب استطلاعه .

فاذا أثير حبه للاستطلاع

« ... يتم الانتقال من الركود الى الفعل . وهذا الانتقال هو الذي يوحي للمؤرخ المبتدىء بأخذ زمام المبادرة ، والبدء بالعمل والقيام برحلات استكشافية في سماوات غير معروفة » [٥] .

مثل هذه الشرارة كانت قد أذكت روح الاستطلاع عند فولني وجونز وبيلي وشليمان . وقد أذكته عنده هو في عام ١٨٩٨ . وقد انطلقت من أربع مجلدات من سلسلة تاريخ الامم تدور بالترتيب حول مصر القديمة ، وآشور ، وميديا وبابل وفارس ، والعرب[٦] .

« ففي صباح أحد الايام من عام ١٨٩٨ وحين غمرت الحضارات المصرية والبابلية والسورية نظر الشاب بأنوارها الطاغية كانت اللحظة الحاسمة في التجربة الفكرية عند هذا الشاب الذي كان يراقب اجواء التاريخ فان ظهور هذه الاجرام السماوية المجهولة هو الذي نقله من حالة الركود الى حالة الفضول ــ الفضول الذي لا يزال الشاب سعيدا بتدفقه في ١٥ سبتمبر من عام ١٩٥٤ ، أي بعد ذلك بأربع وخمسين سنة »[٧] .

مراحل الفكر التاريخي عند توينبي :

يمكن القول بأن الفكر التاريخي عند توينبي مر في ثلاثة مراحل تمتد الاولى الى عام ١٩١٩ تقريبا ، وتمتد الثانية من هذا التاريخ الى أواخر الثلاثينات ، ثم تبدأ الثالثة وتستمر حتى وفاته .

---

(٥) Arnold Toynbee, Study of History, Vol. X, London, 1954, p. 7 ff.

(٦) *Ibid.*, pp. 18-19.

(٧) *Ibid.*, p. 19.

المرحلة الاولى

تعكس ذهنية توينبي خلال الجزء الأكبر من هذه المرحلة ثقافة أبناء جيله والتيارات السائدة في عصره .

الديـن :

فمن حيث المعتقد الديني نجد توينبي في أول نشأته مؤمنا مثل والديه بتعاليم كنيسة انجلترا البروتستانتية في اطاريها اللاهوتي والاخلاقـي . لكنه منذ وقت مبكر في حياته لم يحدده هو فقد ايمانه ببعض المعتقدات مثل ولادة المسيح دون أب . وفي مرحلة دراسته الجامعية بكليتي بمبروك Pembroke وباليول Balliol , ١٩٠٧ ــ ١٩١١) تحول الى «لادري» aganostic واستنتج من تحوله هذا الى ان الدين ذاته ليس الا وهما عديم الاهمية (٨) .

التاريخ القومي :

نشأ توينبي في جيل ركز اعلام مؤرخيه اهتمامهم بالتاريخ القومي باعتباره ألصق بحياة الناس وأقرب الى افهامهم ، ولم يهتموا بغيره مـن التواريخ الا من حيث اتصالها به . وعليه فقد اتخذوا من التاريخ القومي وحدة للدراسة التاريخية . وتأثر توينبي ذاته بهذا الاتجاه وكتب عـام ١٩١٥ يقول :

« وبالتالي فان الثقافة القومية حيثمـا تجلت هي قـوة أساسيـة كالديمقراطية القومية وان محاربتها هي بمثابة محاربة الله ذاته . وينبغي أن لا تنازعها اية ثقافة اجنبية على أحقيتها بمركز الصدارة . بل حتى على

(٨) Toynbee: Experiences, p. 125 ff.

الثقافة الام ان تتوارى وراءها »[٩] .

الحضارة الاوروبية :

ونشأ توينبي كذلك تحت تأثير النظرة السائدة بين الغربيين من جيله الى الحضارة الاوروبية على أنها حضارة متفوقة ، لا سبيل الى الشك في انتصارها وانتشارها في العالم كله يقول :

« هذه هي الحالة التي كان عليها عالمي أيام نشأتي . كان ظل الامن والاستقرار وارفا وفي امتداد مستمر . وبدا كل الناس سوف يعيشون الى أن يروا اليوم الذي يمتد فيه فوق العالم كله . وسلم الناس بأن الحضارة الغربية ستكون اطارا للمجتمع العالمي . كان غربيو ما قبل عام ١٩١٤ ، بما فيهم الغربيون البريطانيون يشعرون قبل كل شيء ان العالم لم يعرف ناسا مثلهم وأن الغربيين « متحضرون » لكن غير الغربيون «وطنيون» بمعنى انهم مجردون من الحقوق الانسانية »[١٠] .

كان معاصروا توينبي من الجيل اللكتوري شديدي الثقة بأنفسهم وبحضاراتهم بالرغم من أنهم كانوا بفضل دراستهم للغات والآداب الكلاسيكية (الرومانية واليونانية) يعرفون بأن الحضارة اليونانية انتهت نهاية محزنة وان الامبراطورية الرومانية تدهورت وسقطت فانهم اعتقدوا بأن حضارتهم غير قابلة للسقوط والانهيار . لقد تساءل ادوارد جيبون (Edward Gibbon) : « هل يمكن للكارثة التي أصابت القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية في القسم الخامس الميلادي أن تصيب يوما العالم الغربي القائم في عام ١٧٨١ ؟ » وأجاب على تساؤله بأن ذلك امر لا يمكن تصوره[١١] .

---

(٦) Toynbee: *The New Europe*, London, 1915, p. 52.

(١٠) Toynbee: Experiences, pp. 199-201.

(١١) *Ibid.*

ويلاحظ توينبي ان الدراسات اليونانية واللاتينية المقررة فيانجلترا في زمنه كانت تقف بالنسبة للتاريخ اليوناني عند وفـاة ديموسثينس Demosthenes وبالنسبة للتاريخ الروماني عند آخر سطور تاسيتوس وبليني الاصغر وجوفينال واما ما وراء ذلك فكان نصيبه الاهمال لأن علماء القرن التاسع عشر كانوا يرون في دراسته عيبين : عيبا ظاهرا كانوا يدركونه وينصحون عنه وهو اسفاف الكتاب لغة واسلوبا بشكل يخرجون به عن حدود اللياقة ويجرحون الشعور ، وعيبا خفيا كانوا يحسون بـه لاشعوريا ولا ينصحون عنه وهو انه يؤلف قصة فشل لا قصة نجاح لأنه في جـوهره تاريخ تدهور الحضارتين اليونانية والرومانية وانهيارهما ، الأمر الذي يوحي لهما بأن الحضارات الاوروبية قد تلقى المصير ذاته![١٢]

المرحلة الثانية

في أوائل هذه المرحلة أخذ توينبي يفكر جديا في كتابة دراستـــه للتاريخ . ويقول بأن الفكرة كانت تدور بذهنه في صيف عام ١٩٢٠ . وفي العام التالي وضع الخطوط العريضة لمخطط الدراسة .

« ففي يوم السبت الموافق السابع عشر من سبتمبر عام ١٩٢١ كنت مسافرا مع صديق عمر وزميل في الدراسة ... وكنت قد دونت في نصف صفحة قائمة موضوعات تطابق من حيث الاساس مخطط الدراسة محتوى ونظاما » [١٣] .

على انه لم يشرع في الكتابة الا في صيف عام ١٩٣٠ بعد ان كان قد وسع مخططه فأغناه بالتفصيلات والعناوين الفرعية . وقبل نشوب الحرب العالمية الثانية بواحد واربعين يوما كان قد نشر المجلدات الستة الاولى منـه .

على انه كان خلال الفترة بين نشوب الحرب العالمية الأولى وشروعه

---

(١٢) *Ibid.*

(١٣) *Ibid.* p. 101., *A study of History,* Vol. VII, London, 1954, p. X.

في الكتابة قد انعتق من عدة أفكار ومفهومات تاريخية رئيسية واعتنق عددا آخر اما بتأثير مجرى الأحداث او بتأثير المؤرخين وغيرهم • وفيما يلي تعليق موجز على أهم هذه الأفكار والمفهومات •

الحرب :

كان موقف توينبي من الحرب قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى الموقف التقليدي الذي يقوم على التسليم بضرورة الحرب وان كان تسليمه يشوبه عدم الرضى ويغلب عليه التعذب بالذنب •

ويقول توينبي بأن عواطفه كلها كانت في عام ١٩١٢ مع شعوب اليونان وبلغاريا والصرب والجبل الاسود في حروبها ضد تركيا للتخلص من سيطرتها • لكن لم يكد ينسلخ عام ١٩١٤ حتى كان قد انعتق من هذا الموقف التقليدي وذلك بعد أن طحنت عجلة الحرب أكثر من نصف زملائه في الدراسة بونشستر وبأكسفورد • لقد اقتنع بأن الحرب ليست مؤسسة تستحق الاحترام ولا خطيئة عابرة وانما هي جريمة [١٤] •

الحضارة لا التاريخ القومي وحدة الدراسة التاريخية :

من أهم التطورات في فكر توينبي خلال هذه المرحلة هو تحوله من التاريخ القومي الى المجتمع او الحضارة كوحدة للدراسة التاريخية • ويقول بأنه ما حل صيف عام ١٩٢٠ حتى وجد نفسه متفقا مع اشبنجلر على هذه الفكرة • [١٥] كان اذ ذاك قد اقتنع بأن عبارة الدولة القومية والايمان بتفوقها قد أفسدت منظور الاوروبيين التاريخي وجعلتهم يتمحورون على انفسهم ويتخذون من تاريخهم نقطة الدائرة ومن تاريخ الأمم الأخرى حواشي لها[١٦] •

---

(١٤) *Ibid.* in *Experiences*, pp. 207-9.

(١٥) Toynbee, *Civilization On Trial*, New York, 1948, p. 7-8.

(١٦) Albert Hourani, *A Vision of History*, Beirut, 1961, pp. 2-3.

على ان فكرة توينبي هذه لم تكن بنت ساعتها • في الارجح انها تبلورت بعد مخاض طويل وبفعل عدة روافد جانبية في مقدمتها اقتناع توينبي بوحدة التجربة الانسانية • وهذا ما دعاه الى القول الحضارات متساوية ومتعاصرة فلسفيا ويرجع توينبي اصول قوله هذا الى عام ١٩١٤ يقول : (١٧)

« وقعت حرب عام ١٩١٤ وانا اقوم بتدريس ثيوكيديدس لطلبة كلية باليول (بأكسفورد)••• وفجأة غير النور فهمي (لمجريات الامور)

ان التجربة التي كنا نمر بها عندئذ هي ذات التجربة التي مر بها ثيوكيديدس ••• وبذلك أثبت عالمانا انهما متعاصران فلسفيا » •

وقد غذى فكرة توينبي هذه من التعاصر الحضاري وتساوى الحضارات فلسفيا عدد من المؤرخين منهم الفرد زمرن Alfred Zimmern الذي ذهب في محاضرات ألقاها من التاريخ الهليني الى ضرورة الغاء الحواجز التي أقامها المؤرخون بتقسيمهم التاريخ الى عصور : الى قديم ومتوسط وحديث • ومما يذكر ان زمرن نادى بهذا عام ١٩٠٩ ، أي قبل ثماني سنوات من قيام فيلسوف التاريخ الايطالي بنديتو كروتشي Benedetto croce باطلاقه قوله المشهور بأن «جميع التاريخ الحقيقي هو تاريخ معاصر » • يقول توينبي :

« وبينما كنت استمع الى كلمات (زمرن) المزلزلة تلاشت من ذهني التقسيمات التقليدية الى ماضي وحاضر ، وبين قديم وحديث وذهبت مع آمس الدابر ولم تعد تعيقه •

ومن أولئك المؤرخين أيضا ف • ج • تيجارت Teggart الذي أنار السبيل أمام توينبي بقوله : « ان الخطوة الاولى في دراسة الانسان ينبغي ان تكون بالرجوع الى الحاضر » وان نقطة الانطلاق هي بالضرورة

---

(١٧) Toynbee, *Civilization On Trial*, pp. 7-8.

(١٨) Toynbee: *Study of History*, Vol. X, p. 232.

ملاحظة الاختلافات التي تتسم بها ظروف البشرية في مختلف أنحاء العالم وضرورة فهم أسباب تلك الاختلافات ! (١٩)

ومن الروافد التي غـذت شموليـة نظرة توينبي الى الحضـارة دراسته العميقة الشاملة للتاريخ الاغريقي الروماني .

« فاذا نظرنا الى التاريخ اليوناني الروماني من بدايته الى نهايته وجدنا ان الاتجاه السائد فيه كان الى الوحدة . وبعد ان استمعت مرة الى هذه السيمفونية العظيمة لم أعد معرضا لخطر التنويم من قبل الموسيقى الجافيـة ذات اللحن المنفرد التي كانت تنطلق من تاريخ بلادي المنغلق والتي كانت تطربني عندما كانت امي تقرأه لي جزء جزء وليلة بعد ليلة » (٢٠) .

كما غذت شمولية نظرته آراء عدد كبير من الساسـة والمفكرين والكتاب والمؤرخين قـال :

« فالشمول كان مفتاح عظمة سمتس . وكان مفتاح عظمـة اينشتاين والسير ونستون تشرشل عظيم آخر انصرف عـن ضيق النظرة الحديثة .. وليس هؤلاء هم كل الابطال الغربيين المحدثين .. فديني عظيم جدا لعدد من المؤرخين المحدثـين بينهم كلارندون ، وجيبون وفريمان وبيدري وثيودور مومسن وادوارد ماير . لقد كانت رؤية فريمان قائمة على الوحـدة والعالمية . كان لتفكير فريمان مثل فيلسوف التاريخ المسلـم ابن خلدون موهبة تمكنهما من رؤية العالم في ذرة رمل »(٢١)

التحدي والاستجابة ودور الاقلية المبدعـة :

لم يكن توينبي في صيف عام ١٩٢٠ قد اهتدى بعد الى تفسير مقبول

(١٩) Toynbee: *Study of History*, Vol. X, p. 232.

(٢٠) Toynbee: *Civilization On Trial*, pp. 4-5.

(٢١) Toynbee: *Experiences*, pp. 108-109.

للنشأة الحضارية وفي ذلك العام وضع الاستاذ نامير Namier بين يديه نسخة من كتاب اشبنجلر عن انحطاط الغرب • لكن توينبي رفض تفسيره لنشأة الحضارة لأنه وجد عقائديا عقيما • ولم يلبث بعد ذلك ان وجد ضالته في مسرحية « فاوست » للشاعر الالماني جوته فقد استمد من تحدي مفستوكليس Maphistocles لله بأن يطلق يديه لافساد أروع صنعه ، وقبول الله لهذا التحدي ، فكرته عن التحدي والاستجابة (٢٢) •
اما الصيغة اللغوية ذاتها للفكرة فقد استمدها من بيت شعر لروبرت براونتج Browning يقول فيه :

« الا يمكنك ان تتحداهم ، ولا استجابة » (٢٣) •

وبذلك صار لدى توينبي تفسير لنشأة الحضارات ، واتخذ من تتالي التحديات والاستجابات نمطا يفسر انتقال الحضارة من حال الى حال ، ويفسر كذلك سقوطها في النهاية وذلك عندما تعجز عن الاستجابة بشكل صحيح للتحديات •

والى جانب مفهوم « التحدي والاستجابة » نبت في ذهن توينبي مفهومان آخران مكملان له وهما مفهوم « الاقلية المبدعة » التي اسند لها الدور الاكبر في الاجابة على التحديات التي تواجه الحضارة ! والارجح ان هذا المفهوم نشأ في ذهنه بتأثير المؤرخ الانجليزي توماس كارليل الذي آمن بدور البطل في التاريخ وبأن ما أنجزه الانسان في التاريخ هو في أساسه تاريخ العظماء الذي ظهروا على مسرحه • ورأى توينبي ان عمل الاقلية الخلاقة يتصف بحركة مزدوجة من الاعتكاف «Withdrawal» لتحقيق الصفاء الذاتي واستلهام الحق ثم العودة (return) للهداية والتوجيه •

واعتبر توينبي عجز الاقلية المبدعة عن تقديم حلول صحيحة

---

(٢٢) Toynbee: *Civilization On Trial*, p. 9.

(٢٣) *Ibid.*, p. 11-12.

للمشكلات التي تواجه المجتمع سببا في سقوطها decline وبالتالي في انحلالها disintegration :

« عندما تتدهور الاقلية الخلاقة في تاريخ أي مجتمع من المجتمعات الى أقلية مسيطرة ، تحاول ان تحافظ بالقوة على مركز لم تعد تستأهله ، وهذا التبدل الهدام في طبيعة العنصر الحاكم يحفز البروليتاريا « الاكثرية » عن الانفصال عنه والتخلي عن تلقائيتها وحريتها في الانجذاب اليه ومحاكاته ، ويدفعها استكراهها على طاعته والمنزلة الوضيعة الجافية التي أنزلها فيها أي الارتداد عنه والثورة عليه وتتشعب هذه البروليتاريا عندما تتعفن لتؤكد وجودها الى طائفتين البروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية المكونة من البرابرة الذين يكونون قد أخذوا يقاومون الانضمام الى الحضارة المنهارة مقاومة عنيفة وهكذا يشكل سقوط الحضارة طبقة محاربة داخل مجتمع واحد لم يكن كيانه في دور النمو الحضاري منقسما على ذاته انقسامات حادة ولا منفصلا عن جيرانه بابعاد لا يمكن عبورها »[(٢٤)] .

وبهذا تم لتوينبي تحديد مجال (أو وحدة) الدراسة التاريخية ووضع مخطط دراسته للتاريخ التي نشرها في ستة مجالات قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية . وعلى اساس هذا المخطط وجد توينبي ان الحضارات التي شهد العالم ظهورها خلال الستة آلاف سنة الماضية قد تجاوزت دور الانهيار الى الانحلال واختفت عن الوجود .

المرحلة الثانية

نشر توينبي المجلدات الاربع الباقية من دراسته في هذه المرحلة التي تبدأ من نشوب الحرب العالمية الثانية وتمتد الى حين وفاته . ومن

---

(٢٤) العبارة لتوينبي والترجمة للاستاذ منح خوري : **التاريخ الحضاري عند توينبي** ، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٠ ، ص ٦١ .

الملاحظ ان توينبي في هذه الاثناء اعتمد يد التعديل والتغيير في أكثر من مفهوم له • ففي هذه الاثناء خفف من حدة حتمية انهيار الحضارات التي توحي به دراسته للحضارات التي ظهرت في العالم خلال الستة آلاف سنة الماضية ، فأكد انه كان في الامكان انقاذ الحضارة الاوروبية وغيرها من الهلاك او الاندثار الكلي ولكن بشرط العودة الى الدين • وقد نجم عن هذا التعديل في نظرته الى حتمية انهيار الحضارات عن تغير كلي في نظرته الى دور الدين في الحضارة • فحتى نشوب الحرب العالمية الثانية كان دور الدين في نظره ثانويا • كان يرى ان الدين موصل حضاري ينقل جذوة الحضارة وبذلك يبقيها حيه • قال :

« وللديانات الجامعة مبرر وجودها لانها تحفظ استمرار النوع الحضاري من المجتمعات اذ تستبقى بذرة التنمية حية خلاله (زمن الانتقال) الخطر الذي يمر به النوع من دور تزول فيه احدى حضاراته الى دور آخر تنشأ فيه مكانها حضارة جديدة • ان الديانات الجامعة نافعة وربما كانت ضرورية في عملية التوالد الحضاري المتكرر ولكنها ظاهرة ثانوية انتقالية، وظيفتها أشبه بوظيفة البيضة أو دودة القز بين فراشة وفراشة » (٢٥) •

لكن توينبي لم يلبث أن غير مفهومه هذا • ويشير الى هذا التعبير بقوله :

« على صاحب هذه الدراسة ان يعترف بأنه هو الآخر كان راضيا لمدة سنوات عن هذا المفهوم الشائع لدور الديانات وطبيعتها ••• ولكنه انتهى الى الاعتقاد بأن هذا المفهوم •• لم يكن في الواقع يمثل غير جانب يسير من الحقيقة كلها » (٢٦) •

---

(٢٥) الترجمة لصاحب **المصدر ذاته** ، ص ٥٠ .
(٢٦) **المصدر ذاتـه** .

ونجم عن هذا التغير ان صارت الحضارة ذاتها ثانوية بالنسبة الى الدين وصارت حركة الدين قبلة الحضارة وغايتها ، بينما تتعاقب الحضارات، وتندثر يقول :

« اذا كنا نبحث عن سرطان اجتماعي ، فسوف تجده لا في الكنيسة (الدين) التي تحل محل حضارة ، وانما في الحضارة التي تحل محل الكنيسة (الدين) ، واذا كنا قد اعتبرنا الدين شرنقة تتجدد الحضارة من خلالها في غيرها ، فينبغي لنا الآن أن نفكر بصورة عكسية » (٢٧) .

ويضيف الى هذا قوله :

« اذا كانت الديانة عربة فأنه يبدو ان العجلات التي تسير بها نحو السماء هي تعاقب الحضارات على الأرض » (٢٨) .

وبهذا انتهى توينبي الى ان حركة التاريخ هي الى السماء ، وانها تصاعدية لا دائرية وانتهى به العمل كله الى ان صار مؤرخا متصوفا .

(٢٧) Toynbee, *A Study of History*, Vol. VII, p. 526.

(٢٨) Toynbee, *Civilization on Trial*, p. 233-236.

عيذاب
من الثغور العربية المندثرة

الدكتور أحمد دراج
رئيس قسم التاريخ / جامعة القاهرة

شهد العصر الاسلامي بمصر نشأة ثغر عيذاب على الشاطيء الغربي للبحر الاحمر ، وقد استمدت عيذاب شهرتها من أهمية الدور الذي قامت به عدة قرون كقاعدة بحرية تجارية لتجارة الشرق الاقصى عبر مصر الى أوروبا ، وكمرحلة هامة في طريق قوافل الحجاج الى المقدسات الاسلامية بالحجاز عبر البحر الاحمر نظرا لموقعها مقابل ثغر جدة .

ويمدنا مؤرخو مصر الاسلامية بالكثير عن الحقائق المتصلة بتاريخ عيذاب بصفتها قطعة من الوطن المصري ، وزخرت أيضا كتب الجغرافيين العرب بوصف عيذاب وصحراء عيذاب الواقعة بينها وبين النيل ، الا ان معظم ما جاء في هذه الكتب خاصا بها كان عن طريق النقل او السماع عن الغير ، وليس عن طريق المشاهدة العينية ، اذ لم يقدر لغير القليلين منهم المرور بها ، ومن هؤلاء ناصري خسرو ، وابن جبير ، وابن بطوطة . ولقد أمدنا هؤلاء بنصوص شيقة من ادب الرحلات في العصور الوسطى الاسلامية . وكذلك عرف الرحالة الاوروبيون وبخاصة الايطاليين منهم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ثغر عيذاب كمرحلة رئيسية في طريق رحلاتهم الى البعثة التبشيرية الكاثوليكية

بدنقلة او الحبشة أو بحثا عن طريق الوصول الى الهند • وكانت هذه المقاصد الثلاثة من الأهداف الرئيسية للسياسة الاوروبيـة في العصور الوسطى • وكان من نتيجة هذه الرحلات ان ظهرت عيذاب على الخريطة الجغرافية التي وضعهـا دالورتو (Dallorto) عام ١٣٢٥ والكتـلان (Al-Catalan) في عام ١٣٧٥ •

كل هذه المصادر تاريخية كانت او جغرافية ، شرقية أو غربية تصمت تماما عن اخبارنا بأي شيء عن نشأة هذه الميناء ، وتتضارب جميعها فيما يختص بتجريد موقعها ، نظرا لاندثارها وزوالها من الخريطة الجغرافية لمصر وليس لدينا عن نهاية هذه الميناء الا نص واحد وامد لها الرحالـة (ليون الافريقي) في أوائل القرن السادس عشر عما سمعه مـن أهالي المنطقة المحيطة بها عن تدميرها منذ قرن مضى أو على وجه التحديد عام ١٤٢٦ في عهد السلطان المملوكي برسباي •

وهناك شواهد تاريخية اخرى أيدت هـذا النص في أواخر القرن الخامس عشر ، وأوائل القرن السادس عشر •

وما نكتبه اليوم ما هو الا محاولة لتعريف القارىء بهذه الميناء ، بقدر ما تسمح به معرفتنا وبكل ما كتب عنها ولنبدأ بما ذكره الجغرافيون العرب عن موقعها •

فالاصطخري لا يذكرها ضمن المدن المصرية ، بل كقلعة من قـلاع المملكة الحبشية •

وابن حوقل يحدد موقعها على بعد عشر مراحل من أسوان •

وياقوت يحددها بأنها على بعد خمس عشرة مرحلة من أسوان وعلى مسيرة ثمانية أيام من القصير ، وابن جبير لا يتكلم عن موقعها وانما نعرف من قراءة رحلته انه وصل اليها عـن طريق قوحي بعد مسيرة تسعـة عشر يومـا •

اما ابن بطوطة فقد وصل اليها بعد مسيرة خمسة عشر يوما مـن

ادفو ، ويذكر انه يوجد بين سواكن وعيذاب ، ميناء يعرف برأس دوايرة وهذه تقع على بعد خمسة ايام من عيذاب وهي عند المقريزي على مسيرة سبعة عشر يوما من قوص .

وأبو الفدا يحددها على بعد سبع مراحل من سواكن وهي تقع على خط عرض ٢١ شمالا اما اسوان فتقع على خط عرض ٣٠ر٢٢ وجدة على خط عرض ٤٥ر٢١ .

أما أمين واصف وهو أحد الذين اشتغلوا بجغرافية العالم العربي حديثا ، فيذكر انها تعرف في أيامنا عند أهالي المنطقة المحيطة بها باسم (سواكن القديمة) وهي تقع على خط عرض ٢٠ر٢٢ . أما سواكن الحالية فتقع على خط عرض ١٩ .

وكذلك تضاربت آراء من كتب عنها من الأوروبيين المحدثين .

فاملينيو Amélineau يفترض انها احد الميناءين القديمين (بيرنس) Berenice .

و (ميوس هرموس) Myos Hormos اللتين كانتا على الشاطيء الغربي للبحر الاحمر منذ عصر البطالمة .

ولكن ايفيتس (Evetts) يستبعد ان تكون (سيوس هرموس) .

أما فلوير (Floyer) فيذكر ان هناك جبلا قريبا من هذه المنطقة يعرف بجبل عيداب (بالدال) وانه كان هناك مرسى صغير في العصر القبطي يعرف أيضا باسم عيداب كما هو شائع بين الاهلين هناك ويحدد موقعه على ساحل البحر عند خط عرض ٣٥ ـ ٢٢ شمال (بيرنيس) ويحتمل ان يكون هذا المرسى هو ميناء عيذاب نفسها بالرغم من أن الاهالي هناك يعرفونها باسم (سواكن القديمة) .

وقام (كويات) Coyat برحلتين الى صحراء عيذاب ، حوالي عام ١٩٠٩ و ١٩١٠ وتتلخص مشاهداته في ان اهالي هذه المنطقة لا يعرفون على وجه التحديد موقع عيذاب ومع ذلك فهم لا يزالون يسمون

الصحراء المجاورة لها بصحراء عيداب (بالدال) • اما كويات فيميل الى تحديد موقعها عند (رأس علبه) الى الجنوب من بيرنس ، وبالتحديد عند خط عرض ٢٢ قريبا من مدينة الحلايب الحالية •

الا ان (بيكر) Becker يحدد موقعها بمكان قرية عيديب الحالية التي تقع الى الجنوب قليلا من خط عرض ٢١ •

وقام (مري) Murray في نهاية عام ١٩٢٥ بدراسة هذه المنطقة وانتهى من دراسته ، الا انها تقع على خط عرض شمال ٤٧ر١٩ر٢٢ وخط طول ٣٢ر٩/٣٦ •

أما خرائب (برانس) القديمة فتقع على خط عرض ٢٤ أو ٥٠ر٢٢ قريبا من رأس بيناس الحالية •

وفي ضوء هذا التحديد لموقـع (بيرانس) يمكننا ان نعرف علـى وجه التقريب ان مكان عيذاب بالنسبة اليها الى الجنوب منها بقليل •

اما عن تاريخ نشأة ميناء عيذاب في العصر الاسلامي ، فانه يرجع في الغالب الى أواخر القرن العاشر الميلادي الرابع الهجري متأثرا في ذلك بتطور تاريخ الملاحة في البحر الاحمر • وكانت الموانيء الرئيسية للسفن الى تحمل تجارة الشرق الاقصى تتغير تبعا لمجريات الحوادث السياسية في الشرق الأوسط ، فكانت على التوالي القازم ثم عيذاب والقصير ، ثم الطور ، وأخيرا جدة • ولم يمنع هذا من قيام بعض الموانيء بدور ثانوي بجانب الميناء الرئيسي الذي يتركز به النشاط البحري ، ضمانا لجمـع المكوس بواسطة السلطات الرسمية •

ففي صدور الاسلام كانت القلزم هي الميناء الرئيسية لمصر في البحر الاحمر ، ولم يغير الاسلام من واقع الأمر شيئا ، فمنذ منتصف القرن الخامس الميلادي كان النشاط التجاري قد انتقـل اليها من البيرانس ، وميوس هرموس وادت اعادة حفر خليـج أمير المؤمنين الواصل بـين الفسطاط والقلزم الى زيادة أهميتها نظرا لما تقوم به من عملية الوصـل

بين مصر والحجاز وقد تأيد ذلك بما عثر عليه من أوراق البردى اليونانية في القرن السابع الميلادي ، وبما نعرفه من بناء بعض سفن الاسطول الاسلامي بها في هذه الفترة ، على يد الصناع القبط وامتد هذا النشاط حتى منتصف القرن التاسع ، فابن خرداذبة يذكر ان التجار اليهود كانوا يأتون من بلاد الفرنج قاصدين مصر ، فينزلون بالفرما ، ثم يعبرون برزخ السويس الى القلزم ومنها يركبون البحر الى الجار (ميناء المدينة وقتئذ) ثم الى جدة ومنها الى عدن في طريقهم الى سواحل الهند .

الا أن هذا النشاط التجاري في البحر الاحمر عن طريق القلزم وعدن، ما لبث ان أخذ في الضعف بعد سقوط الدولة الاموية وقيام الخلافة العباسية ببلاد العراق فقد بدأ هذا النشاط ينتقل تدريجيا الى الخليج العربي وبخاصة بعد ان أمر الخليفة العباسي ، ابو جعفر المنصور ، بردم خليج امير المؤمنين على أثر خروج محمد النفس الزكية بالحجاز سنة ١٤٥ هـ مطالبا بالخلافة . ومن ثم حلت موانيء الخليج العربي مثل سيراف والبصرة والأبلة هاتين المينائين السابقتين في استقبال سفن الشرق الاقصى .

وشهد القرن الثامن الميلادي ، الثاني الهجري ، نوعا جديدا من الأدب العربي المتصل بتطور طرق الملاحة الخاصة بتجارة الشرق الاقصى، وظهر هذا الادب في قصص الرحالة العرب في طريقهم الى الصين مثل قصة التاجر سليمان ، وقصة السندباد البحري .

ونتيجة لذلك أصبح دور البحر الاحمر ثانويا عن طريق الرحلات الفرعية التي كان يقوم بها تجار الخليج العربي لنقل منتجات الشرق الاقصى على سفن صغيرة ذات حمولة ضعيفة وكانت هذه السفن لا تحتمل صعوبة الملاحة حتى القلزم، بسبب شدة الرياح وكثرة الصخور المرجانية ولذلك كانت تؤثر الرسو بميناء جدة .

وفي أواخر القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري أثرت ثورة الزنج وثورة القرامطة ــ اللتان نشبتا في جنوب العراق ، وفي منطقة

البحرين ــ على الحركة التجارية بالخليج العربي ومن جهة ثانية وجدنا التجار العرب بدأوا يحجمون منذ أوائل القرن العاشر الميلادي/الرابع الهجري ــ عن الوصول برحلاتهم الى ميناء كانتون بالصين ، بسبب سوء معاملة السلطات الصينية لهم ، وأصبحت شبه جزيرة ملقا آخر مرحلة لسفنهم في هذه البحار •

ومن ثم بدأ البحر الاحمر يستعيد مركزه السابق في تجارة الشرق الاقصى ونشطت عدن من جديد ، بعد ان عرفت سفن الهند والصين طريقها اليها • وعملت الاسرة الزيدية التي كانت تحكم اليمن وقتئذ على تشجيع التجار الهنود والصينيين ومن عدن كان يقوم اليمنيون بنقل هذه البضائع على سفن خاصة ، تعرف بجلاب القلزم الى كل من جدة على الساحل الشرقي وعيذاب والقصير التي قامت مكان الميناء القديم Leukos Limen على الساحل الغربي •

وزادت أهمية عيذاب وبخاصة في العصر الفاطمي ابتداء من ٤٦٠ هـ ١٠٦٧ ــ ١٠٦٨ م بسبب الشدة التي قاستها مصر في عهد الخليفة المستنصر بالله وذلك نتيجة لخراب الدلتا وتحولت قوافل الحجاج المصريين والمغاربة من طريق شبه جزيرة سيناء الى طريق النيل حتى قفط أو أدفوا أو أسوان ومنها عبر الصحراء الشرقية الى عيذاب • وأدت حوادث الحروب الصليبية الى ان يظل هذا الطريق تعبره قوافل الحجاج، حتى فتح الطريق القديم في عهدالسلطانالمملوكيبيبرس ٦٦٦ هـ ١٢٦٧ ــ ١٢٦٨ م •

وفي العصر الفاطمي يمدنا الرحالة الفارس ناصري خسرو بأول نص عن مشاهداته في عيذاب اثناء مروره بها ، فيذكر ان المكوس كانت تجبى بعيذاب على البضائع الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن بطريق الهجر ، ومن عيذاب تنقل عبر الصحراء الشرقية الى اسوان ومن هناك في السفن النيلية الى الفسطاط •

واهتم الفاطميون بميناء عيذاب وعملوا على حماية القوافل الملاحية التي ترسو به من سراق بحر القلزم فأعدوا اسطولا يتكون من خمسة

مراكب صارت ثلاثة فيما بعد وحرصوا أيضا من الناحية المذهبية على نشر الدعوة الاسماعيلية بها ، فأقاموا هناك داعيا اسماعيليا •

وفضلا عن هذه الظروف الخاصة بالشرق الاوسط ، فان الظروف العالمية لعبت دورا هاما في ازدياد نشاط عيذاب الذي بلـغ أوجـه في العصر الفاطمي • اذ أدت سياسة التسامح الديني التي انتهجها الفاطميون ازاء التجار الاوروبيين الى تسابق هؤلاء من جنوة وبندقة وبيزنة واما لفيين وصقليين الى اسواق الاسكندرية ودمياط والقاهرة وحصلوا من الخلفاء الفاطميين عن طريق المعاهدات التي عقدوها معهم على حقد اقامة الفنادق وتخفيض المكوس •

ولقد ظلت عيذاب مزدهرة طوال العصر الايوبي ، كمرحلة هامـة في طريق قوافل الحج الى جدة وقاعدة أساسية لتجارة مصرفي البحـر الاحمر ويخطيء من يظن ان الحروب الصليبية والحرب الاقتصادية التي اعلنتها البابوية على مصر قد اضعفت من تجارة المرور بين الشرق والغرب عبر الأراضي المصرية وبالتالي من نشاط ميناء عيذاب • حقيقة ان هذا النشاط التجاري المصري تأثر كثيرا في بضع سنوات ، الا انه استؤنف من جديد بعد ان تمكن صلاح الدين من القضاء على مشروعات البرنس (ارناط) صاحب امارة الكرك الصليبية في البحر الاحمر ، ومنذ انتزاع امارته التي كانت تتحكم (بحكم موقعها مكان شرقي الاردن الحاليـة ومنطقة النقب) في طريق القوافل بين مصر وسوريا والحجاز ، وفي الملاحة بخليج العقبة هذه المشروعات بدأت عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م بتفكير ارناط في الاستيلاء على المدينتين المقدستين مكة والمدينة • وفشلت محاولتـه الاولى لأن القوات البرية التي زحفت نحو بلاد الحجاز توقفت عند تيماء واضطرت الى التراجع نظرا لقلة الماء وشدة الحرارة التي لم يتحملهـا الصليبيون ، ولذلك تحول نشاطه المعادي في العالم التالي الى البحـر الاحمر ، وهاجم اسطوله ميناء عيذاب ونزل ببعض رجاله بها واستولوا على احدى القوافل التي كانت مقبر صحراء عيذاب متجهة الى قوص ، ثم تحولت الى مهاجمة الساحل الحجازي تجاه المدينة واسرع الاسطـول

المصري بقيادة الحاجب لؤلؤ الى مطاردة الاسطول الصليبي ، ووفق في ايقاع الهزيمة بأرناط ، وأسر معظم جنوده الذين اقتيدوا الى مكة • وهناك ضحى بهم قربى الى الله ، وجزاء على تجربتهم بمهاجمة الاراضي المقدسة يوم عيد الاضحى (١٠ من ذى الحجة ٥٧٨ هـ / ١٦ من ابريل ١١٨٣) • وفي عام ١١٨٧ م تمكن صلاح الدين من الاستيلاء على امارة الكرك ، وبذلك عادت هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة الى حوزة المسلمين • وزال الخطر الصليبي نهائيا عن البحر الاحمر •

وقد سبقت هاتان المحاولتان محاولة صليبية اخرى لسرقة يد النبي صلى الله عليه وسلم من الروضة النبوية الشريفة على يد اثنين من الاسبان تخفيا في زي المغاربة ونزل الاثنان بأحدى الدور المجاورة للروضة وتظاهرا بأنهما جاءا ليقضيا بقية حياتهما في جوار الرسول ، ثم اخذا ينقبا سردابا يصل الى الروضة ، وشاءت العناية الآلهية الا يتمما مهمتهما اذ اسرع السلطان نور الدين زنكي الى المدينة بعد ان رأى الرسول في منامه يستغيث به وتمكن من اكتشاف هذه المحاولة الدنيئة • وكان ذلك سببا في بناء المقصورة الشريفة وتعيين الخدام بها الذين زاد عددهم فيما بعد صلاح الدين وأوقف على مصالح المقصورة ومصالحهم بعض الاوقاف في مصر •

هذه المحاولات من جانب الصليبيين كان لها أثر كبير في اتجاه السياسة المصرية الى منع التجار الاوربيين من مزاولة نشاطهم التجاري في البحر الاحمر ولم يكن لهذا الاجراء أي تأثير على تجارة المرور بين الشرق والغرب اذ شهد عصر صلاح الدين ازدياد نشاط التجار المسلمين الذين عرفوا بالتجارة الكارنية في نقل تجارة الشرق الاقصى وبخاصة تجارة البهار والتوابل من عدن الى عيذاب ، وانتقل نشاطهم الى قوص التي أصبحت مركزهم الديني بالصعيد وايضا الى الفسطاط التي بنى بهما فندقا لهم (فندق الكارم) عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ونتيجة لهذا التطور عنى الايوبيون بأمر قوص وضموا اليها الولاية على عيذاب •

ومن ثم شهد عهد صلاح الدين عودة التجار الاوروبيين ولا سيما الايطاليين اذ عادوا الى التردد على الموانيء المصريـة بالبحر الابيض . ويكفي دليلا على ذلك كتاب صلاح الدين الى الخليفة العباسي سنة ١١٨٣م والذي يشير الى مجيء التجار الجنوبية والبنادقة والبيازنـة الى مصر محملين بالبضائع الاوربية أهمها الاسلحة ومعدات القتال ، وفي هذا اعلاء لشأن الاسلام والمسلمين وكان هذا الكتاب ردا على النقد الذي وجهه اليه الخليفة بشأن الاتجار مع الاوربيين على الرغم من حالة الحرب القائمـة بين الاسلام والمسيحية بل ذهب صلاح الدين الى أبعد من هذا فعقد ثلاث معاهدات مع هذه الجمهوريات الايطالية الثلاث وشاهد الرحالة ابـن جبير آثر هذه السياسـة الاقتصادية الحكيمة عند وصولـه الى ميناء الاسكندرية عام ١١٨٣م وانلم يفقه ان يدون لنا في اسلوب لاذع ما يقاسيه المسلمون والمسيحيون على السواء من تشدد رجال الجمارك وغلظـة الاجراءات التي اتبعوها في جباية المكوس وفي طريقه الى الحج اتبـع الرحالة طريق النيل من الفسطاط حتى قوص ، ومن قوص عبر الصحراء الى عيذاب في تسعة عشر يوما ووصفه لصحراء عيذاب ومراحل الطريق بين قوص وعيذاب قطعة ممتازة من ادب الرحلات ومن الوصف الجغرافي لهذه المنطقة . ففي لهيب صحراء عيذاب سما ابن جبير بايمانه السطحي الذي شهدته حياته الاولى بالاندلس فحفظ القرآن كله وتصوف قربى الى الله ودون مشاهداته الخاصة بنشاط الحركة التجارية عبر صحراء عيذاب . ويكفينا في هذا الصدد ما ذكره عن رؤيته لاحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك ملقاة بها ، والقوافل صاعدة هابطة لا يعترضها احد الى أن يأخذها صاحبهـا .

ولا ريب في أن هذا النشاط التجاري لعيذاب ازداد اضطرارا مـع ازدياد النشاط التجاري لمصر مع الجمهوريات الايطالية ، بقيـة العصر الايوبي ، بسبب سياسة التسامح التي اتبعها الايوبيون ازاء الاوربيين .

ولم يكن يجبى من المكوس بعيذاب سوى الزكاة فقط ، أي ربع

العشر ، ومرة واحدة في العام واثبت التجار الكارم رضاءهم عن صلاح الدين وحسن مشاركتهم له في جهوده الحربية ، بأن دفعوا بعيذاب ، عن طيب خاطر عام ٥٧٧ هـ / ١١٧١ م زكاة اربع سنوات دفعة واحدة . وكان يوجد بعيذاب واليان احدهما يمثل زعيم قبائل الهجبة ، والثاني يمثل السلطة المصرية ، وكانا يقسمان بينهما هذه المكوس مناصفة ، اما أهل عيذاب فكان لهم من الحجاج والتجار فوائد كثيرة مقدرة على نقلهم عبر صحراء عيذاب وعلى ما يحملون من احمال الدقيق وعلى نقلهم في الجلاب من عيذاب الى جدة .

واستمرت عيذاب في بداية عهد الدولـة المملوكية تزاول نشاطهـا التجاري السابق ، وحرص السلطان بيبرس ، في أوائل سلطنته على تأمين هذه المنطقة التي تخدم مصالح تجارية لمصر ، وخاصة بعد ان ترامى الى سمعه سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٦٣ م اغتصاب صاحبي (سواكن) و (دهلك) لأموال من يموت من التجار الكارمية في بلادهما . واضطر بيرس بعد سنتين الى ارسال تجريدة عسكرية الى سواكن نجحت في ضمها الـى الممتلكات المصرية ، ووجه بيبرس عنايته الى عيذاب عند تنظيمه لشبكة البريد للدولة المملوكية ، فكان هناك الطريق الذي يبدأ من القاهرة الى قوص ، ثم يستمر الى أسوان والنوبة ومن قوص يتفرع طريق ثان الى عيذاب وانشأ على طول الطريق منازل البريد والخانات تيسيرا لخدمـة مصالح الدولة ولمصالح التجار .

الا ان سياسة بيبرس ، بعد اقامة الخلافة العباسية بالقاهرة . تحولت الى تثبيت سيادة مصر على بلاد الحجاز ، هذه السياسة التي كانت تنازعها اياها الدولة الرسولية باليمن . وكان من اولى نتائجها اعادة الطريق البري للحج عبر شبه جزيرة سيناء سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م ولذلك حرمت عيذاب من جانب كبير من نشاطها .

ولم يمنع هذا التطور عيذاب من ان تستمر في استقبال سفن اليمن حاملة الجزء الباقي من تجارة الشرق الاقصى ، ومن استقبال الكثيرين

من المغاربة الذين يفضلون طريق عيذاب البحر الاحمر نظرا لقصره وحرصت السلطنة المملوكية على استقرار علاقتها الطيبة باليمن ، ضمانا لمصالحها التجارية اذ كانت عدن هي المستودع الرئيسي لتجارة الشرق الاقصى وكانت السفن الهندية والصينية تقوم بتفريغ حمولتها بهـا ، ولا تتعداهما الى البحر الاحمر ، ومن عدن تقوم السفن اليمنية بنقلها الى عيذاب وعملت السلطات اليمنية من جانبها على الابقاء على هذه العلاقات الطيبة حتى تستطيع القيام بالوساطة التجارية بين الشرق الاقصى ومصر وقام تجار الكارتن بتصفية ما كان يحدث من خلافات بين الحكومتين حرصا على مصالحهم .

وظلت السلطنة المملوكية تعمل جاهدة على استتباب الامن في منطقة عيذاب ، تأمينا لهذا الشريان التجاري فحرص السلطان كلاوون ، عندما نشب قتال بين عرب جهينة وعرب رفاعة في صحراء عيذاب سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م على التوفيق بينهما خوفا على فساد الطريق وذكرت المراجع المعاصرة اضطراب الامن في هذه المنطقة ابتداء من سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م بسبب خروج اهلها على رسل صاحب اليمن واستيلائهم على الهدايا التي كانوا يحملونها الى الناصر محمد بن كلاوون وتكرر منهم هذا الاعتداء في السنة التالية ضد رسل صاحب اليمن وضد التجار ، مما دعا الى ارسال حملة عسكرية لتأديبهم وبعد ثلاث سنوات ثاروا مرة اخرى على الامير المصري المقيم بعيذاب واستدعى ذلك ارسال تجريدة عسكرية ثانية لاخضاعهم ولتقييم ذلك في عيذاب الا ان هذه القوة فشلت في السيطرة على الامن واستمر تمردهم عدة سنوات .

ويمدنا الرحالة ابن بطوطة بمشاهداته اثناء مروره بعيذاب في هذه الفترة ، فعند وصوله الى عيذاب سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م عن طريق ارفو لم يتمكن من الابحار الى جدة ، نظرا لحالة القتال الناشبة بين قبائل البجة والقوات المملوكية . ومن ثم اضطر الى العودة الى القاهرة ثم استأنف السير مع قافلة الحج عبر شبه جزيرة سيناء . وفي رحلته الثانية الى مكة

سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م لم يتوجه الى عيذاب وانما اتجه الى القصير ولم يتمكن من الابحار الى عيذاب في رحلته الثالثة سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م. وفي السنة التالية مر ايضا بعيذاب ابن الوردي وذكر لنا بمشاهداته عن نشاط هذا الميناء .

وكانت المكوس قد ارتفعت بعيذاب خلال القرن السابع الهجري الى العشر وهو المبدأ الضريبي الذي سارت عليه الدولة المملوكية في جميع موانيها دون تفرقة بين المسلمين والمسيحيين ولعل أهم ما ذكره ابن بطوطة هو أن السطنة المملوكية لم تكن تتقاضى من المكوس سوى الثلث تاركة الثلثين لزعيم قبائل البجة .

واستمرت عيذابه تقوم بهذا القدر من النشاط حتى عام ٧٦٠ هـ / ١٣٥٨ م أو حتى عام ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م على قول آخر . ومن هذا التاريخ أو ذلك انتقل معظم نشاطها البحري الى ميناء الطور حتى اصبحت الميناء الرئيس للدولة .. هذا التحول الذي أثر كثيرا على مصير عيذاب أدى اليه عاملان : الاول : هو ان ميناء جدة بدأ يستعيد دوره القديم كميناء رئيس في طريق المراكب اليمنية من عدن الى شمال البحر الاحمر ، وكان هذا في العشرينات الاخيرة من القرن الثامن الهجري بفضل جهد شريف مكة حسن بن عجلان . والثاني : هو سوء الاحوال الاقتصادية في الوجه القبلي التي ترتب عليها وتلاشي أمن قوس عاصمته وقتئذ والقاعدةالخلفية التي تخدم نشاط عيذاب ، وذلك بسبب تعدد انخفاضات النيل في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، وما ترتب عليها من مجاعات كثيرة ولعل اخطر هذه المجاعات تلك التي حدثت في اوائل القرن التاسع الهجري وما صحبها من غزو « تيمورلنك » للاراضي الشامية ، واستعداد السلطات المصرية لقتاله ومغالاتها في جميع الاموال من الرعية .

منذ هذه الفترة حتى تدمير عيذاب عام ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م بأمـر السالطان الملوكي برسباي اقتصر دور عيذاب على خدمة مصالح الاهلين المستقرين على الساحل العربي للبحر الاحمر عن طريق اتصالها بجـدة

عبر البحر أو بقوص عبر الصحراء ، وكذلك على خدمة من يمر بها من الرحالة ، ولا سيما الايطاليين في طريقهم الى الحبشة او الارسالية الكاثوليكية من نقلة .

وشهد القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلادي عددا من هؤلاء الرحالة نذكر منهم « فرانسسكو بلدوي Francisco Baldui » و « بيجولوتي انعلورنس Pegolotti » حوالي عام ١٣٢٥ ؛ و « نيقولاري بوجيبوني البندقي Nicolo de Poggibonni » بين عام ١٣٤٥ ، ١٣٤٧ » و « بيزيجاني Pizzigani » عام ١٣٦٧ ، وفي أواخر القرن الرابع عشر شهد أحد الرهبان الذي ترك لنا وصفا لرحلته من البندقية الى اكسوم مارا بقفط وعيذاب وسواكن ، وكذلك برتراند ميجنانلي من اهالي مدينة سيين Bertrand Mignanelli de Sienne وفي أوائل القرن الخامس عشر انطونيو برثولو ميوانغلورنس Antonio Bartolomeo وأخير اسلموا دوقية بري الى ملك الحبشة ١٤٣٠

ولنا ان نتساءل عن السبب الذي دفع برسباي الى تدمير عيذاب ؟ ان ذلك يرجع في الحقيقة الى تغير طرق الملاحة في البحر الاحمر في أوائل الربع الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي والى حرص مصر الشديد على المحافظة على مصالحها التجارية ، فلقد ظلت « الطور » مركزا للنشاط البحري التجاري المصري حتى ظهرت عوامل جديدة غيرت الموقف وأدت الى أن تخلفها جدة ، وكان لزاما على السلطات المصرية ان تعدل سياستها ازاء الحجاز فبدلا من اكتفائها بالسيادة الرمزية سعت الى السيادة الفعلية واحتلال مدن الحجاز الرئيسية ، مكة والمدينة وجدة بقوات مصرية مع الابقاء على النفوذ المحلي للاشراف .

وضمانا لحصولها على المكوس وتنفيذ سياستها التجارية فيما يختص بتجارة المرور بين الشرق والغرب فقد وضعت جدة تحت الادارة المصرية المباشرة واذا كان ازدهار جدة قد ادى الى ان يصبح دور الطور ثانويا ، فقد أدى الى ازدهار السويس لاستقبال مراكب الانكليزية التي كانت

تقوم بعملية النقل البحري بينها وبين جدة • واقتصر دور « الطور » على أهميتها كمرحلة هامة من مراحل الطريق البري للحجاج ومن يصحبهم من التجار ، وتجبى المكوس عن البضائع التي تنقل بالطريق البري قبل دخولها الاراضي المصرية •

فما هي العوامل التي سببت هذه التغييرات الملاحية بالبحرالاحمر ؟

لقد رفعت المظالم وارتفاع المكوس وسوء المعاملة التي كان يقاسيها التجار الهنود بعدن الى محاولتهم التحرر من تحكم اليمنيين في تجارتهم • وحتى ذلك الوقت كانت عدن هي نهاية الخط الملاحي للمراكب الهندية والصينية في رحلتها نحو الشرق الاوسط ، ولم يسبق ان تعدتها من قبل • وحدث هذا التحرر بفضل جرأة تاجر هندي مسلم يدعى ابراهيم اندفع بسفينته الى داخل البحر الاحمر عام ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م وهداه اسلامه الى الرسو بميناء جدة حيث عومل معاملة طيبة من رجال شريف مكة حسن بن عجلان •

وخشيت السلطنة الملوكية من أن تفلت منها هذه المكوس التي كانت تكون في ذلك الوقت المورد الرئيس لاقتصادياتها وبخاصة بعد الازمة الاقتصادية العنيفة التي شهدتها مصر في أوائل القرن التاسع الهجري / الخامس الميلادي • وكانت الأحوال السياسية في الحجاز توحي بهذه النتيجة ولهذا عملت جاهدة على استكمال سيادتها التامة على بلاد الحجاز ، اذ ازداد نفوذ شريف مكة حسن بن عجلان وامتد سلطانه على مدن الحجاز جميعها واهتم باعداد ميناء جدة للقيام بدوره القديم ثم عملت التطورات الملاحية الجديدة على ان تتركز فيها تجارة البحر الاحمر الا ان الشريف حسن بن عجلان اساء الاستفادة من هذا التطور،وارتفعت شكوى الحجاج والتجار من ظلمه وتعسفه • ووجدت مصر في ذلك فرصة للتدخل في تنفيذ سياستها فاستدعته الى القاهرة الا انه رفض المثول لدى الابواب السلطانية مما أوجب ارسال حملة عسكرية الى مكة لتأديبه • وفشلت هذه الحملة في القبض عليه ، فلقد سارع بالهرب الى

الصحراء بمجرد سماعه بمقدم القوات المملوكية ونفعت الحيلة معه في النهاية وجاء الى القاهرة سنـة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٤ م واجبر على قبـول شروط السلطان برسباي من دفع مبلـغ معين الى السلطنة المملوكية ، والتنازل عن المكوس التي تجبى بجدة من التجار الهنود •

الا ان السلطان برسباي وكان المكر والخداع والجشع من أبـرز خصاله لم يشأ ان يعتمد على الوعود ومن ثم قرر اقامة قوة مملوكية بمكة تحمي السيادة المملوكية هناك ، وتمنع تمرد الاشراف وتسهر على مصالح مصر التجارية بالبحر الاحمر • اما جدة فقد وضعت تحت الادارة المصرية المباشرة وصار يتوجه اليها كل عام قبيل بداية الموسم التجاري عند وصول المراكب الهندية اليها امير مملوكي يعاونه « شاد » لجباية المكوس بهـا فضلا عن اتصال جدة اتصالا منظما سريعا بمصر عن طريق خط ملاحي بينها وبين السويس ، وعن طريق الحمام الزاجل •

وبدأت مصر منذ عام ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م تجبي هذه المكوس وترتب على هذا الحق واجب العناية بهذا المرفق والعمل على ازدهاره بحسن معاملة التجار الهنود وقيام العلاقات الودية مع سلاطين الهنود وأباطرة الصين ، وكان عليها أيضا واجب حماية من منافسة الموانيء الاخرى التي تقوم باستقبال تجارة الشرق الاقصى مثل عدن وهرمز عند مدخل الخليج العربي • الا ان الجشع الذي اشتهر به برسباى دفعه الى اتخاذ اجراءات مشددة فيما يختص بجمع المكوس من الحجاج والتجار بجدة وبمكـة وعلى طول الطريق البري للحج ، ثم أخيرا قبل دخول القافلة المصريـة القاهرة ، وقبل دخول القافلة الشامية دمشق •

وكانت أقسى هذه الاجراءات الضربة القاضية التي انزلها بعيذاب بسبب هذا القدر القليل من النشاط المخلي الذي ظلت تحتفظ به فـي هذه الفترة ، والذي نتج عن ان بدأت تفلت من بين يديه بعض المكوس وتعتبر هذا الاجراء وصمة في تاريخ برسباى فقد دفعه الجشع الى ان

يزيل مدينة من ارض الوطن لتحقيق سياسته المالية • ولم تذكر المراجع المعاصرة شيئا عما حل بعيذاب على يديه بالرغم من كثرة المؤرخين المعاصرين له ومنهم الناقم عليه والمقرب اليه ولقد اشار المعتريزي الى توقف نشاطها أعوام بضعة وعشرين وثمانمائة ولكنه لم يتكلم عن تدميرها • والنص الوحيد الذي يعتبر هذا الحادث هو ما ذكره الرحالة لهون الافريقي في كتابه « وصف افريقية » عن عيذاب اثناء زيارته لمصر حوالي عام ١٥٢٦ م فيذكر ان منذ مائة عام قام سلطان مصر (برسباي) بتدمير ميناء عيذاب لأن بعض التجار كانوا ينزلون بها بدلا من جدة واضطر اهلوها الى الهرب الى نقله والى سواكن • وتبعتهم قواته حتى هذه المدينة الاخيرة وذبح منهم على أبوابها زهاء خمسة آلاف •

هذه الحقيقة المرة التي ذكرها ليون الافريقي أيدتها شواهد اخرى فابن الجيعان صاحب كتاب « التحفة السنية » باسماء البلاد المصرية الذي ألفه في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي أوردها ضمن قطاع احد كبار الامراء المماليك دون ان يذكر شيئا عن بلادها (دخلها المالي السنوي) كما فعل فيما يختص ببقية البلاد التي يتكون منها اقطاعه • وهذا دليل حاسم على توقف نشاطها نهائيا وعدم جباية آية مكوس بها ، وان ظل اسمها مدرجا في كتب (روك) البلاد المصرية •

الا ان عيذاب ، أو على الأصح مكان عيذاب ، استمرت له أهميته بالنسبة الى مشروعات الاوروبيين الصليبية والتجارية ضد المملوكية كمرحلة هامة في طريق السفر الى الحبشة ، أو في طريق الرهبان الى الارسالية الكاثوليكية أو التجار والرحالة في بحثهم عن طريق الوصول الى الهند وساعدت السياسة المالية القصيرة النظر التي اتبعها برسباي على ان تقوم عيذاب بخدمة المتآمرين على مصالح البلاد العليا وعلى سلامتها وكان برسباي بعد ان نجح في تأمين وجوده بجدة وفي تركيز

جباية المكوس بها قام باحتكار تجارتها فأصبح هـو المشتري الرئيس لواردات الهند والصين عن طريق مبادلتهـا بالواردات الاوروبية التي احتكر أيضا شراءها من التجار الاوروبيين الذين يفدون الى دميـاط والاسكندرية • وقد رفعه الى ذلك ما عرف به من جشع زائد وكذلك الازمة الاقتصادية التي اشتدت خلال سنوات حكمه ، وحاجة الدولـة الملحـة الى المال للقيـام بالتزاماتها وبخاصـة دفـع رواتب الجنـد ونفقاتهم •

وأثارت سياسة الاحتكار هذه في البحر الاحمر والابيض ، ثائرة التجار المسلمين « تجار الكارم » والتجار الاوروبيين ، فاندفع كـل في ميدان نشاطه الى حماية مصالحه التجارية وبقينا الآن ان نشير الـى ان اهتمام الاوروبيين اخذ يتجه منذ هذه اللحظة ، الى تفويض هذه السياسة الاحتكارية التي اتبعها خلفاؤه من بعده ، وذلك عن طريق التحالف مع الحبشة للقيام بهجوم مشترك ضد الدولة المملوكية ، أو البحث في كيفية الوصول الى الهند • وتنبه برسباي الى هذه الاخطار بعد ان اكتشف تآمر اسحاق ملك الحبشة مع الفونسو الخامس ملك اراجون بعد عودة رسلها من « بلنسيه » ومرورهم بالقاهرة في جمادي الاول ٨٣٢ هـ / فبراير ١٤٢٩ م ، وبعد ان وقع في قبضة السلطات المصرية بجدة أحـد التجار البنادقة « نيقولا دي كونتي » Nicolas di Conti في طريـق عودته بين الهند ولم ينج نيقولا وزوجته من القتل الا بفضل اعتناقهما للاسـلام • وفي عهـد السلطان بقمق قبض علـى البرتوري سرتانـو Alberto di Sartano رسول البابا اوجين الرابع الى ملك الحبشة •

ولذلك اتجه برسباي الى التشدد في خطر دخول الاوروبيين ، رحالة وتجار واقتصاد منطقة البحر الاحمر وهو المبدأ الذي كان قد تقرر من أيام صلاح الدين الايوبي بسبب المشروعات الصليبية التي قـام بهـا البرنس ارناط في خليج العقبة وفي البحر الاحمر ، الا ان برسباي وسلاطين المماليك من بعده وجهوا عنايتهم فقط الى مراقبة الموانيء التي يرتكز بها

النشاط التجاري في هذه الفترة ، وهي السويس والطور وجدة واهملوا مراقبة موانىء الشاطيء الغربي للبحر الاحمر • وهكذا اتيحت الفرصة للاوروبيين لمواصلة خططهم ومؤامراتهم ضد الدولة المملوكية واتخذوا من مكان ميناء عيذاب الذي اهمل بسبب الاحداث الاخيرة نقطة هامة يتسترون بها •

ويذكر لنا التاريخ من هؤلاء : « بدروكو فلهام » و « الفونسو بايفا » رسولي ملك البرتغال الى ملك الحبشة حوالي سنة ١٤٨٧ م و « سانتو سيفانو » أحد التجار الجنوبيين الذي تمكن من الوصول الى ميناء « كنباية » بالهند سنة ١٤٩٠ م وأيضا « فريدوس » الذي وضع سنة ١٤٩٩ م خريطة جغرافية ظهر عليها مكان مدينة عيذاب •

وزال اهتمام الاوروبيين بمكان عيذاب بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ووصول البرتغال الى شاطىء الهند • وهذا مما أدى الى ضياع معالم هذا المكان بمرور الزمن •

وعندما قام « دور جوان دي كاسترو » البرتغالي برحلة الى البحر الاحمر سنة ١٥٤١ م زار موانىء البحر الاحمر زيلع، وسواكن ، والقيصر ، والسويس ، والطور ، وجدة ، واما مكان « عيذاب » فلم يتعرف عليه اذ يبدو ان معالمه قد اندثرت ، بل اقلع مماليك علي بك الكبير من القصير الى جدة ، في طريقهم الى غزو الحجاز مما اثبت ان الاذهان قد انصرفت عن عيذاب •

الصّراع الإنجليزي الفرنسي في مصر

"١٨٦٣ - ١٨٨٢"

دكتور/صالح رمضان محمود
كلية التربية/جامعة عدن

مقدمـــة :

اهتمت فرنسا في القرن السابع عشر الميلادي باحياء الطريق البري بمصر كي تنجح في المنافسة التجارية والسياسية بينها وبين انجلترا وهولندا اللتين تتنازعان السيطرة على الطريق البحري حول افريقية •

واستمر الفرنسيون متمسكين بمصالحهم التجارية في مصر وبخاصة منذ المعاهدة الانجليزيـة المصرية سنـة ١٧٧٥ • وفي سنة ١٧٧٧ نقـل الفرنسيون مركز تجارتهم وقنصليتهم من القاهرة الى الاسكندرية رغبة في التخلص مما كان يفرضه المماليك من الاتاوات والمغارم على التجـار الاجانب فيالقاهرة • وبفضل وساطة شارل مجالون Charles Magallon التاجر الفرنسي في مصر والمشرف على مصالح الفرنسيين في القاهرة ـ تمكنت فرنسا من عقد ثلاثة معاهدات مع مصر في يناير ١٧٨٥ الاولى مع مراد بك وفيها تعهد مراد بك بصيانة التجارة الفرنسية عنـد مرورها في مصر وحدد الضريبة على متاجر الهند بمقدار ٢ ٪ للوالي على مصر ، ٤ ٪ للبك الحاكم او ٣ ٪ فقط اذا كانت هذه المتاجر مصدرة الى فرنسا • وقد وقع هذه المعاهدة بعد ذلك بقليل ابراهيم بك ، والمعاهدة الثانية مـع يوسف كساب ـ ملتزم الجمارك العـام ـ وفيها تعهد يوسف بعـدم

زيادة الرسوم على المتاجر الفرنسية وتحصيل ½ فقط من قيمة المتاجر المفرغة في السويس ، المعاهدة الثالثة مع الحاج ناصر شديد ــ أحد شيوخ الاعراب ــ وفيها تعهد بنقل المتاجر الفرنسية بأمان في طريق الصحراء بين السويس والقاهرة مقابل مبلغ معين عن كل جمل • غير ان هذه الاتفاقيات لم تمنع ابراهيم ومراد بك من المضي في المظالم وارهاق التجار الأجانب وابتزاز الأموال بكل الوسائل ، مما كان سببا في تعدد شكاوى التجار الفرنسيين في مصر [1] •

والواقع ان السياسة البريطانية لم تتجه الى مصر الا بعد ان هدد نابوليون طريقها الى الهند بمحاولة احتلال سوريا ومصر وتهديد امبراطوريتها • ولم يكد نابليون يستقر بمصر حتى أخذ الانجليز والاتراك في مطاردته وتم لهم بعد زمن يسير طرده من سوريا ثم من مصر [2] •

وكان من نتائج الحملة الفرنسية ان أخذ الفرنسيون يكتبون عن مصر الكتب الكثيرة • مما لفت اليها انظار العالم الاوروبي وجعل لها شهرة كبيرة ، وجذب اليها كثيرا من السائحين والعلماء والباحثين [3] • ومن أهم تلك الكتب كتاب (وصف مصر) الذي شمل معلومات متنوعة عن مصر ، مثل الري والزراعة والحرف وعادات الناس وتقاليدهم • وأدى فشل الحملة الفرنسية على مصر الى انهيار احلام نابليون انهيارا تاما ، وفتحت الحملة صفحة جديدة من التنافس الاستعماري الانجليزي الفرنسي على مصر •

وظل النضال مستمرا بين فرنسا وبين انجلترا وحلفائها مدة طويلة ،

---

(١) احمد الحتة (دكتور) : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر . ص ٢٦ ــ ٢٨ .

(٢) محمد عبد الباري : الامتيازات الاجنبية . ص ١٣٢ .

(٣) نجيب توفيق ــ الثائر العظيم عبدالله النديم . ص ١٠ .

حتى انتصر الانجليز وحلفاؤهم في معركة ووترلو Waterloo في يونية سنة ١٨١٥ . وفي اثناء هذا النضال ظلت مصر تحتل مكانا ظاهرا من تفكير ومجهودات السياسيين والعسكريين من كلا الفريقين بصورة جدية على الأقل حتى عام ١٨٠٧ (١) .

عصر محمد علي :

ازدادت مخاوف الانجليز من وقوع مصر فريسة في ايدي الفرنسيين ، وطلبت انجلترا من الباب العالي اتخاذ الوسائل اللازمة بالاشتراك مع الانجليز لتأييد سلامة مصر . وكان استلام محمد علي للحكم في مصر مصدر قلق للانجليز ، وقام الوكيل الانجليزي في مصر – ويدعى (مسيت) – بمناوئة محمد علي ، وعمل على توثيق علاقاته بالمماليك وتعطيل حركة محمد علي وكان يأمل في اقصائه عن الحكم(٢) .

وعهدالانجليز الى صديقهم (الالفي بك)، بانشاء حزب يدعو لمصادقة الانجليز ولكنه فشل . كما فشل الانجليز في الحملة التي ارسلوها الى مصر سنة ١٨٠٧ (٣) .

وترجع أسباب انتصار محمد علي على الحملة الانجليزية (حملة فريزر) سنة ١٨٠٧ ان الانجليز انتظروا مساعدة المماليك دون طائل وكان من أهم نتائج فشل حملة فريزر استيلاء محمد علي على الاسكندرية التي كانت خارج نطاق نفوذه (٤) .

وكان محمد علي – قبل توليته الحكم – قد حاول الاستعانة

---

(١) السيد رجب حراز (دكتور) : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ص ١٥٧ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) محمد عبد الباري – نفس المصدر ص ١٢٣ .

(٤) السيد رجب حراز (دكتور) : نفس المصدر السابق ص ١٩٢ .

بالفرنسيين ضد المماليك ولكن كان اهتمام فرنسا ينحصر في التعجيل بسحب جنود انجلترا من مصر • اما بعد تولية محمد علي فقد تحولت فرنسا عن سياستها السابقة وأصبحت تؤيد محمد علي وذلك بعد حادثة المناداة بولاية محمد علي في مايو ١٨٠٥ وكذلك لانضمام الباب العالي الى فرنسا وقطع علاقاته مع روسيا ، ويرجع ذلك الى تأييد دروفتي — المندوب التجاري الفرنسي في الاسكندرية ونائبه فليكس مانجان وكانت سياسة دروفتي تهدف الى تعطيل أي اتفاق وتفاهم بين الالفي ومحمدعلي ومنع أي اتفاق بين محمد علي ومسيت الوكيل الانجليزي في مصر ومحاولة استمالة محمد علي الى جانب فرنسا وطلبت تاليران من دروفتي عدم الاعتراف بأي سلطة في مصر الا اذا تأيد سلطانها [١] •

ولقد رجحت كفة فرنسا على انجلترا في عهد محمد علي بصورة واضحة وذلك لأن محمد علي استعان بالخبراء الفرنسيين في شتى المجالات • من ذلك ان محمد علي عهد الى المسيو (تورنو Tourneau أحد تجار الاسكندرية بمهمة البحث في فرنسا عن مدربين لجيشه من بين ضباط الجيش الامبراطوري السابق ، على أن يفضل عند الاختيار ، أولئك الذين خدموا في مصر ابان الحملة الفرنسية بحيث تتألف البعثة المطلوبة من ضابط واحد برتبة (جنرال) اما سائر افرادها فيكفي ان يكونوا من الضباط العاديين [٢] •

وعلى ذلك حضرت البعثة الفرنسية العسكرية الى مصر في ٢٤ نوفمبر ١٨٢٤ برئاسة (بوابيه) ، واحسن محمد علي استقبالهم ، وأخذ (بوابيه) يعني بتشكيل الآليات الجديدة وتنظيم القيادة العليا وسلاح المدفعية وسلاح المهندسين [٣] •

---

(١) السيد رجب حراز (دكتور) : نفس المصدر السابق ص ١٨٧ •
(٢) محمد فؤاد شكري (دكتور) : بناء دولة مصر محمد علي ص ١٥٥
(٣) نفس المصدر السابق ص ١٥٧ •

ومن الضباط الفرنسيين الذين استخدمهم محمد علي في تدريب جيشه الكولونيل (سيف) الذي أصبح يدعى فيما بعد باسم (سليمان باشا الفرنساوي) [1] . كذلك استخدم محمد علي الفرنسيين في البحرية، وقد أدى ضباط البحر الفرنسيون للبحرية المصرية خدمات على أعظم جانب من الاهمية ، ونخص بالذكر منهم (سيريزي) Cerisy الذي تولى الاشراف على دار الصناعة بالاسكندرية سنوات طويلة ، كذلك (بسون) Besson الذي كان يشغل المركز الثاني في قيادة الاسطول [2] .

وقد لاقت الصحافة الفرنسية قبولا لدى محمد علي ، فقد صدرت صحيفة اسبوعية في الاسكندرية في سنة ١٨٣٣ تسمى (المونييتر اجبسيان) ، واختفت باختفاء النفوذ الفرنسي سنة ١٨٣٤ [3] . وكانت الحكومة المصرية تمدها بالمعونة ، على الرغم من انها لم تكن واسعة الانتشار . وقد ذكر القنصل الفرنسي (ميمو Mimaut) بعض المعلومات عن هذه الصحيفة ، فقال في رسالة بعث بها من الاسكندرية الى الدوق (دي بروجلي De Broglie) في ١٧ اغسطس ١٨٣٣ ان اول اعداد جريدة (المونيتير) ظهر في ذلك اليوم ، وكان يوم سبت ، كما ارسل الى حكومته نسخة من هذا العدد .

ويؤخذ مما قاله (ميمو) و (بورنج) ان حكومة محمد علي كانت تحتضن هذه الصحيفة رغبة منها في ان يكون لديها جريدة تكتب بلغة اجنبية ، على غرار الصحيفة الشبيهة بالرسمية التي كانت تصدر وقتئذ في الاستانة ، باسم (المونتيير او تومان Le Moniteur Ottoman) وهي

---

(1) A.H. Amy , B. A. Oxon , History of Modern Egypt P. 30 .

(٢) محمد فؤاد شكري (دكتور) : نفس المصدر السابق ص ٤٨١ .

(٣) Madden : Egypt an dMoh. Aly p. 80

صحيفة كان هدفها مهاجمة محمـد علي في كل مناسبة ، حتى لقد ذكـر (روهاميل) في احدى رسائله الى (روكمان Ruckman) رئيس البعثة الامبراطورية الرسمية الروسية في القسطنطينية في ٢٦ فبراير ١٨٣٤، ان الغرض من حملات تلك الجريدة ، انما هو جرح كبرياء محمد علي ، ولهذا كانت مهمة (المونيتير اجيسيان) الدفاع عن محمد علي وتفنيـد الاتهامات التي كانت تكيلها له صحيفة القسطنطينية ، بيد ان حكومة محمد علي لم تكن شديدة الحرص على استمرار هذه الصحيفة التـي اظهر الفرنسيون اهتماما بالغا بأمرها ، خدمة لمصالحهم قبل كل شيء •

وفي ٩ مايو ١٨٣٤ ، كتب القنصل الروسي (دوهاميل) الىحكومته: ان الصحيفة لم تستأنف ظهورها لأن (بوغـوص يوسف) لـم يهتـم بتشجيعها وقـد تنبأ (دوهاميل) بأن الصحيفة سوف تحتجب نهائيـا لهذا السبب • ولما كان آخر عدد منها قد صدر في يوم السبت ٢٢ مارس سنة ١٨٣٤ وكان العدد الاول قد ظهر في ١٧ اغسطس سنة ١٨٣٣ فان الاعداد التي ظهرت من هذه الجريدة في ثمانية شهور تبلغ ٣١ عددا ثم احتجبت بعد ذلك من الظهور الى الابد [١] •

وامام هذا العدد الكبير من الفرنسيين الذين استعان بهم محمد علي في شتى المجالات كان عدد الانجليز المقيمين في مصر قليلا بالنسبة لباقي الجاليات الاجنبية [٢] •

ويقول (كرومر) انه بالرغم من اقامة الانجليز في الشرق مدة طويلة فانه من الصعب ان نقول انهم اصبحوا لهم صفات الاجانب الشرقيين ولأنهم كانت لهم صفات مميزة فانهم ظلوا يحتفظون بتلك الصفات كاملة وهـم

---

(١) محمـد فؤاد شكـري (دكتـور) : نفس المصـدر السابـق ص ١٢٣ ـ ١٢٥ •

(٢) A. A. : Vol. 3. Desp. 7. 61

كطبقة لا يختلفون كثيرا عن زملائهم في انجلترا [١] .

ويتجلى الصراع بين انجلترا وفرنسا على النفوذ في مصر من خلال عرض تنفيذ مشروع قناة السويس ، حيث قام الفرنسيون بعرضه على محمد علي ولكنه أصر على ضرورة اشراف الحكومة المصرية على تنفيذه وتمويلها له وضرورة ضمان الدول الكبرى لحيدة القناة ، ولكن محمد علي صرف النظر عن تنفيذ هذا المشروع وبدلا منه عمل على العناية بفتح الطريق البرية التي تمر عبر مصر من الاسكندرية الى القاهرة ومن القاهرة الى السويس وكانت الحكومة البريطانية تؤيد افتتاح الطريق البرية وتفضله على مشروعه القناة من الناحية السياسية . وعلى ذلك بذلت بريطانيا جهدها لمنع الفرنسيين من الحصول على امتياز من محمد علي بانشاء قناة السويس [٢] .

وفي النزاع الذي نشب بين محمد علي وكل من تركيا وبريطانيا كان محمد علي يعتمد على صداقة فرنسا ، بينما كان يسعى دائما لاستمالة الانجليز بمختلف الوسائل ولكنه لم يوفق في حين انه لم يلق التأييد الكافي من فرنسا بسبب الخطة السياسية التي اتخذتها حيال المسألة الشرقية وخصوصا عندما وجهت عنايتها الى انقاذ السلطنة العثمانية من خطر روسيا القيصرية بعد معاهدة هنكار اسكلسي Unkiar Skelessi في سنة ١٨٣٣ [٣] .

وبعد ان استطاع المصريون هزيمة الاتراك في موقعة نصيبين في ٢٤ يونية ١٨٣٩ قررت حكومة السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ــ ١٨٦١) ان تتناسى الماضي وان تحسم الخلاف مع باشا مصر الا ان محمد علي رفض

---

(١) Cromer : Modern Egypt. Vol. 2 p. 248

(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقناة السويس ص ١٧ .

(٣) السيد رجب حراز (دكتور) : نفس المصدر السابق ص ٢٣٥ .

الصلح وطالب بالوراثة في كافة الجهات التي يحتلها بمقتضى اتفاقية كاتاهية وأبدى الصدر الاعظم استعداده لاجابة مطالب محمد علي الا ان الدول الاوروبية سرعان ما تدخلت في المفاوضات ، وأصدرت الدول الخمس الكبرى (بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا وفرنسا) في ٢٨ يوليو ١٨٣٩ مذكرة مشتركة بعثت بها الى السلطان حتى لا يبرم صلحا مع محمد علي من غير موافقة الدول [١] .

واقنعت فرنسا الدول بحسم القضية سلميا والتنازل الى محمد علي عن حكم وراثي في مصر وسوريا . وأبدت روسيا التي كانت حريصة على الاحتفاظ بالحالة الراهنة عدم المبالاة . اما انجلترا فانها ذهبت أبعد من الجميع اذ اقترحت انتزاع سوريا بأكملها من محمد علي وفي مايو ١٨٤٠ أفلحت فرنسا بأن تعقد اتفاقية بين تركيا ومصر ومنح السلطان بموجب هذه الاتفاقية محمد علي ملكا وراثيا في مصر وسوريا ، وتوصل مؤتمر السفراء في لندن في صيف ١٨٤٠ الى قرار حول شروط تسوية الأزمة الشرقية وفي ١٥ يوليو ١٨٤٠ وقعت انجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا وكذلك تركيا على الاتفاقية التي قررت مصير محمد علي وممتلكاته [٢] .

وكان عقد اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠ نصرا كبيرا للدبلوماسية الانجليزية وانعزلت فرنسا انعزالا تاما ، واقتربت انجلترا من تحقيق هدفها المنشود ، اذا استندت الى دعم ثلاث دول لها وقادت الكفاح ضد محمد علي .

وفي ١٩ اغسطس طلبت الدول الكبرى من محمد علي قبول شروط اتفاقية لندن التي قضت بتسليم محمد علي مقاليد مصر كملك وراثي ويتولى حكم فلسطين (ولاية عكا) مدى الحياة فقط واعادة جميع

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .
(٢) لوتسكي – تاريخ الاقطار العربية ص ٢٤٤ – ٢٤٧ .

الممتلكات الاخرى الى السلطان وفي حالة عدم موافقة محمد علي على تلك الشروط خلال عشرة أيام يحتفظ بمصر وحدها وان لم يوافق خلال عشرين يوما على هذه الشروط يعمل على عزله بجهود الدول الكبرى . الا ان محمد علي رفض انذار الحلفاء وأعلن انه ينوي أن يبقي بالقوة ما ربحه بالقوة وردا على ذلك بدأت انجلترا والنمسا بالاشتراك مع تركيا بعمليات حربية ضده ووصل الى سواحل سوريا اسطول انجليزي ونمساوي وفي ١١ سبتمبر ١٨٤٠ انزل الاسطول الانجليزي قواته في شمال بيروت وقامت ثورة ضد محمد علي في لبنان واعتمد محمد علي على معونة فرنسا الا انها لم تفعل شيئا سوى التهديد بالسلاح ولم تمد مصر بأية مساعدات فعالة وادركت الحكومة الفرنسية بأن المساعدة المسلحة للدفاع عن مصر تعني حرب اوربية واسعة النطاق ولذا لم تشأ ان تغامر وتركت مصر وحدها في كفة القدر [1] .

وفي ٣٠ يناير ١٨٤١ ارسلت الدول الاربع (انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا) مذكرة الى الباب العالي لاعطاء محمد علي واسرته الحكم الوراثي في مصر على أساس ان هذا الحكم (منحه) من الباب العالي . ولكن الباب العالي اعترض وأراد أن يحرم محمدا عليا من الوراثة في مصر ذاتها . ودارت مفاوضات في لندن اشتركت فيها فرنسا واضطر الباب العالي الى الرضوخ لمشيئة الدول ، واصدر بتاريخ ١٣ فبراير ١٨٤١ فرمانين أولهما بخصوص مصر والثاني بخصوص السودان ولكنه تضمن قيودا بشأن ترتيب الوراثة وتقرير الجزية فتدخلت الدول ثانية وارغمت الباب العالي على تعديله في مصلحة محمد علي فأصدر بموافقة الدول فرمانا نهائيا في أول يونية ١٨٤١ يجعل الولاية من حق الأكبر وأحفاد محمد علي الذكور [2] .

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) السيد رجب حراز (دكتور) نفس المصدر السابق ص٢٧٩ ، ٢٨٠

وازدادت تبعية مصر الى الباب العالي ، الذي فقد مع ذلك مصر فعلا عام ١٨٤١ حينما وقعت برمتها تحت النفوذ الانجليزي ، ومنذ ذلك الحين تبعت مصر الانجليز أكثر من أي جهة اخرى .

عصر عباس الاول وسعيد :

كان عباس الاول يخاف الاوروبيين وكان لا يتكلم بأي لغة اوروبية وكان دائما يكره قناصل الدول الاجنبية الذين كان يراهم نادرا (١) . وعزل عباس كثيرا من الموظفين الفرنسيين في مصر وعندما احتج قنصل فرنسا في مصر (بنديتي Benedetti) على ذلك أجاب عباس بلهجة قاسية : (ألست أنا سيد تلك البلاد ؟ وهؤلاء الموظفون خدمي ؟ فأنا اذن القانون » (٢) .

ويعزو البعض طرد عباس الاول للموظفين الفرنسين بأنه كان يخشى لو حدث حادث يعكر العلاقات الودية بين مصر وفرنسا ان يشجع ذلك فرنسا على ان تحتل مصر بمساعدة رجالها الاقوياء الذين كانوا يسيطرون على مراكز ممتازة في مصر (٣) .

لقد شاهد عباس مدى تغلغل النفوذ الفرنسي في مصر في عهد محمد علي نتيجة لاستخدام الاخصائيين الفرنسيين في تنظيم برنامج الدولة في التجديد والاخذ عن الغرب وراءه تأثر كبار رجال الحكومة المصرية بالآراء والاتجاهات الفرنسية نتيجة لدراستهم في فرنسا (٤) .

وأثار عباس باقصائه الفرنسيين من خدمته وابعاده الوطنيين المتأثرين

---

(١) De Leon (Edwin) : The khedive's Egypt pp. 81, 82

(٢) Brehier (Louis) : L'Egypte de 1798 à 1900 p. 151

(٣) محمد علي (الامير) : مجموعة خطابات واوامر عباس الاول ص ٢

(٤) السيد رجب حراز (دكتور) نفس المصدر السابق ص ٢٨٩

بالحياة الفرنسية من البلاد عداوة فرنسا التي بدأت لأول مرة منذ ايام محمد علي تعمل على تعطيل المصالح المصرية في الاستانة والتعريض بسمعة الوالي وحكومته وحملت صحافتها حملات عنيفة ضد عباس واتهمته بالظلم والاستبداد والعجز عن ادارة شئون الحكم (١) .

واستمرت في عهد عباس المنافسة بين انجلترا وفرنسا حول المفاضلة بين الطريقين البري والبحري بين اوروبا والشرق كما كان الحال في عهد محمد علي . غير ان عباس كان في اول حكمه معاديا لكلا المشروعين : لا يرغب في شق القناة بين البحر المتوسط والبحر الاحمر (المشروع الفرنسي) أو مد السكة الحديد بين الاسكندرية والسويس (المشروع الانجليزي) ولهذا تضامنت المصلحة بين فرنسا وانجلترا لمعارضة عباس والكيد له . وادرك عباس ان من مصلحته التفاهم مع انجلترا وترضيتها والاستعانة بالنفوذ الانجليزي لاجتياز الازمة . وعلى هذا النحو عاونت انجلترا عباس في الاستانة ولم تحفل باحتجاجات فرنسا التي اشتدت مساعيها ضد الوالي في الاستانة يدفعها الى ذلك الخوف من استئثار الانجليز بالنفوذ في مصر ونجاح الطريق البري ووقوعه في قبضتهم (٢) .

وبدأ النفوذ الانجليزي يزداد تدريجيا في مصر وخشيت الدول الاوروبية ان ينتهي الامر باحتلال الانجليز البلاد بيد ان عباس لم يرتح قطعا لتمتع الانجليز بهذا النفوذ الكبير ، وشعر بضعف مركز الباشوية . لدرجة اشتد به القلق فقد تمثل امام عينيه الخطر الذي ينتظر مصر اذا انهارت الدولة العثمانية ولا ريب ان هذا هو السبب الذي دعا عباس للتمسك بتبعيته للسلطان صاحب السيادة الشرعية .

ولقد استجاب عباس الاول لتنفيذ المشروع الانجليزي وبدىء في عام ١٨٥٢ في مد السكة الحديد بين الاسكندرية والقاهرة وعبدت الى جانب

---

(١) نفس المصدر ص ٢٩٥

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٩

ذلك الطريق البري الواقع بين القاهرة والسويس •

وبالرغم من ذلك اخذت المعارضة الفرنسية ضد عباس تخف حدتها ، ويرجع ذلك الى نشاط الدبلوماسية الانجليزية في العواصم الاوروبية من جهة الى الانقلاب الذي أسفر عن استيلاء لويس نابليون على زمام الحكم في فرنسا ومهد لانشاء امبراطورية نابليون الثالث الذي بدأ سياسة التفاهم مع انجلترا [1] •

وبموت عباس الاول خلفه محمد سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) الذي اشتهر بحبه للاجانب وتساهله معهم فعظم نزوحهم الى مصر في عهده ، واسترعى تدفقهم على البلاد ونشاطهم غير المشروع انتباه القنصل الفرنسي (ساباتييه) الذي كتب في ٢ اكتوبر ١٨٥٤ بعد مضي حوالي ثلاثة اشهر فحسب من بداية حكم سعيد :

لقد تدفق على البلاد من جميع انحاء اوروبا بمجرد ذيوع الخبر عن وفاة عباس باشا جمهور كبير ، انقض على مصر كما لو كانت هذه (كاليفورنيا) جديدة [2] •

وقد زاد عدد الاجانب في مصر زيادة كبيرة في عهد سعيد حتى بلغ عددهم سنة ١٨٧١ : ٧٩٫٦٩٦ نسمة منهم ١٧٫٠٠٠ فرنسي ، ستة آلاف انجليزي والباقي من جنسيات مختلفة [3] •

ومن العوامل التي أدت الى زيادة النفوذ الفرنسي في مصر في عهد سعيد انه منح فرديناند دلسبس مشروع قناة السويس وكانت انجلترا تنظر الى مشروع قناة السويس كمشروع فرنسي قبل كل شيء من شأنه ان

---

(١) نفس المصدر ص ٣٠١
(٢) محمد فؤاد شكري (دكتور) : مصر والسودان ص ٥١
(٣) احمد الحتة (دكتور) : الاجانب في مصر والسودان ص ١٨٧

يجعل للفرنسيين نفوذا كبيرا في مصر يمكنهم من التحكم في طريق عالمية لخدمة أغراضهم الخاصة (١) .

وتم توقيع عقد امتياز القناة الاول في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ والعقد الثاني في ٥ يناير ١٨٥٦ وعملت انجلترا الكثير لعدم تنفيذ المشروع . ولقد كان وقع الامتيازات التي منحها سعيد (للشركة العالمية لقناة السويس) لدى انجلترا حينذاك لا يقل عن وقع حملة بونابرت على مصر (٢) .

وبدأت انجلترا تسعى لدى الباب العالي لمنع تنفيذ المشروع فأرسل الباب العالي خطابا شديد اللهجة الى سعيد يحذره فيه من عواقب عمله الجرىء . وعلى الرغم من ذلك فقد قدر للمشروع الفرنسي البقاء نتيجة للجهود الفرنسية ولدور (دلسبس) نفسه في التأثير على والي مصر (٣) .

غير ان معارضة الانجليز لم تلبث ان خفت شدتها . فقد خرجت فرنسا ظافرة من حربها مع النمسا ، وخشيت انجلترا العزلة السياسية عندما اخفقت مساعيها لاستمالة الروسيا والنمسا الى سياستها حيال القناة ، بينما لم يشأ الشعب الانجليزي نفسه الاشتباك في حروب عاجلة تماثل في اضرارها الاليمة التجارب التي خبروها في حرب القرم . ولهذه الأسباب امتنعت انجلترا عن الاصطدام مع فرنسا ، وخفت معارضتها فانتهز دلسبس هذه الفرصة لمضاعفة جهوده وعمل لاستعادة ثقة ومعاونة سعيد . وحمل الوالي على عقد اتفاق جديد مع الشركة في ٦ اغسطس ١٨٦٠ لسداد ثمن الاسهم التي اضافها لحساب مصر (٤) .

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : نفس المصدر السابق ص ١٢

(٢) Sabry M. : L'Empire Egyptien sous Ismil p. 80

(٣) محمد مصطفى صفوت : نفس المصدر ص ٢٨

(٤) السيد رجب حراز (دكتور) : نفس المصدر ص ٣٣٨

وفي عصر اسماعيل كان بمصر اكثر من مائة الف اوروبي [1] . ولقد نزح اكثر المغامرين في اوروبا الى مصر ليقينهم ان اسماعيل باشا في ضائقة مالية ، وانهم يستطيعون ان يكونوا ثروات كبيرة من وراء ذلك [2] .

وفي ظل الامتيازات الاجنبية أصبحت الجاليات الاجنبية مستقلة تماما عن السلطات المحلية وتتبع كل جالية منها تماما القنصل الذي تتبعه[3] .

وكانت مغامرات اسماعيل في الاقتراض من المرابين في اسواق اوروبا مؤسفة للغاية ولم يتمكن دائما من تقديم الضمانات الكافية وكان في جميع الأحوال ضحية للمغامرين والمستغلين الذين يسعون وراء الثراء السريع ويعملون لمصلحتهم الشخصية فقط وحصل كل من (جوشن واوبنهايم وروتشلد) على أعظم ربح من مغامراتهم المالية في مصر فمثلا حصلت مصر من القرض المالي الذي كانت قيمته ٣٢ مليون جنيه في عام ١٨٧٣ بفائدة ٣٣٪ حصلت على ١١ مليون فقط [4] .

وكان اسماعيل لا يحسب حسابا للتدخل الاوروبي ، وما ينطوي عليه من المطامع التي تهدم كيان الاستقلال . وهذا الخطأ الجسيم في سياسة اسماعيل ناشيء الى نزعته الاوروبية فان هذه النزعة جعلته يثق بالاوروبيين والدول الاوروبية والجاليات الاوروبية ثقة عمياء ويركن اليها ويعتقد فيها حسن النية ولا يفطن لمطامعها الاستعمارية ففتح ابواب البلاد على مصراعيها للتدخل الاجنبي وسمح للاوروبيين ان يتغلغلوا في مرافقها ويتولوا المناصب الرفيعة في حكومتها [5] .

---

(١) تيودور روشستين : المسألة المصرية ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) Dicey : The story of the Khediuate

(٣) Mc. Coan : Egypt. as it is p. 36

(٤) Elgood : Egypt p. 81

(٥) عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل جا ، ص ٧٦

والمعروف ان ديون الخديوي اسماعيل الهائلة التي اثقل بها اسماعيل الخزينة المصرية كانت نتيجة الاسراف الزائد عن الحد والمشروعات غير الضرورية والفوائد الباهظة التي كان يدفعها ليحصل على القروض [1] .

وكانت انجلترا وفرنسا من أقوى الدول الاوروبية نفوذا في مصر ، كان اهتمام فرنسا بعد تسوية سنة ١٨٤١ هو ان تمحو من ذهن محمد علي الشعور السيء الذي يكنه لها ، وكان ذلك من الصعوبة بمكان ، ولكنها نجحت في النهاية بفضل مجهودات لويس فيليب Louis Fhilip [2] .

وقد كان لفرنسا نفوذ ادبي كبير على اسماعيل وذلك لتربيته الفرنسية والسنوات التي قضاها في باريس وأيضا لصلته الوثيقة بالامبراطور نابليون الثالث ويتضح نفوذ فرنسا جليا في التجاء اسماعيل الى نابليون الثالث لحسم الخلاف بينه وبين شركة قناة السويس مع انه يعلم بالبداهة ان امبراطورر فرنسا لا يمكن ان يكون حكما عادلا [3].

وواجهته انجلترا تحكيم (نابليون الثالث) في موضوع قناة السويس بحملة عدائية غير انها لم تستطع ان تعارض رسميا في التحكيم وازداد مركز شركة قناة السويس قوة وزادت الثقة بها وتمكنت من ان تسير في تنفيذ المشروع حتى النهاية . بل ان الباب العالي اضطر بعد ذلك الى الموافقة على المشروع . ولم تعد انجلترا قادرة على مهاجمة المشروع من هذه الناحية مما أدى الى تقوية مركز الشركة ، ولقد قدرت انجلترا الاهمية البالغة لقناة السويس منذ افتتاحها بالنسبة لها ولامبراطوريتها وتجارتها ولا شك ان طريق القناة كانت تحت رحمة القوة البحرية المتفوقة لانجلترا وخاصة بعد الكارثة السياسية والحربية الكبرى التي حلت بفرنسا في الحرب الفرنسية

(١) Dicey : Op. cit. p. 172

(٢) De Malortie (Baron) : Egypt p. 288

(٣) عبد الرحمن الرافعي : نفس المصدر ص ٨٩

الالمانية في سنة ١٨٧٠ • كما قدرت انجلترا أهمية القناة في وقتي السلم والحرب على السواء اذ أصبحت القناة الطريق الرئيسية لمرور السفن والقوات والمعدات الحربية الخاصة بها الى الشرقين الاوسط والاقصى والى شرقي افريقيا واستراليا ونيوزيلندة • ولا شك ان اهتمام انجلترا بالقناة أدى الى زيادة اهتمامها بمصر التي تخترق القناة اجزاءها الشرقية ، وقد ربطت انجلترا لمدة طويلة مصير مصر ومستقبلها بمصير القناة ، وطالب البعض بأن الواجب على انجلترا شراء شركة القناة والاشراف اشرافا تاما على اذارتها • كما اشيع أيضا في سنة ١٨٧٤ ان الخديوي والباب العالي كانا يفكران جديا في بيع القناة لبريطانيا وان (ستانتون) قنصل انجلترا العام في مصر قد خاطب حكومته في هذا الشأن وأيده في ذلك بعض اعضاء وزارة الاحرار البريطانية غير ان (جلادستون) الذي كان رئيسا للوزارة ومعه (لورد جرانفيل) وزير الخارجية عارضاه في ذلك • على ان اللورد (دربي) وزير الخارجية في عهد وزارة المحافظين في سنة ١٨٧٤ كان يرى ان مصلحة انجلترا ان تدير القناة شركة دولية لا فرنسية الصبغة ، غير أن هذه الأفكار لم تخرج الى حيز التنفيذ وظلت شركة القناة على حالها [١] •

ولقد بذل نوبار باشا رئيس وزراء مصر في عصر اسماعيل مجهودا كبيرا لكي يثير الرأي العام في اوروبا للعمل على التدخل في مصر ولقد تمكن من التأثير لدرجة كبيرة في الرأي العام الانجليزي ذلك بعد نشوب الحرب الروسية ــ التركية سنة ١٨٧٧ وقد كان يفضل انجلترا على أية دولة اخرى ، ويعتقد ان تدخلها في مصر سيفيدها أكثر من أي دولة اخرى [٢] •

وعندما علم (دزرائيلي Disraeli) ــ زعيم حزب المحافظين

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) نفس المصدر ص ٤٨ ــ ٥٢ •

(٢) Dicey : Op. cit p. 169

ورئيس الوزراء في انجلترا ـ بوجود مفاوضات بين الحكومة المصرية وشركة فرنسية لرهن اسهم الخديوي اسماعيل في شركة القناة في سنة ١٨٧٥ ادرك اهمية الصفقة لانجلترا من الناحيتين السياسية والاستعمارية وحرص على اقناع زملائه في الوزارة باهمية الصفقة حتى نال موافقتهم جميعا على مبدأ شراء الحكومة لتلك الاسهم ولهذا ابرقت حكومة لندن الى معتمدها في مصر (ستانتون) ليؤكد للحكومة المصرية ان انجلترا لن تسمح برهن هذه الاسهم لدى أي شركة فرنسية ، ولم تعمل الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت على عرقلة هذه الخطوات دفاعا عن الشركة الفرنسية وذلك نظرا لشدة حرصها على صداقة انجلترا التي وقفت الى جانبها في أزمة ربيع سنة ١٨٧٥ وانقذتها من الخطر الالماني الذي كان يتهددها ويكاد يطيح بمركزها في اوروبا واستطاعت انجلترا شراء نصيب الخديوي اسماعيل في اسهم قناة السويس نظير اربعة ملايين من الجنيهات وبشراء انجلترا لأسهم الخديوي اسماعيل في شركة القناة اصبحت تملك الاسهم وبذلك صارت اكبر مساهمة في شركة القناة وترتب على ذلك ان قبلت الشركة ٣ أعضاء من الانجليز في مجلس ادارتها [١] .

ولقد كتبت جريدة التيمس الانجليزية في ٢٦ نوفمبر ١٨٧٥ نبأ شراء تلك الاسهم واشارت بأن الجمهور في هذا البلد وغيره ينظر الى هذا العمل الخطير الذي قامت به الحكومة الانجليزية من نواحيه السياسية لا التجارية [٢] .

ولقد ربح اسماعيل في تلك الصفقة مبلغ ٤٥٠٫٠٠٠ جنيه [٣] . ولكنه لم يتطلع الى المستقبل ، فقد كانت ارباح تلك الاسهم مرهونة لشركة قناة السويس لمدة خمسة عشر عاما فتعهدت الحكومة بأن تدفع فوائد هذا المبلغ للحكومة الانجليزية بسعر ٥ ٪ وظلت تدفعها حتى سنة ١٨٩٤ [٤].

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) نفس المصدر ص ٥٨ ـ ٥٩
(٢) تيودور روثستين : نفس المصدر ص ٧
(٣) الياس الايوبي : تاريخ مصر في عصر الخديوي اسماعيل ج ٢ ص ٣٢٥
(٤) صالح جودت : مصر في القرن التاسع عشر ص ٢٩

وبالرغم من ربح اسماعيل في تلك الصفقة الا ان خسارة مصر كانت فادحة فتلك الاسهم التي باعها انسماعيل لانجلترا بأربعة ملايين من الجنيهات بلغ ثمنها ٣٢ مليون جنيه سنة ١٩٠٥ ثم ارتفع الى ٧٢ مليون جنيه سنة ١٩٢٩ (١) .

ويقول (مسيو دي مازاد De Mazade) في مجلة العالمين في عددها الصادر في أول ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، ان شراء انجلترا لتلك الاسهم عمل سياسي بحت ، وهذا يدعو للاهمية لأنه لو ان هذا العمل لم يؤد في النهاية الى الاستيلاء التام على الأراضي المصرية فانه يعتبر كخطوة اولى لذلك العمل وانها اصبحت تراقب ذلك العميل الذي لجأ اليها وأخذت تبذل له المال من جديد وتطلب ضمانات جديدة (٢) .

ولكن اسماعيل عندما باع تلك الاسهم لانجلترا قد جرح بفعله هذا كبرياء فرنسا ولقد كان الغرض من بيع تلك الاسهم خدمة مصالح الفرنسيين أصحاب السندات (سندات الديون) ومع ذلك فقد اعتبر هذا البيع ضربة شديدة موجهة الى فرنسا التي لم تغفر للخديوي ذلك ابدا وما من شيء فعله الخديوي او كان في مقدوره ان يفعله منذ خريف سنة ١٨٧٥ ، استطاع ان ينال رضاء الفرنسيين ومنذ ذلك الحين انعدمت كل (رحمة) في قلوبهم وتأثرت جميع اعمالهم التالية بالعداوة التي شعروا بها نحو الخديوي (٣) .

الازمة المالية وأثرها على الصراع الانجليزي الفرنسي في مصر :

عندما علم (دزرائيلي) أن اسماعيل يعتزم اعادة تنظيم شئون مصر المالية ارسل على الفور (مستر ستيفن كيف Cave) (٤) . وقد ساء

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : نفس المصدر ص ٦٤ .

(٢) De Frecynet (c) : La Question d'Egypte p. 154

(٣) محمد فؤاد شكري واخرون نصوص ووثائق في التاريخ الحديث والمعاصر ص ٢٥٣

(٤) Zananiri (G) : Le Khedive Ismail et l'Egypte p. 145

فرنسا ان توفد انجلترا بعثة الى مصر وان تنفرد بالنفوذ لدى اسماعيل والتدخل في شئون مصر ، فأرسلت هي الاخرى أحد موظفيها ويدعى (فييه Villet) ليساعد الحكومة المصرية على تنظيم ماليتها وقد قدم مشروعا أراد اسماعيل الأخذ به فاستاءت الحكومة الانجليزية من ميله للمشروع الفرنسي [١] .

واعلن مستر كيف في تقريره ان تدهور مركز مصر المالي كان نتيجة الانفاق ببذخ والاسراف الزائد عن الحد والرغبة في تقليد حضارة الغرب ونتيجة الاخلال بالموارد المصرية نتيجة للامتيازات الممنوحة للمغامرين الذين كان معظمهم من الأجانب . وختم ذلك التقرير بقوله انه يمكن ان تستقيم شئون مصر المالية اذا تدخلت بعض القوى الاجنبية [٢] .

ولم يلبث ان بدأ التدخل السياسي في شئون مصر حينما ارغم اسماعيل على الموافقة على تسليم موارد البلاد المخصصة للديون (لصندوق الدين العمومي) الذي صدر مرسوما بانشائه في ٢ مايو ١٨٧٦ ، وكان هذا الصندوق عبارة عن خزينة تتسلم ايرادات المصالح المحلية المخصصة للديون : الجمارك والسكك الحديدية وبعض المديريات وغير ذلك مما يبلغ دخله في العام ٨٠٠ر٠٠٠ جنيه ، بالاضافة الى دخل الدائرة السنية وقدره ٦٨٤ر٠٠٠ جنيه وكانت ادارة صندوق الدين تتألف من اجانب يعينهم اسماعيل بعد ان ترشحهم حكومتهم [٣] .

وفي الواقع كانت انجلترا تهدف الى وضع نظام جديد يمكنها من التدخل الفعلي في ادارة الحكومة المصرية وبعد الاتفاق مع فرنسا جاء مندوبي الدولتين الى مصر في اكتوبر سنة ١٨٧٦ وهما (جوشن Goshen) وهو ممثل انجلترا ، (جوبير Joubert) ممثل فرنسا وطلبا الى

---

(١) احمد الحتة (دكتور) نفس المصدر السابق ص ٣٧٣

(٢) Dicey : op. cit. p. 140

(٣) السيد رجب حراز (دكتور) نفس المصدر ص ٣٧٦

اسماعيل قبـول التعديلات التي اتفقا عليها وأهمها فرض الرقابة الاوروبية على ماليـة مصر [1] .

واقترح المندوبان انشاء نظام (المراقبة الثنائية) على المالية المصرية وذلك بتعيين مراقبين عامين غير هيئة صندوق الدين العمومي أحدهما لمراقبة ايرادات الحكومة والآخر لمراقبة مصروفاتها ويشتركان في اعداد الميزانيـة على ان يسلم المراقبات الانجليزي والفرنسي الايرادات الى لجنة للدين العام ، فتضع هذه ما كان مخصصا من تلك الايرادات لخدمة الديون في بنكي انجلترا وفرنسا [2] .

وعلى الرغم من تنفيذ مقترحات (جوشن وجوبير) فان حالـة مصر المالية لم تتحسن بل ازدادت ارتباكا ، مما ادى الى اتفاق المندوب الانجليزي والمندوب الفرنسي وأعضاء صندوق الدين العمومي على مطالبة اسماعيل بتأليف لجنة تحقيق اوروبية لفحص الشئون المالية للحكومة المصريـة ولا شك ان في تنفيذ هذا المطلب اعتداء صريح على استقلال مصر وتدخل في شئونها الداخلية غير ان اسماعيل وافق على الطلب تحت ضغط الحكومات الاوروبية فأصدر مرسوما في ٢٧ يناير ١٨٧٨ بتأليف (لجنة التحقيق العليا الاوروبية) من (فردينان دلسبس) رئيسا (ريفرز ولسن Rivers Wilson ورياض باشا وكيليين وأعضاء صندوق الدين وقدمت اللجنة تقريرا مبدئيا الى اسماعيل شرحت فيـه الحالة الماليـة وبينت عيوبها وذكرت ما تراه لاصلاحها واقترحت اللجنة تنازل اسماعيل عن اطيانه واطيان عائلته لسد عجز ميزانية الحكومة وان يتنازل عن سلطته المطلقة وذلك بتأليف نظارة (وزارة) مسئولة عن الحكم ووافق اسماعيل على مقترحات اللجنة ، وفي ٢٨ اغسطس ١٨٧٨ اصدرت مرسوما بانشاء مجلس النظار وتكليف نوبار باشا بتأليف تلك النظارة التي اشترك فيها (ريفرز ولسن) الانجليزي ناظرا

---

(١) عبد لرحمن الرافعي : نفس المصدر ص ٦٩

(٢) السيد رجب حراز دكتور : نفس المصدر ص ٣٧٦

للمالية (دي بلنيير) الفرنسي ناظرا للاشغال [١] .

وفي ذلك الحين لم تكن الوزارة الاخيرة (وزارة الاشغال) وزارة مهمة فأبدى الفرنسيون عدم رضاهم وقالوا ان التعيين لا يتناسب مع كرامتهم ومجد أمتهم فلارضائهم ضمت عدة مصالح اخرى الى وزارة الاشغال العمومية حتى صارت هذه الوزارة في النهاية من الوزارة ذات الأهميــة العظمى [٢] .

وهكذا اخضعت الحكومة المصرية لنفوذ ممثلي انجلترا وفرنسا فلم تعد مهمة الوصاية الدولية مقصورة على ملاحظة (الوضع) الذي أوجدته أصلا تسوية سنة ١٨٤٠ / ١٨٤١ وذلك من حيث بقاء علاقة التبعية التي تربط مصر بالدولة العثمانية والاحتفاظ بها بل صارت مهمتها الآن ممتدة الى فرض السيطرة على شئون الخديوية الداخلية وقد ارتكبت تلك الوزارة افعالا ادت الى اثارة طبقات الشعب ضدها من ذلك طرد الموظفين المحليين واستبدالهم بغيرهم من الاوروبيين وذلك بالرغم من الرواتب الضخمة التي كان يتقاضاها هؤلاء الاجانب [٣] .

وحاول اسماعيل ايقاف هـذا التدخل الاجنبي واسترداد سلطته المسلوبة مستعينا ببعض العناصر الوطنية التي بدأت تتحرك بسبب الازمة المالية ومن ثم كان الانقلاب الذي احدثه اسماعيل في ابريل ١٨٧٩ عندما قال الوزارة الاوروبيــة الثانية (برئاسة محمد توفيق وفيهـا العضوان الاجنبيان) وكلف محمد شريف بتأليف وزارة مصرية تكون مهمتها وضع لائحة أساسية او دستور يقر مبدأ المسئوليــة الوزاريــة الصحيحة أي مسئولية الوزارة امام مجلس شورى النواب .

وقبل ذلك كان اسماعيل قد اضطر الى اقالة وزارة نوبار وقابلت الدول ذلك العمل بالاستياء والسخط وزعمت ان الدول نالت حقا مكتسبا

---

(١) احمد الحتة (دكتور) : نفس المصدر ص ٣٧٨ ، ٣٧٩

(٢) دكتور محمد فؤاد شكري واخرون : نفس المصدر ص ٢٥٥

(٣) Mc. Goan : Egypt Under Ismail p. 236

بأن يكون لها وزيران يمثلانها في الوزارة المصرية واجبرت انجلترا وفرنسا اسماعيل على عدم حضور جلسات مجلس الوزارة وتعيين ابنه محمد توفيق رئيسا للوزارة بشرط ان يكون للوزيرين الاجنبيين حق معارضة كل ما يرونه غير مناسب • وشكلت الوزارة الاوروبية الثانية في ٢٢ مارس سنة ١٨٧٩ وفي ٧ ابريل قدم محمد توفيق استقالته وذلك لأن الوزيرين الأوروبيين منذ ان عهدت اليه رئاسة الوزارة اهملاه تماما ولم يستشيراه في شيء (١) •

وكما سبقت الاشارة تألفت الوزارة الوطنية برئاسة محمد شريف في ٨ ابريل سنة ١٨٧٩ ولما كان تأليف الوزارة الوطنية والنشاط الذي بدا من جانب شورى النواب معناهما ان مصر قد صح عزمها على التخلص نهائيا من نوع الوصاية الدولية الذي فرض التدخل الاجنبي في شئونها أي التحرر من النفوذ الانجليزي ـ الفرنسي فقد صار كذلك متوقعا ان تعمد هاتان الدولتان الى ابطال هذا السعي وان تتخذا ذريعة لذلك نفس الدعوى التي تدعم بها التدخل الاجنبي وهي دعوى المحافظة على مصالح اصحاب الديون الذين كان أكثرهم من الرعايا الانجليز والفرنسيين (٢) •

ولقد وجدت فرنسا ان السبيل الوحيد لابطال سعي مصر للتحرر من النفوذ الأجنبي عموما ولاسترجاع نفوذها المتفوق خصوصا انما هو التعجيل الخديوي اسماعيل نفسه في حين لم تكن انجلترا ترى من الضروري ان يترتب على السعي من اجل احتفاظها هي بنفوذها المتفوق حينئذ في البلاد خلع الخديوي لسبب جوهري هو ان اسماعيل منذ بدأت الازمة المالية كان قد أخذ يظهر انحيازا واضحا نحو انجلترا من شأنه ان يكفل لهذه ان يستعلى نفوذها في مصر ولقد كان هذا الانحياز الظاهر لانجلترا هو نفسه السبب الرئيسي الذي جعل فرنسا تصر على خلع الخديوي •

ولكن في هذه اللحظة بالذات حدث ان دخلت المانيا الميدان كالحليف

---

(١) Adams (J) : L'Angleterre en Egypte p. 42

(٢) محمد فؤاد شكري (دكتور) : مصر والسودان ص ١٥٥

الظاهر لفرنسا واستطاعت فرنسا تحريك انجلترا عندما ذاع نبأ الموقف الذي أزمعت المانيا اتخاذه • فقد ادركت انجلترا انه صار عليها ان تسير مع فرنسا والا سارت فرنسا في الطريق وحدها او متحدة مع المانيا ونالت فرنسا بذلك مركزا في مصر يضر بالمصالح الانجليزية • ففرنسا هي التي أوجدت (خلع اسماعيل) • واصبح القنصل الفرنسي في ذلك الوقت ، هو الحاكم الفعلي لمصر فاذا قال اطردوا هذا الامير وعينوا هذا الرجل او ذاك في مكانه نفذ ما يريد خلال ٢٤ ساعة [١] •

وكان اسماعيل يأمل ان تختلف الدول في طلب خلعه وان تنجح مساعيه لدى السلطان وفي ليلة ٢٤ يونية سنة ١٨٧٩ ذهب الى اسماعيل قناصل انجلترا وفرنسا والمانيا وطلبوا اليه ان يتنازل عن العرش فرفض • وفي آخر الأمر أصدر السلطان العثماني بناء على قرار مجلس الوزراء أمرا بخلع اسماعيل وتنصيب محمد توفيق باشا خديوي لمصر وذلك اجابة لطلب الدول فأرسل الصدر الاعظم برقية بذلك الى كل من اسماعيل وتوفيق في ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ [٢] •

وكان السلطان يريد تعيين الامير حليم بدلا من توفيق استنادا الى أن خلع اسماعيل يلغي امتيازات وراثة الابن الاكبر والذي سبق الحصول عليه ولكن لم توافق كلا من انجلترا وفرنسا على ذلك لانهم لم يعرفوا شيئا عن الامير حليم ولكنهما كانا يعرفان توفيق خير المعرفة ، ولم يشاءا ان يخوضا التجربة مع اسماعيل آخر [٣] •

وكان توفيق مجردا من كل سلطة او قوة او نفوذ وكان مجرد صورة تحت الحماية الانجليزية الفرنسية وكان توفيق يقول دائما : « اننا لا

---

(١) د. محمد فؤاد شكري واخرين : نفس المصدر ص ٢٥٨

(٢) احمد الحتة (دكتور) : نفس المصدر ص ٣٨٦

(٣) Elgood : Egypt p. 86

نستطيع العيش بدون اوروبا والاكثر من ذلك لماذا تفعل هذا ؟ » [1] .

ويسخر يعقوب صنوع من الخديوي توفيق سخرية لاذعة قاسية تجاوز بها الحد وان لم تخل من طريف تميزت به صحف ابي نظارة فيقول : « وردت الينا رسالة من مكاتبنا في القاهرة يقول فيها ان توفيق توفى لكون أهل مصر حذفوا حرف القاف من اسمه والحدق يفهم ، ويقول أيضا ان شبابنا وجدوا في اسم حليم احرف يتركب منها لفظ مليح فلذلك الاهالي بمصر بتسلم على بعضها بهذه الجملة المليح جاي لنا عن قريب » [2] .

لقد نص مرسوما ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ ، ٢٩ اغسطس ١٨٧٨ على ايقاف الرقابة الاوروبية على مالية البلاد طالما يباشر الوزيران الاوربيان سلطاتهما على ان يكون مفهوما ان تسترجع فاعليتهما في حالة اقالة احد الوزيرين دون سابق اتفاق مع حكومة بلاده وقد فكر توفيق بعد توليه في اعادة المراقبة واخطر القنصلين الانجليزي والفرنسي برغبته واشترط ان يستشار في تعيين المراقبين ولما كانت فرنسا تريد ان تنتهز فرصة خلع اسماعيل لتدعيم نفوذهما في مصر فقد عملت اعادة المراقبة الثنائية بحيث يكون وضعها فيها مخالفا لما كانت عليه الاحوال من قبل فلا يصبح المراقب الفرنسي مجرد موزع للدخول على حين يتمتع المراقب الانجليزي بالاشراف على ادارة مصر وسياستها المالية لهذا ابدت فرنسا رغبتها منذ البداية ان يتمتع المراقبان بنفس اللقب والاختصاصات وان يلغى التمييز بين مراقب الدخل الانجليزي ومراقب المتصرف الفرنسي مهما كان التمييز اسميا واخطرت الدولتان الخديوي بأنهما قد وقع اختيارهما على (دي بلنيير ، بارنج) بصفتهما مراقبين عموميين وانهما ــ أي المراقبين

---

(1) De Maiortie (B) : op. cit. pp. 200, 204

(2) ابراهيم عبده (دكتور) : ابو نظارة ص ١٥٠ نقلا عن العدد ١٣ من السنة السادسة .

سيمتنعا عن التدخل في الادارة المصريـة (حتى ترسـل اليهما تعليمات جديدة) [1] .

وفي ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ صدر مرسوم بنظام المراقبـة الثنائية ، واعطي للمراقبين الحق في حضور جلسات مجلس الوزراء بشرط أن يكون رأيهما استشاريا وان على ناظر المالية ان يقدم للرقيبين في كل اسبوع كشفا مفصلا عن ايرادات الخزانة العامة ومصروفاتها وان الحكومة المصرية لا حق لها في عزلهما الا برضاء حكومتيهما [2] .

والمعروف ان انجلترا وفرنسا عندما اتفقا على خلع اسماعيـل كان هدفهما اجراء تصفية عامة لديون مصر كما اتفقا على تدويل التصفية . وفي ٣١ مارس ١٨٨٠ صدر مرسوم خديوي نص على تشكيل لجنة التصفية على ان تتألف من مندوبين عن كل من انجلترا وفرنسا ومندوب عن كل من المانيا والنمسا وايطاليا ومنذ ذلك الوقت اصبح مرسوم التصفية هو قانون مصر المالي او ميثاق ميزانيتها واهم ما يميزه أنه جاء برمته نتيجة للضغط الاجنبي وبذلك استلمت مصر للمرة الثانية في اربعين عاما لادارة اوروبا التي فرضت وضعها الدولي في سنة ١٨٤١ ثم فرضت وضعها المالي في سنة ١٨٨٠ [3] .

وكان التدخل الاجنبي احد الاسباب الرئيسية للثورة العرابية وانتشر التذمر بين رجـال الجيش منذ أواخر عصر اسماعيل بسبب تصرفات عثمان رفقي الجركسي ناظر الجهادية في وزارة رياض والذي استأثر الاتراك في عهده بالترقيات دون الضباط المصريين .

ودعى عرابي الأعيان ــ الذين كانوا متذمرين بسبب الغاء (المقابلة)

---

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى دكتور : مصر والمسالـة المصريـة ص ١١٦ ، ١١٩

(٢) احمد الحتة (دكتور) : نفس المصدر ص ٣٨٧

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : نفس المصدر ص ١٢٥ ــ ١٢٨

بموجب قانون التصفية فاحتشدوا يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ في ميدان عابدين حيث خاطب عرابي الخديوي باسم الشعب وطالب الخديوي باقالة الوزارة واعلان الدستور وزيادة عدد الجيش وخضع الخديوي لتلـك المطالب فوافق على سقوط الوزارة وأرسل في طلب شريف باشا لكي يقوم بتشكيل الوزارة [١] .

وفي ٢٥ مايو ١٨٨٢ قدمت مذكرة في شكل بلاغ نهائي من معتمدي فرنسا وانجلترا لمجلس الوزراء وصورة منها للخديوي طلبا فيها نفـي عرابي وعبد العـال حلمي وعلي فهمي مـع حفظ رتبتهـم ونياشينهـم ومرتباتهـم [٢] .

واقترحت فرنسا على انجلترا عقد مؤتمر في الاستانة يدعى اليه مندوبو الدول وقبلت انجلترا هذا الاقتراح وحضرتـه المانيا والنمسا وروسيـا وايطاليا بالاضافـة الى انجلترا وفرنسا وفي ٢٧ يونية ١٨٨٢ اقترح سفير ايطاليا بالمؤتمر ان تقرر الدول الامتناع عن التدخل المنفرد في مصر ما دام المؤتمر منعقدا ولكـن اقترح اللورد دوفرين (انجلترا) اضافة عبـارة (الا عند الضرورة القاهرة) [٣] .

وعلى حين كان مؤتمر الاستانة يتحرك ببطء دلت عدة ملابسات على ان الحكومـة البريطانية تود ان تقوم بعمل منفرد وبالفعل بدىء في ضرب الاسكندرية في صبيحة ١١ يوليـة ١٨٨٢ والحـق ان ضرب الانجليز للاسكندرية اجراء لا مبرر له فهو يتضمن تجاهلا للمؤتمر الذي كان لا يزال منعقدا [٤] . وصدرت ارادة سنية من توفيق لناظر الجهادية مقتضاها (ان لا حزب بيننا وبين الانجليز) [٥] وبعد ذلك صدر امر من الخديوي

---

(١) De Malortie : op. cit. p. 183
(٢) احمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ١٤٠ .
(٣) نفس المصدر السابق ص ١٥٥
(٤) محمد مصطفى صفوت : نفس المصدر السابق ص ٦٤
(٥) د. محمد فؤاد شكري وآخرون : نفس المصدر ص ٢٧٥

توفيق الى احمد عرابي بعزله من نظارة الجهادية وذلك في ٢٠ يولية ١٨٨٢ [1] . وكانت نهاية الحرب بين احمد عرابي والانجليز باستيلاء الانجليز على مركز التل الكبير في ١٣ سبتمبر [2] .

وما أتى شهر نوفمبر ١٨٨٢ حتى كان (اللورد دوفرين) في القاهرة يؤدي مهمة خاصة هي درس المركز السياسي والاداري ووضع قواعد نظام مصر الجديد العام تحت رقابة انجلترا وحدها ووجه اللورد (جرانفل) في اول عام ١٨٨٣ الى الدول ذات المصالح في مصر بلاغا مبهما ابهاما مقصودا بيانا لنيات الحكومة البريطانية (ستبقى مصر قوة حربية لحماية النظام العام، وحكومة جلالتها راغبة في استدعائها طالما تسمح بذلك حالة البلاد وتم اعداد ما يلزم لضمان سيادة الخديوي) [3] .

وهكذا انتهى الصراع الانجليزي ـ الفرنسي في مصر بانفراد انجلترا ببسط نفوذها وذلك بالاحتلال العسكري الذي دام اكثر من سبعين عاما .

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٨٢ .
(٢) نفس المصدر السابق ص ٣٠٧
(٣) روجيه لا مبلان : في سبيل الاستقلال ص ٤٤

أولاً : المراجـع العربيـة :

١ ـ ابراهيم عبده (الدكتور) : ابو نظارة امام الصحافة الفكاهيـة وزعيم المسرح في مصر القاهرة ١٩٥٣

٢ ـ احمد احمد الحتة (الدكتور) : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٥٧

٣ ـ احمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن الجزء الاول القاهرة ١٩٣٤

٤ ـ احمد عبد الرحيم مصطفى (الدكتور) مصر والمسألة المصريـة (١٨٧٦ ـ ١٨٨٢) القاهرة ١٩٦٥

٥ ـ السيد رجب حراز (الدكتور) : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ١٥١٧ ـ ١٨٨٢ القاهرة ١٩٧٠

٦ ـ الياس الايوبي : تاريخ مصر في عصر الخديوي اسماعيل ـ الجزء الاول القاهرة ١٩٢٣

٧ ـ تيودور روثستين : تاريخ المسألة المصرية (تعريب عبد الحميد العبادي) القاهرة ١٩٢٣

٨ ـ روجيه لا مبلان : في سبيل الاستقلال (تعريب ميخائيل بشاره) القاهرة ١٩٢٣

٩ ـ عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل (جزءان في مجلدين) القاهرة ١٩٣٢

١٠ ـ صالح جودت : مصر في القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٦٠

١١ ـ لوتسكي : تاريخ الاقطار العربية الحديث موسكو ١٩٧١

١٢ ـ محمد عبد الباري : الامتيازات الاجنبية القاهرة ١٩٣٠

١٣ ـ محمد علي (الامير) مجموعة خطابات واوامر عباس باشا الاول القاهرة ١٩٣٩

١٤ ـ محمد فؤاد شكري الدكتور وآخرون : بنـاء دولة مصر محمد علـي القاهرة ١٩٤٨

١٥ ـ محمد فؤاد شكري الدكتور وآخرون : مصر والسودان (١٨٢٠ ـ ١٨٩٩) القاهرة ١٩٦٣

١٦ ـ محمد فؤاد شكري الدكتور ، دكتور محمد انيس ، دكتور السيد رجب حراز نصوص ووثائق في التاريخ الحديث والمعاصر القاهرة

١٧ ـ محمد مصطفى صفوت دكتور : انجلترا وقناة السويس الاسكندرية ١٩٥٢

١٨ ـ نجيب توفيق : الثائر العظيم عبد الله النديم القاهرة ١٩٥٧

ثانيــا : المراجع الاجنبيــة :

1 — Adams (J) : L'Angleterre en Egypte — Paris 1922

2 — A.H. Amy, B.A. Oxon : Notes on the History of Modern Egypt — Cairo 1942

3 — Bréhier (Louis) : L'Egypte de 1798 a 1900. — Paris 1900

3 — De Freycinet (C) : la Question d'Egypte. — Paris 1905

4 — De Leon (Edwin) : The Khedive's Egypt. — London 1877

5 — De Malortie (Baron) ; Egypt. — London 1883

6 — Dicey (Edward) : The Story of the Khedivate. — London 1902

7 — Earl of Cromer : Modern Egypt. (2 Vols) — London 1908

8 — Elgood (P. G.) : Egypt. — Cairo 1949

9 — Satery (Mohammed); L'Empire Egyptien sous Ismeil. — Paris 1933

10 — Madden (R. R.) ; Egypt under Mohammed Ali. — London 1841

11 — Mc. Coan (J. C.) : Egypt as It Is. — London 1877

12 — » » (» ») : Egypt under Ismail — London 1889

تقارير القناصل البريطانيين في جدة كمصدر لتاريخ غرب الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واوائل العشرين .

دكتور صالح العمرو
جامعة الرياض
قسم التاريخ / كلية الآداب

لقد كان هناك في جـدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين أكثر من قنصل يمثل دولة أجنبية ولكنه يبدو أنهم لم يلعبوا نفس الدور الذي لعبه قناصل بريطانيـا من حيث اهتمامهم في المنطقة بل وتدخلهم في شئونها الداخليـة في أكثر من مناسبـة . كانت بريطانيـا دولة استعمارية ولها مصالح في مناطق كثيرة مـن الجزيرة العربية ولذلك فانه كان يهمها أن تعرف ما يجري في محيط القنصلية بل حتى في المناطق المجـاورة أو البعيدة مثل نجد وعسير وحائل واليمـن ما أمكن ذلك . والقناصل وهم يعرفون هذه الرغبة لم يألو جهدا فـي الكتابة عن كل ما رأوه وسمعوا عنه من أحداث وما وصل اليهم مـن معلومات وسواء كان لهذه المعلومات علاقة مباشرة بالمصالح البريطانية أو كانت على غير ذلك .

ان اهتمام بريطانيا في الجزيرة العربية يعود الى أكثر من عامل : فموقعها الاستراتيجي على الطريق الى الهند أعطاها أهمية لا يمكـن تجاهلها ، وأول من لفت نظر البريطانيين الى هذه الأهمية هم الفرنسيون عندما استولوا على مصر وأخذوا يحاولون اقامة علاقات بينهم وبـين بعض امراء غرب الجزيرة العربيـة (١) . ولو أن بريطانيـا تنبهت الـى مخططاتهم فأحبطتها في مهدها بل وأخرجتهم من مصر ، الا أن الامر لـم

ينته عند ذلك الحد ، فظهور محمد علي باشا ـ حاكم مصر والموالي لفرنسا ـ على مسرح الأحداث في الجزيرة العربية وأطماعه التوسعية فيها قادت الى اصطدامه ببريطانيا التي حاولت في بادىء الامر تحديـد مناطق النفوذ معه ولكن عندما لم يحدث شيء من هذا بسبب أطماعـه اللامحدودة كان لا بد لها من فعل شيء يوقفه عنده فنصبت من نفسها حاميا لمصالح السلطان ضد تابعه الخارج عليه الى أن أدى الامر في الأخير الى دخولها معه في حرب كان من بين نتائجها تجريده من جميع ممتلكاته في الجزيرة العربية ما عـدا الشريط الساحلي الممتـد من الوجه الـى العقبة والذي ظل بصفـة عامة تحت الحكم المصري حتى نهايـة القرن التاسع عشر [٢] .

أما العامل الثاني الذي حدا ببريطانيـا في أن تهتم بالجزيرة العربية فهو عامل اقتصادي ، فموانىء البحر الأحمر المؤدية الى الهنـد كانـت مهمة للسفن البريطانيـة التي تجد فيها الملجأ والوقود اضافة على ما تقوم به معها من تجارة رائجـة . فمثلا قدرت قيمة الواردات الى جدة وحدها في سنة ١٩٠٧ بمليوني جنيه استرليني وكان نصف هذه الواردات من الهند كما قدر أن ربع هذه التجارة كانت بيد رعايا بريطانيين . وأما العامل الأخير والأهم فهو أن بريطانيا وهي تحكم ملايين المسلمين في الهند وفي غيرها كان لها اهتمام خاص بما يجري في البلاد الاسلامية المقدسة ، ففي كل سنة يأتي من مناطق تحت نفوذها الآلاف من المسلمين لتأديـة فريضة الحج ، هذا اضافة على وجود جالية اسلامية كبيرة من رعايـا فريضة الحج ، هذا اضافة على وجود جالية اسلامية كبيرة من رعايـاها تقيم في هذه البلاد بصفة دائمة وتزاول مختلف الأعمال . اذا كان لا بد لها من ممثل في هذه البلاد لكي يرعى شئونهم ويسعى لـدى السلطات المحلية من أجل ايجاد كل ما من شأنه ضمان سلامتهـم وأمنهم وحفظ حقوقهم [٣] .

لقد كان حق تعيين من سيقوم برعاية المصالح البريطانية حتى سنة ١٨٢١ في جدة محصورا بيد شركة الليفانت The Levant Company

ولذلك فانه مسئول امامها وليس امام وزارة الخارجية التي ليس لهـا سلطة مباشرة عليه • هذا الوضع تغير بعد انحلال الشركـة سنة ١٨٢١ م فأصبح القنصل يتعين من قبل شركة الهند الشرقية East India Company ولكنه مسئول امام وزارة الخارجية ومرتبط بها لا بالمصدر الذي عينه • على أن ذاك لم يستمر طويلا فبعد مـدة وجيزة من مقتل المستر بيـج Page ممثل الشركة والذي يشغل في نفس الوقت منصب نائب القنصل أثناء اضطرابات حدثت في جـدة سنة ١٨٥٨ م ـ صار تعيين القناصل وعزلهم ومسئوليتهم تنحصر في يد وزارة الخارجية (٤) •

لقد قام بتمثيل بريطانيا في جدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الاولى واحد وعشرون قنصلا أو نائب قنصل تركوا حصيلة وافرة من المعلومات القيمة عبر تقاريرهم التـي كانـوا يرسلونهـا ـ ما عدا في بعض الحالات القليلـة * ـ الـى سفرائهـم في العاصمة العثمانية ، هذه المعلومات كانت عبارة عن سجل لما كـان يجري في منطقة الحجاز ـ وفي المناطق المجاورة بدرجة أقل ـ من أمور سياسية واقتصادية واجتماعية • وبما أنني لن أستطيع في بحث صغير كهذا أن استعرض اسماء وأعمال جميع هؤلاء القناصل ، لذا فسوف اقتصر في كتابتي على اعطاء نماذج من تقارير اولئك الذين اتسمت كتاباتهم بالشمول وتنوع المواضيـع ووفرة الانتاج • على أنه يجب أن لا يقلل هذا من شأن الآخرين والذين حفلت تقاريرهم بالعديـد من الحقائـق التي لا غنى عنهـا في نظري ـ لمن يريـد ان يكتب عن المنطقة وفي هذه الفترة •

كان على رأس هؤلاء القناصل ومـن أنشطهـم جيمز زوهراب Jamez Sohrab الذي عين قنصلا لبريطانيا في جدة في الفترة ما بـين

---

* في بعض الحالات القليلة ارسل القناصل تقاريرهم راسا الى وزير الخارجية في لندن كما هو واضح من بعض الامثة التي سنسوقها في هذا البحث .

الخامس من اكتوبر سنة ١٨٧٨ ، والأول من يوليو سنة ١٨٨١ [٥] • فعلى الرغم من قصر المدة التي أقامها هذا القنصل في جدة الا أنه أرسل الى سفارته تقارير كثيرة تطرقت الى مواضيع شتى كان لبعضها مساس مباشر بمهمته ومصالح دولته ، ولا صلة واضحة لمصالح دولته في بعضها الآخر • ففي الثاني عشر من شهر مايو سنة ١٨٧٩ أرسل زوهراب تقريرا الى السفير البريطاني في استانبول أوستن لايارد Austin Layard يحدثه فيه عن ميناء جدة وأنها الميناء التجاري الرئيسي للحجاز وأن فيها تجارة رائجة تزيد قيمتها عن ثلاثة ملايين جنيه استرليني • وقد تشكى القنصل في تقريره هذا بقوله أنه رغم هذه الأهمية وكونها مقر الاقامة لقناصل ثلاث دول كبرى الا أن حاكم الحجاز لم يقم حتى بزيارتها ولذا فان ادارة شئونها تركت بيد القائمقام كما أنيط أمر المحافظة على أمنها بوحدتين صغيرتين من المشاة لا يتجاوز عدد أفرادهما على المائة والعشرة رجال [٦] •

وفي تقرير آخر أرسله زوهراب الى نفس السفير في السابع من يوليو سنة ١٨٧٩ م تحدث القنصل عن مركز السلطان ودولته في الحجاز فأكد أن السلطات التركية في محاولتها للمحافظة على سلطتها هناك تواجه العديد من المصاعب • على رأس هذه المصاعب كون هذه السلطات تعيش بين شعب متوحش ، مثير للقلاقل ، ويناصبها العداء من غير أن تمتلك الوسيلة لقمعهم أو اجبارهم على مراعاة النظام فلا يوجد في الحجاز ــ على حد قول القائمقام له ــ الا أربع كتائب من المشاة • لذا فليس غريبا أن ينعدم الأمن في جميع أنحاء البلاد وان يكون الاعتداء على القوافل والمسافرين من الامور التي تحدث كل يوم • وقد أوضح القنصل أن الرشاوي وحدها هي التي تجعل البدو يقبلون بذلك الظل الخافت للسيادة العثمانية التي توجد في الحجاز ، فهناك مبالغ طائلة تمنح للاشراف والمشائخ ومقادير من الحبوب توزع على سكان القرى اضافة الى ما يصل الحجاز من هبات تدخل تحت ستار الدين • ان هذه المصروفات تكلف الحكومة

التركية في السنة ما يزيد على خمسمائة ألف جنيه استرليني • مقابل ذلك فان الحكومة التركية لا تحصل على أي شيء بسبب كون الحجاز مستثنى من كل من الضرائب والتجنيد ، ولذا فان هذه المنطقة لا تتميز بكونها عديمة الفائدة للسلطان فحسب بل انها تشكل عبئا ثقيلا على موارد الامبراطورية • وفي نهاية التقرير يذكر القنصل أنه بالامكان تغيير وضع المنطقة الى ما فيه فائدة الدولة العثمانية لو أن الاخيرة قامت بأحكام سيطرتها عليها وأجبرت السكان على أن يتحملوا نصيبهم من الضرائب بدلا من الدفع لهم لشراء هدوئهم (٧) •

وفي تقرير عن ضرورة انشاء تمثيل قنصلي لبريطانيا في منطقة البحر الاحمر أشاد زوهراب بالأهمية الكبرى للمنطقة البريطانية ومستعمراتها وخاصة الهند كما أشاد بالاهمية التجارية التي تحتلها هذه المنطقة وعلى رأسها ميناءي جدة والحديدة وقد أعطى في هذا التقرير دراسة شاملة للنواحي التجارية والسياسية وتجارة الرقيق في المنطقة ، كما اعطي تقريرا لعدد رعايا بريطانيا هناك • كذلك أوضح أن الدلائل كلها تؤكد أن لدول كبرى مثل المانيا وفرنسا وايطاليا مطامع في المنطقة • ثم تعرض بعد ذلك في تقريره الى مواضيع أخرى مثل أهمية الحجاز والأماكن المقدسة بصفة عامة ولبريطانيا بصفة خاصة ، نظرة السكان من بدو وحضر الى ادعاءات السلطان بالخلافة ونظرتهم للاتراك ككل ، علاقة الشريف عبد المطلب بتركيا ومدى الصلاحيات التي في يده ونظرة كل منه والسلطان الى الآخر (٨) • على أن زوهراب لم يجعل تقاريره وقفا على السفير في استانبول وانما ارسل البعض الى وزير الخارجية الماركيز ساليزبري The Marquiz of Salisbury هذه التقارير واحدا أرسله في الثاني عشر من مارس سنة ١٨٧٩ م عن شريف مكة الحسين بن محمد بن عون مبينا فيه مركزه الديني واستعداده المطلق لاستخدام مركزه هذا في أي أمر من شأنه خدمة الحكومة والمصالح البريطانية شريطة ألا يضر ذلك بمصالح السلطان وأن تكون الاتصالات معه تتم بصورة سرية ولا يعلم بها أحد حتى الحكومة التركية حسب استنتاج القنصل (٩) •

وفي تقرير آخر الى وزير الخارجية كتب زوهراب عن مجيىء والي الحجاز حالت باشا الى جدة وأن هذه الزيارة تمت بعد خطاب أرسله اليه بهذا الخصوص • وقد أفاد في تقريره آن زيارته لجدة كانت مفيدة وأن الوالي نفسه اقتنع بأنها كانت ضرورية • وذكر أنه عقد مع الوالي مباحثات مطولة وان الأخير أخبره بأنه فوجيء بحالة الاضطراب واللانظام اللذين كانا يسودان الجهاز الاداري في جدة ، وان هذا الامر لا يمكن اصلاحه الا بتعيين أناس مؤهلين هناك • وقد شملت المباحثات نقاط أخرى أثارها القنصل تخص جدة منها تنظيم وتدعيم قوة الشرطة وتنظيف المدينـة والحجر الصحي والمرسى والاهتمام بمصادر المياه وايجاد مجالس قضائية مناسبة وايقاف تجارة الرقيق • وقد بين الوالي للقنصل أنه لا يستطيع تنفيذ هذه الرغبات جميعها في آن واحد بل انه لن ينفذ أي منها في الحال ولكنه وعد بأنه سيولي جميع هذه النقاط اهتمامه (١٠) •

لم تقتصر تقارير زهراب كلها على الأمور التي كان معاصرا لها وانما كتب عن أحداث سبقته بأكثر من نصف قرن • ففي تقرير مطول بلـغ احدى وعشرين صفحة أرسله لوزير خارجيته ساليزبري كتب عن تاريخ اشراف مكة منذ سنة ١٨٢٣ ، فصّل فيه عن الخلافات التي كانت تنشب بين الأشراف من ذوى زيد وعون ، هذه الخلافات التي كثيرا ما قادت الى مجازر راح ضحيتها الكثير من أفراد الاسرتين • وقد أوضح كيف كانت الشرافة تنتقل من أسرة الى اخرى وموقف الحكومة التركية غير الثابت نحو الاسرتين • ثم تطرق بعد ذلك الى موقف كل من الاسرتين تجـاه بريطانيا مؤكدا أن أسرة عون لا تنظر دوما الا بعين الود والصداقـة للحكومة البريطانية على عكس اسرة زيد المناصبة للبريطانيين العداء ، ذلك الموقف الذي تمثل في شريفهم عبد المطلب • لقد كان زوهراب يكره عبد المطلب كرها شديدا لذا فلا عجب أن يصفه في تقريره هذا بالغدر والتعصب والسوء في كل شيء ، بل انه في الحقيقة جرده من كل الصفات الانسانية آملا في أن يستطيع اقناع وزير خارجيتـه المتدخل في منـع تعيينه للشرافة للمرة الثالثة • ولكي يؤكد وجهة نظره فيما يقوله عـن

عبد المطلب فقد أكد لوزير خارجيته أن هذه هي نظرة جميع المسئولين في الحجاز وعلى رأسهم الوالي وقائمقام جدة اللذين توسلا اليه لكي يمنع عنهم وقوع هذه الكارثة • وكان يمتدح ذوى عون ويحبذ تولية أحدهم مذكرا الوزير بما قدموه من خدمات جليلة لبريطانيا (١١) •

من القناصل الذين زودونا بالعديد من التقارير القيمة المستر توماس جايجو Thomas Jago الذي شغل منصب القنصلية في الفترة ما بين سبتمبر ١٨٨٣ ويوليو ١٨٨٨ • ففي تقرير أرسله في الخامس من مارس ١٨٨٤ م الى سفيره في استانبول ايرل دوفرين The Earl of Dofferin فكر أنه لم ير الوالي عثمان باشا في جدة طيلة المدة التي كان القنصل قد أقامها في جدة والتي تقارب الستة أشهر • بعد ذلك تحدث عن سلطات الوالي الواسعة التي يمارسها على جميع الامور صغيرها وكبيرها وسواء كانت ادارية وعسكرية أو اقتصادية وأنه قضى على سلطات قائمقام جدة الذي صار يرجع اليه في كل شيء • لقد صار الوالي الذي يشغل في نفس الوقت منصب القائد الاعلى للجيش يتصرف في امور كانت في السابق من اختصاص الشريف الذي لم يبق له من سلطة الا تلك التي تدور حول شئون القبائل البدوية بما يدخل في ذلك من حفظ لأمن الطرق وحل خلافاتهم • اما بخصوص القبائل البدوية فانهم على الرغم من كونهم يرتبطون برباط الدم والزواج مع زعماء مكة والمدينة ، الا أن هذه الروابط تزعزعت في السنوات الاخيرة بسبب ما تعرض له هؤلاء البدو من ظلم على يد الأشراف الامر الذي أدى بالتالي الى تلاشي تلك الروابط التي جمعتهم في سبيل مصالحهم المشتركة ضد الدولة الحاكمة • ان هؤلاء البدو يعتمدون غالبا في معيشتهم على ما يحصلون عليه مقابل سماحهم لمرور الحجاج عبر أراضيهم في موسم الحج، وما يحصلون عليه من اعانة سنوية من الدولة ــ عينية ونقدية تقدر قيمتها بحدود خمسة وثلاثون الف جنيه استرليني ــ من أجل حمايتهم لطرق مكة والمدينة • وقد حصل البدو على هذه الاعانة لأول مرة من محمد علي بعد استيلائه على الحجاز ولو أن الدولة العثمانية استمرت

تدفعها لهم الا أن السلطات المحلية لا تعطيهم جميع ما قرر لهم فلا يصلهم تقريبا الا نصفها . لقد أعطى في تقريره هذا أيضا بعض المعلومات عن قبيلتي حرب وعتيبة ، مواقع القبيلتين واعداد أفرادهما ، وعلاقة هاتين القبيلتين ببعض وعلاقتهما بالدولة العثمانية ، كما بين أن ما يدعى بثورة البدو التي حدثت في سنة ١٨٨٣ كانت باتحاد القبيلتين ضد السلطات المحلية . وأكد ثانية على سلطات الوالي الواسعة وأنه استطاع بعد مدة قصيرة من مجيئه الى الحجاز ان يقلم سلطات الشريف عبد المطلب وبالتالي عزلهعن الشرافة ، وبما أن الشريف الجديد عون الرفيق يعرف مدى قوة مركز الوالي لذا فانه لم يحاول أن يستعيد السلطات التي كانت أحيانا لسابقيه . ويذكر أن الشريف الجديد وهو يعرف مدى كره السلطات التركية للقصلية البريطانية لذلك فانه يحرص على الابتعاد عنها خوفا من أن يتهم بأن له صلات بها . وقبلنهاية التقرير تطرق الى الجيش التركي في الحجاز ، أعداده وكفاءته مبينا أن الكثير من أفراده جيىء بهم من سجون سوريا وفلسطين لتحملهم جو الحجاز الحار ولتأديبهم ، كما تطرق الى ميزانية الحجاز (١٢) .

وفي تقرير آخر كتب جايجو بالتفصيل عن مصادر الدخل والضرائب في ولاية الحجاز ضمنه معلومات كثيرة عن مواضيع شتى من ضمنها نبذة عن تاريخ الاشراف والغزو السعودي للحجاز واستيلاء محمد علي عليها الذي أدى الى اضعاف مركز الشريف . وقد امتدح في تقريره هذا الشريف عبدالله بن محمد بن عون وأعطى وجهة نظره عن أسباب عزل الشريف عبدالمطلب ، كما تحدث عن المخصصات التي تدفعها الدولة العثمانية للاشراف والبدو وسكان المدن . ولكن من أهم المواضيع التي كتب عنها القنصل بالتفصيل في هذا التقرير هي مصادر الدخل في الحجاز، من أين تأتي ، مفردا لكل من جدة ومكة باب على حدة . وقد قدر أن مجموع دخل الشريف لوحده يبلغ أربعة وثلاثون ألف ومائتان وثمانون جنيه استرليني (١٣) .

أما « آرثر الباني » . Orthur Alban الذي جاء الى جدة ليقوم بأعمال القنصل في سنتي ١٨٨٥ م ، ١٨٨٦ م فقد أرسل الى سفارته عدة تقارير كان من أهمها ذلك الذي كتبه في الثالث من أغسطس سنة ١٨٩٦ م ، والذي تحدث فيه عن سلطات الشريف عون الرفيق الواسعة والمؤيدة من جانب السلطان في استانبول ، وأن هذا قاد الى زيادة طغيانه وفساده اللذين تقاسى منهما جميع الطبقات في الحجاز ، كما أن جميع الولاة الذين حاولوا وضع حد لاستهتاره كان جزاؤهم عزلهم . لقد ذكر القنصل أن من سوء حظ هذه الولاية أن الوالي الحالي أحمد راتب باشا عندما جاء الى الولاية كان يعرف مدى سلطة الشريف وفساده ولذلك فقد كان عليه اما أن يسايره ويجاريه أو يستعد للابعاد عن مركزه . وقد اختار السبيل الاول له طريقا ولذلك فقد أصبحت حالة الولاية ليس لها نظير بين الولايات الاخرى اذ بدلا من رئيس واحد للولاية كما هي العادة في جميع الولايات فان هناك في الحجاز رئيسين ، كل معه زمرة من التابعين الذين لا بد من اشباع رغباتهم وارضاء نهمهم . ان الرأي العام في الحجاز قد يتباين حول محاسن ومساوىء الولاة السابقين ولكن بالنسبة لأحمد راتب باشا فليس هناك مجال للخلاف اذا أن الكل مجمع على أنه أسوأ وأفسد والي عرفه الحجاز خلال السنوات العشرين الماضية على الاقل . وقد أسهب القنصل في تقريره هذا في تعداد مساوىء الوالي التي شملت جميع الناس تقريبا كما بين عدم جدارته لما انيط به من مسئولية واهماله لاعماله الرسمية ، كما عدد مساوىء الشريف عون وأوضح الحالة السيئة التي انحدر اليها الوضع من جميع النواحي في عهد الاثنين . كما أعطى فكرة عن الشريف عون وادارته وصفات القائمقام الحميدة وعلاقته الودية بالقناصل والتي كانت السبب في النهاية في عزله. وبما أن الشكاوى قد كثرت من طغيان الوالي والشريف وفسادهم لذلك قامت الحكومة التركية بارسال العديد من البعثات لاستقصاء الحقائق ومدى صحة هذه الشكاوى ، الا أن الشريف أحبط مساعي هذه البعثات بما كان يقدمه لها من رشاوي جعلها تأتي وتعود لتكتب تقارير مرضية

عن وضع الحجاز • كان من أشد القناصل كرها للوالي والشريف القنصل عبد الرزاق (١٨٨٢ ــ ١٨٩٥ م) الذي كرس جهده للوقوف في وجه طغيانهم • هذا القنصل هوجم على حدود جدة وقتل مشكوكا ان للشريف يد في هذا الاعتداء • وقد حاول القناصل كلهم دون جدوى ازاحة الشريف عون عن مركزه مما زاد في سلطته التي عانى الحجاج والبدو منها أكثر من غيرهم لما فرضه عليهم من ضرائب • لقد أدى موقف الشريف هذا من البدو الى ازدياد هجومهم على الحجاج والمسافرين يشجعهم على ذلك عدم اطلاق الحراس عليهم النار مدعين بأنهم لم يعطوا أوامر بهذا الخصوص • كما اشتمل تقرير البان هذا على معلومات عن الجيش وكثرته وسوء حاله وتأخر رواتب أفراده ، وفي نهاية البحث يقترح ازالة كل من الشريف والوالي [١٤] •

على أن أبرز هؤلاء القناصل ــ في نظري ــ على الاطلاق هما القنصل جورج ديفي George Devey الذي كان قنصلا في جدة من الاول من ديسمبر سنة ١٨٩٦ م الى الخامس من ديسمبر سنة ١٩٠٥ والرجل الذي عاصره وشاركه مهمته معظم الوقت الشيخ محمد حسين Shaikh Mohammad Hussain الذي عمل كنائب قنصل ثم وكيل قنصل من ١٢ مارس ١٨٩٦ الى ١٩٠٨ م • لقد تميزت تقارير هذين القنصلين بغزارة المادة وتنوع المواضيع وكثرة التفاصيل • وربما ان هذا يكون راجع الى طول المدة التي قضياها في الحجاز الامر الذي أعطاهما الفرصة لمعرفة الوضع في الحجاز وما حولها من مناطق عن كثب • فمن بين تقارير ديفي التي ركز فيها على بعض المواضيع تقرير مؤرخ في الثامن من يوليو سنة ١٩٠٠ م تحدث فيه بالتفصيل عن الجيش النظامي التركي في الحجاز مبينا نوعية وحداته وعتاده وأين يتركز ، وعن الجيش الغير نظامي هناك [١٥] • أما في تقرير آخر فقد كتب هذا القنصل بالتفصيل أيضا عن ميزانية جدة ايراداتها ومصروفاتها والحالة المالية فيها على ضوء هذه الميزانية [١٦] • كما لم يفته أن يكتب عن الشريف عون الرفيق ، الرجل الذي شغل بال الكثير من القناصل والذي قلما تجد تقرير في هذه الفترة

بالذات الا وفيه شيء عنه . فقد أوقف عليه تقريرا كاملا مكون من سبع صفحات مبينا فيها مقاليه وصلاحياته وحالة سجونه السيئة التي اقترح تفتيشها ، هذا بالاضافة الى امور اخرى كثيرة[١٧]. وفي تقرير آخر اعطى معلومات وافرة عن الاسعار والضرائب والتعليم والصحة والبدو وشغبهم وأمن الطرق والقرصنة وعدد جيش الشريف والسبب في عدم تحسن الادارة في الحجاز وقلة السفن التي تحرس الشواطيء والتي تستعمل أيضا في نقل من انتهت خدمتهم من الجنود [١٨] .

وأخيرا نجد في تقريره الذي أرسله في التاسع من سبتمبر سنة ١٩٠٣ معلومات مفصلة عن المدارس في كل مدينة من مدن الحجاز الرئيسية ونوعيتها وعدد طلابها [١٩] . أما نائب القنصل حسين فقد أرسل الى سفارته تقارير كثيرة عالجت نفس المواضيع التي تطرق اليها ديفي أحيانا واختلفت عنها في بعض مواضيعها أحيانا اخرى .

على أن تقارير القناصل لم تقتصر كما أشرت على الأمور التيتحدث في الحجاز وانما تطرقوا أحيانا الى اعطاء بعض المعلومات التي كانت تحدث في المناطق المجاورة . مثال ذلك التقرير الذي أرسله ديفي في الثاني من نوفمبر سنة ١٩٠٣ م عن التحركات العسكرية التركية في عسير وعدد الجيوش التي تحارب هناك ومدى الخسائر التي تعرضوا لها [٢٠] . وتقرير القنصل ريتشاردسون G. Richardson الذي قام بعمل القنصل في سنة ١٩٠٩ م والذي ارسل في الثالث عشر من سبتمبر سنة ١٩٠٩ الى سفارته يذكر فيها نجاح الامير محمد الادريسي في تثبيت قدمه في عسير وازدياد أتباعه وبدأ العمليات الحربية بينه وبين الاتراك [٢١] .

ومن تلك التقارير ذلك الذي كتبه نائب القنصل حسين عندما كان يحدث أي من تطاحن على السلطة في نجد بين الملك عبدالعزيز آل سعود وآل الرشيد وموقف الأتراك المعادي لابن سعود ، ومحاولة الأخير كسب

الاتراك الى جانبه عندما طلب من الشريف حسين التوسط بينه وبينهم مذكرا الاخير بأنه ليس ثائر ضد الدولة العثمانية وانما ضد آل رشيد الذين اغتصبوا ملك آبائه واجداده وأنه هو الحاكم الشرعي لنجد [٢٢] •

تقييم وتحليل هذه التقارير والى أي مدى يمكن الاعتماد عليها :

ان أهمية هذه التقارير تكمن في أكثر من ناحية :

أولا : انها تعرضت لمواضيع كثيرة لم تسجلها أية مصادر اخرى • فقد أحصى القناصل من الناحية السياسية على الاشراف والولاةحركاتهم وسكناتهم ، مدى سلطتهم وصلاحياتهم ، محاسنهم ومساوئهم ، صلاحهم وفسادهم ، علاقتهم ببعضهم وبالآخرين • ومن الناحية الادارية نجد أنهم كتبوا لنا الكثير عن الجهاز الاداري في الحجاز وسواء كانت تخص جهاز الأتراك أو الأشراف ومحاسن هذه الاجهزة ومساوئها • اما الامور العسكرية فقد كان لها نصيب وافر من هذه التقارير ، فقد كتبوا عن الجيش ونوعية وحداته وأفراده وتسليحه وتدريبه وحالته ومواقعه ومدى انضباطه، كما تطرقوا بالتفصيل الى تحركات الاتراك العسكرية في المنطقة وسواء كانت مع البدو أو الاشراف أو السكان أو كانت مع المناطق الأخرى المجاورة • كذلك كتبوا بشيء من التفصيل عن الامور المالية من موارد ومصروفات واعانات ، عن التجارة في الحجاز ، عن المدارس والمستشفيات ومصادر المياه ، عن الموانىء البحرية والسفن الحربية وغير الحربية • وباختصار فقد شملت كتاباتهم كل شيء رأوه أو سمعوا عنه أو حدث في عهدهم بل حتى أحيانا عن امور حدثت قبلهم ـ لدرجة أن أي باحث لن يخرج خلو اليدين من هذه التقارير •

ثانيا : صحة المعلومات التي وردت في هذه التقارير ، فما من شك أن القناصل حاولوا ـ وهذا واضح في كثير من تقاريرهم ـ أن يتحروا الصدق فيما يكتبون عنه وان يشعروا سفرائهم ووزراء الخارجية بذلك ، فتراهم كثيرا ما يستخدمون الصيغ التالية : لقد أكد لي ••• أخبرت من

مصدر موثوق ... فلان أخبرني . أخبرت من قبل أشخاص معلوماتهم أكيدة ... ان هذا الأمر حقيقة معروفة .. واذا لم يتأكدوا من مصادرهم فانهم يوضحون ذلك أحيانا فتراهم يكتبون : ان الشائعات رائجة عن ... وان الاخبار التي وصلت هنا ... وقد سمعت ... ويظهر .. وان الموضوع بقدر ما أستطيع أن أعرف . ومن الدلائل على صحة الكثير من المعلومات التي ترد في هذه التقارير ما كان يوليها اياه السفراء أحيانا من اهتمام وما يبدونه تجاهها من ثقة . مثال ذلك التعليق الذي أرسله السفير فيليب كاري Philip Currie الى دزير خارجيته ساليزبري عن عون الرفيق وبناءا على التقارير التي وصلته عنه « ان هذا الشريف وغد من نوع فريد حتى في الحجاز »[٢٣] . وتعليق آخر هذه المرة من السفير نيقلاس اوكونور N. O'Conor على تقرير ديفي الذي يمتدح فيه الشريف علي باشا والذي يبدي فيه ارتياحه لتعيينه للشرافة اذ قال : « ان علي باشا كما تشير معلوماتنا الحالية يبدو أحسن مرشح لهذا المنصب»[٢٤] .

على أن هذا لا يمنع من كوننا نجدهم أحيانا يقعون في بعض الأخطاء والمبالغات التي قد تكون مقصودة أو غير مقصودة ، والتي قد يعود سببها الى امور منها عدم تأكدهم من صحة معلوماتهم أحيانا أو تحكم علاقاتهم وعواطفهم الشخصية في كتاباتهم أحيانا أخرى . هذا بالاضافة الى بعدهم في بعض الاحيان عن مكان وزمان وقوع الحادث مما يجعلهم يعتمدون على الرواة الذين قد يصدقون وقد يكذبون أو يبالغون .. ولذلك فاننا نجد السفير أحيانا ــ ولو انها قليلة ــ يبدي شكوكه في صحة بعض هذه المعلومات . مثال ذلك ما ورد في تقرير القنصل زوهراب عن تعيين عبد المطلب للشرافة وأن الرأي العام والسلك الدبلوماسي في الحجاز يعتبر هذا تحديا لانجلترا ، وأن السلطان انما يريد في هذا بقوله ان مثل هذا الرأي قد لا يوجد ومبالغ فيه[٢٥] . ومن أمثلة تلك التقارير التي لعبت العلاقات الشخصية دورا في عدم دقتها ما كتبه ديفي عن الوالي أحمد راتب باشا عندما كانت علاقته به وثيقة ، فقد أوضح نائب القنصل حسين أن ديفي

يضحي بمصالح الرعايا البريطانيين في سبيل علاقته الودية مع الوالي ، الامر الذي يمكن أن يستنتج منه أن ديفي ــ ان صح اتهام حسين ــ لم يعط السفير أحيانا صورة صحيحة لما يقع في المنطقة والتي تخص المصالــح البريطانية (٢٦) . كما أن ذلك واضح من تضارب تقارير بعض القناصل أحيانا حول حكمهم على والي أو شريف ، فبينما نجد أن هذا يسرف في ذمه نجد الآخر الذي يأتي بعده وحال استلامه العمل يبدأ في كيل المدح لذلك المذمــوم (٢٧) .

أما الاخطاء التي تقع أحيانا بسبب البعد عــن زمن الاحداث فمن أمثلتها ذلك التقرير الذي كتبه زوهراب عن تاريخ الحجاز خلال النصف قرن الذي سبقه ، فقد ذكر أن ثورة الشريف عبد المطلب ضد السلطــان بدأت في سنة ١٨٥٣ وان سببها كان الخلاف بين الشريف والوالي اذ أن هذا طبعا من الأخطاء الواضحة (٢٨) .

ولكن على الرغم من تلك الأخطاء التي لم تحدث الا في حالات نادرة والتي لا يجب ان تؤخذ كدليل على التقليل من قيمة هذه التقارير ، ففي الحقيقة أن مدى صحة هذه التقارير قد تفوق أي كتاب اهتم في تحري حقائقه كاتب عصري محايد ، ولا أرى قيمة حقيقية لأي عمل يكتب عــن هذه المنطقة وفي هذه الفترة دون الرجوع الى هذه التقارير .

ان هذه التقارير موجودة في أرشيف وزارة الخارجية البريطانية في لندن Public Record Office وغالبا في مجلدات وغير مفهرسة ولكن وثائقها مرتبة حسب تاريخها وبشكل تنازلي أي من الأقدم للأحدث . ومعظم هذه الوثائق أو التقارير تقع تحت الرقمين :

F.O. 195/ 151 - 2363 (Embassy and Consular. Archives)

F.O. 78/1694 - 5484 (General Correspondence).

المراجـع

1 — Hoskins, H., British Routes to India. N.Y. 1928. p. 65.

2 — Al-Amr, S., The Hijaz Under Ottoman Rule, 1869-1914, The Ottoman. Vali, The Sharif of Mecca & The growth of British influence. PH.D. Thesis presented to the University of Leeds, Feb. 1974. p. 264-293.

3 — Monahan, Jamez, Jid. No. 27. July, 3, 1908. 195/2286. For details see Al-Amr, OP. cit. pp. 212-216.

4 — Marston, T., Britain's Imperial Role in the Red Sea Area from 1800-1878. U.S.A. pp. Xi, 157f, 282, 500.

5 — Formore details about the Consuls and the Vice-Consuls who occupied the Consulate, see the F.O. Lists for the years. 1861. 1869, 1880, 1883, 1895, 1898, 1905, 1906, 1921, 1925.

6 — Sohrab to A. Layard. Jid. No. 12. May 12, 1879. F.O. 185/1251.

7 — Ibid. Jid. No. 28. July 17, 1879. F.O. 185/1375.

8 — Sohrab. Jid. June 1, 1881. F.O. 195/1375.

9 — Sohrab to Salisbury. Jid. March 12, 1879. F.O. 195/1251.

10 — Ibid. No. 28. April, 7, 1879. F.O. 78/2988.

11 — Ibid. Jid. March. 17, 1880. F.O. 195/1482.

12 — Jago to Dufferin. Jid. March 5, 1884. F.O. 195/1482

13 — Jago. Report on the Revenue of the Hijas. Jid. Jan 4, 29 1886. F.O. 195/1547.

14 — Alban to Herbert. Jid. Aug. 3, 1896. F.O. 195/1943.

15 — Devey to O'Conor. July 18, 1900, F.O. 195/2083.

16 — Devey. Budget Estimate for the Jeddah District. 1902. F.O. 195/2126.

17 — Devey. Memorandum. Inc. No. 3. in his desp. No. 82. Oct. 14, 1902, F.O. 195/2126.

18 — Devey. Jid. No. 82. Oct. 14, 1902. F.O. 195/2126.

19 — Devey. No 84. Sept. 9, 1903. F.O. 195/2148.

20 — Devey to O'Conor. No. 107, Nov., 2, 1903. F.O. 195/2148.

21 — Richardson to Lowther. No. 48. Sept. 13, 1909. F.O. 195/2320.

22 — Hussein, Memorandum. Jan. 3, 1905. Inc. in Devey's disp. to O'Conor, No. 5, Jan. 4, 1905. F.O. 195/2198.

23 — Currie to Salisbury. Cons. Sept. 19, 1895. Salisbury Papers (Christ Church) Vd. A. 135/49.

24 — O'Conor to Lansdowne. No. 766. Therapia. Oct. 31, 1905. F.O. 406/24.

25 — Layard to Salisbury. Pera. March. 31, 1880. Salisbury P. vol. A/ 17/ 99.

26 — Hussein to O'Conor. Jid. March 22, 1900. F.O. 195/2083.

27 — Al-Amr, Op. Cit. p. 218.

28 — Zoharb to Salisbury. Jid. No. 2. March 17, 1880. F.O. 195/1313.

التنظيم العسكري لجيش صاحب الزنج

الدكتور عبد الجبار ناجي
كلية الآداب / جامعة البصرة

تحمل الدراسات المتعلقة بالتنظيمات العسكرية لجيوش عدد من الامارات الاسلامية كالصفارين والبويهيين والغزنويين والايوبيين والمماليك ... الخ، التي قام بها نفر من الباحثين عرب واجانب[1] اهمية تاريخية متميزة . اذ انه عن طريق هذه الدراسات وامثالها المتصلة بالجوانب الحضارية لتراثنا العربي الاسلامي تتضح للمرء سعة الحادثة

---

(۱) انظر كمثال على ذلك :

C.E. Bosworth: (1) «The Armies of the Saffarids» in *BSOAS*, 1968, pp. 534 - 54.

وقد ترجمت المقالة تحت عنوان « جيش الصفاريين » في مجلة كلية الآداب ــ جامعة البصرة عدد ٧ ــ ١٩٧٢ .

(2) Ghaznavids Military Organization in *Der Islam*, Vol. XXXVI (1960), p. 37-77.

(3) « Military Organization under the Buyids of Persia and Iraq» in *Oriens*, Vol. 18-19, p. 143.

وقد ترجمت المقالة تحت عنوان « التنظيم العسكري عند البويهيين في العراق وايران » في مجلة المورد ــ المجلد الرابع ــ العدد الاول سنة ١٩٧٥ ص ٣٣ ــ ٥١ .

Hamilton A.R. Gibb : Studies on the Civilization (ch. 5) on the armies of Salah al-Din; Ayalon: Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom (London 1956); Mayer: «Studies on the Structure of Mamluk Army» in *BSOAS*, 1953, Vol. XV, p. 204.

التاريخية وديناميتها وعمقها على الرغم من انها قد حدثت في الماضي وعفى عليها الزمن • فضلا عن ان امثال هذه الدراسات ترسم للفرد العربي المعاصر صورا حية عن التطورات التاريخية التي شهدتها الجيوش العربية الاسلامية خلال فترات مختلفة سواء كان ذلك التطور في استراتيجية تلك الجيوش واساليبها الحربية واسلحتها او في فنونها الحربية وتنظيماتها المالية والعسكرية او في تركيباتها البشرية •

لم يكن نطاق هذه الدراسة ثورة الزنج وشعاراتها او العوامل التي أدت الى اندلاعها او الآثار التي خلفتها بل مكرس لكل ما له علاقة بالامور العسكرية وفيما اذا كانت الاستعمالات والاساليب الحربية التي سادت في جيش الزنج جديدة ام انها تقليد لتنظيم وتركيب الجيوش في الامارات الاسلامية الاخرى •

ولكن قبل ان تندخل في صلب الموضوع لا مندوحة من ذكر كلمة عن علم الحروب عند العلماء المسلمين ، فالمتصفح للتعريفات التي اوردها حاج خليفة في كشف الظنون يجد ان علم الحروب اتخذ مسميات متعددة، فهو من جهة علم الجهاد وقد اعتبره بابا من ابواب الفقه يذكر فيه احكامه الشرعية ويبين الفقهاء أحوالـه العادية وقواعده الحكمية في كتب[٢] مستقلة • كما اطلق عليه من الجهة الاخرى بعلم ترتيب العساكر ويبحث هذا العلم عن « قود الجيوش وترتيبهم ونصب الرؤساء لضبط احوالهم وتهيئة ارزاقهم وتمييز الشجاع عن الجبان ••• ويهيء لهم ألبسة الحروب والسلاح[٣] » ، ويذكره حاج خليفة مرة ثالثة باسم علم التعابي العددية في الحروب « وهو علم يتعرف منه كيفية ترتيب العساكر في[٤] الحروب » • ويشير اليه تحت اسم علم الآلات الحربية الذي يبحث بكيفية اتخاذ الآلات الحربية كالمنجنيق[٥] ، وعلم الرمي[٦] •

---

(٢) حاج خليفة : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ج ١ ص ٦٢٢ •

(٣) ن•م• ج ١ ص ٣٩٥ •

(٤) ن•م• ج ١ ص ٤١٥ •

اريد القول من كل هذا ان الحروب وتنظيمات الجيوش وترتيب العساكر واستعمال السلاح مواضيع شغلت بال الكثير من العلماء المسلمين القدامى فألفوا فيه الكتب والرسائل التي ما زال اكثرها مخطوطا منها على سبيل المثال : رسالة للفيلسوف العربي الكندي عن (السيوف التي كانت عند العرب واجناسها) وقد نشرت هذه الرسالة في مجلة كلية الآداب بالقاهرة [٧] ، وكتاب (تبصرة ارباب الالباب في كيفية النجاة من الحروب ومن الاسواء ونشر اعلام الاعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الاعداء) من تأليف الطرطوسي وقد نشره البروفسور[٨] كاهين ، وكتاب (الحيل والحروب وآلات السلاح وحصار القلاع وصنعة العرب بالسيف والرمي بالنشاب وعمل البارود) ، وكتاب (التذكرة الهروية في الحيل الحربية[٩]) تأليف علي بن ابي بكر الهروي ، وكتاب (تفريج الكروب في تدبير[١٠] الحروب) تأليف عمر بن ابراهيم الاوسي الانصاري ، وكتاب (كشف الكروب في معرفة الحروب) تأليف عماد الدين موسى بن محمد اليوسفي المصري .

ولم يقتصر هذا الاهتمام المتزايد بالشئون العسكرية عند العرب على العلماء المسلمين القدامى فحسب بل وانعكس ايضا في عدد من مؤلفات الكتاب العرب المحدثين . وهناك عدد غير قليل من الكتب والبحوث تظهر وضعية الجيوش العربية ووحدتها عبر التاريخ ومركزة على

---

(٥) ن.م. ج ١ ص ١٤٥ .

(٦) ن.م. ج ١ ص ٩١٤ .

(٧) اورد الاستاذ احسان هندي مشكورا المعلومات المتعلقة بكتب الحرب والسلاح عند العرب في كتابه « الحياة العسكرية عند العرب » ١٩٦٤ . ورسالة الكندي موجودة في المجلد ١٤ سنة ١٩٥٢ من مجلة كلية الاداب بالقاهرة .

(٨) نشر في مجلة Bulletin d'Etudes Orientales (XII) (1947 - 1948)

(٩) التذكرة الهروية في الحيل الحربية ، دمشق ١٩٧٢ .

(١٠) تفريج الكروب في تدبير الحروب ، القاهرة ١٩٦١ .

الانتصارات التي تحققت بفضل كفايتها في التدريب والتنظيم واستعمال السلاح وتقدمها على الجيوش البيزنطية والساسانية والصليبية • وهدف هذه الدراسات نبيل ونابع من الواقع القومي لأمتنا ، ودعوة للعرب عموما للتخلص من الاستعمار والاستيطان العسكري الصهيوني • فالقوة الدافعة في تاريخنا والعبرة التي نستلهمها من تراث امتنا العسكري والحربي القائم على الوحدة العسكرية والتفاني ازاء التحديات هما خير ممهد للقضاء على فكرة الاستعلاء عند العدو وبأنه سوف لا يقهر عسكريا • ومن امثال هذه الكتب ، كتاب احسان الهندي عن (الحياة العسكرية عند العرب) وألحقه بعدد من المقتطفات من كتاب الطرسوسي الذي مر ذكره . وكتاب (نظم الحرب في الاسلام[11]) لجمال الدين عياد وقد اقتصره على فترة الرسول الكريم (ص) ، وكتاب (الفن الحربي في صدر الاسلام[12]) تأليف عبد الرؤوف عون ، وكتاب (الدعاية العسكرية عند العرب) تأليف توفيق الفكيكي ، وكتاب (الجندية في الدولة العباسية[13]) تأليف نعمان ثابت، واطروحة الماجستير (تنظيمات الجيش في العصر العباسي [14] الثاني) تأليف خالد جاسم الجنابي ، واطروحة الدكتوراه (التنظيمات الادارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي [15] الاول ١٣٢ - ٢٣٢ هـ) تأليف د • جهاديه القرغولي • هذا بالاضافة الى اهتمام بعض الباحثين الاجانب بهذا الجانب من تاريخنا العربي كما ذكرت ذلك في بداية البحث •

* * *

لم ترد أي اشارة تفيد بأن علي بن محمد صاحب الزنج كان عسكريا او له خلفية عسكرية • فالروايات التي بين ايدينا عن حياته لا تسمح لنا

---

(١١) القاهرة ١٣٧٠ هـ

(١٢) مصر ١٩٦١ •

(١٣) بغداد ١٩٣٩ •

(١٤) بغداد ١٩٧١ •

(١٥) جامعة عين شمس سنة ١٩٧٤ •

القول بأنه كان من الجنود الذين طمعوا في الانفصال عن جسم الدولة العباسية ، في الوقت الذي يهيء لنا التاريخ عددا من الاشارات الصريحة التي تبين بأنه كان رجل قلم وادب دئوبا على نيل المعرفة ، فاعتمادا على ما أورده الصفدي في مخطوط الوافي بالوفيات ان والدة علي بن محمد قالت انه كان « لا يدع احدا عنده ادب ولا رواية الا اخذها[١٦] » ، كما ان بعض المؤرخين والكتاب المسلمين ذكروا انه كان ماهرا بالتنجيم[١٧] والسحر ، وكان معلما للصبيان وشاعرا[١٨] . ولكن علي بن محمد ، وهذا هو المهم ، كان يتحلى بروح ثائرة ونفس وثابة للتغير نحو الافضل . فهو فضلا عن كونه شاعر ومعلم للصبيان فانه كان مخططا ومنذ فترة مبكرة من حياته الى الوثوب على العباسيين . فقد اثبتت الحوادث التي رافقت حياة الثورة الخمس عشرة سنة ان عليا كان يمتلك مقدرة سياسية وكفاية عسكرية واضحة متمثلة باختياره الموفق للقواد والامراء الذين اعتمد عليهم قبل واثناء الوهلة الاولى للحركة ، كذلك في تقسيمه جبهات القتال ، وفي اختياره المواقع والحصون كاتخاذه المختارة عاصمة له وحصنا واقيا للثورة في منطقة جغرافية صعبة وفي اتخاذ قواده تبعا لاستشارته مدينة المنيعة والمنصورة حصونا لهم في البطائح . وتتمثل مهارته العسكرية كذلك باتصالاته المستمرة وتوجيهاته الذكية لقواده في جبهات القتال واستجاباته السريعة لمساعدتهم وتقديم الامدادات اليهم وتتبعه اخبارهم الحربية . ففي بداية الثورة سنة ٢٥٥ ـ ٨٦٨ عندما اراد مهاجمة البصرة وجه قائده المشهور علي بن ابان المهلبي بجيش للقاء البصريين قائلا له « ان احتجت

---

(١٦) مخطوط الوافي بالوفيات ، اسطنبول رقم ٢١ـ٢٩٢٠ أ ورقة ١٦٩ ب وقد حققت الاوراق الخاصة بصاحب الزنج في مجلة المورد المجلد الاول ـ العددان الثالث والرابع ص ١٧ .

(١٧) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك م ٣ سنة ١٧٦٣ ، كذلك العيون والحدائق ، تحقيق نبيلة عبد المنعم ج ٤ ق ١ ص ٤٨ .

(١٨) انظر ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة . م ٢ ص ٣١١ . القيرواني : زهر الاداب وثمر الالباب (القاهرة ١٩٥٣) ج ١ ص ٢٨٨ .

الى مزيد في الرجال فاستمدني [١٩] » • وفي سنة ٢٥٩ ـ ٨٧٢ طلب علي ابن ابان المهلبي وهو يقاتل في الاهواز من صاحب الزنج ان يمده بعدد من الشذاءات ـ سكن حربية ـ فوجه اليه (١٣) شذاة تحمل جمعا كثيرا من [٢٠] المقاتلين • وفي سنة ٢٦٤ هـ ـ ٨٧٧ طلب سليمان بن جامع قائد الجيش في منطقة البطائح من صاحب الزنج ان يوجه اليه الشذاءات فأرسل اليه (١٠) شذوات [٢١] • كما ان سليمان هذا طلب من صاحب الزنج بعد ذلك امدادات عسكرية اخرى فأرسل اليه القائد الخليل بن ابان المهلبي بصحبة [٢٢] ١٥٠٠ فارس • وفي سنة ٢٦٧ هـ ـ ٨٨٠ استنجد سليمان بن جامع مرة ثالثة بصاحب الزنج طالبا منه الامداد بعدد من السميريات على ان يكون لكل سميرية اربعون مجذافا ، فأرسل اليه صاحب الزنج خلال (٢٠) يوما اربعين سميرية في كل واحدة مقاتلان ومع ملاحيها السيوف والرماح [٢٣] والتراس • وفي سنة ٢٦٥ ـ ٨٧٨ كتب سليمان بن جامع الى صاحب الزنج بشأن خطته في كري نهر بالبطيحة يعرف بنهر الزهيري لأهميته في ري سواد الكوفة ، فأرسل اليه صاحب الزنج رجلا خبيرا هو محمد بن يزيد البصري [٢٤] • ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان علي بن محمد وعددا من قواده قد اكتسبوا خبرة عسكرية قبل وصولهم البصرة ، ومن المعروف ان عليا افلح في بث دعوته بين القبائل العربية في البحرين واستطاع ان يحشد الجموع ويضم مناطق متعددة في البحرين •

وفي المقابل فان جموع مؤيدي صاحب الزنج الاوائل ان كانوا من السودان او البيضان لم يكونوا جميعا من الجنود او ممن لهم خبرات

---

(١٩) الطبري م ٣ / ١٧٧٦ •
(٢٠) ن•م• م ١٨٧٨/٣ •
(٢١) ن•م• م ٣ / ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ •
(٢٢) ن•م• م ٣ / ١٩٢٥ •
(٢٣) ن•م• م ٣ / ١٩٥٣ •
(٢٤) ن•م• م ٣ ١٩٢٨ •

عسكرية وانما كانوا يعملون في الزراعة وكسح الاملاح من السباخ وتجميعها وشق الترع والانهار وتجفيف المستنقعات • وقد نجح علي بن محمد في تنظيم تلك الجموع وتوجيههم توجها حربيا لا سيما وانهم كانوا على معرفة دقيقة بجغرافية منطقة البصرة • وعلى الرغم من تواجد هذا النقص العسكري المنظم عند صاحب الزنج وجموع مؤيديه فان التاريخ يسعفنا بعدد من الروايات توضح التلاحم القوي بين القيادة والقاعدة ، وان ما تحقق من انتصارات يرجع الى تصميمهم وايمانهم • فمما اورده الطبري في سنة ٢٦٧ ـ ٨٨٠ م ان الموفق سار مع جيشه للاطلاع على مدينة المختارة تأهبا للهجوم عليها « فرأى من منعتها وحصانتها بالصور والخنادق المحيطة بها ••• ما لم ير مثله ممن تقدم من منازعي السلطان ، ورأى من كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استغلظ امره • فلما عاين اصحابه ـ أي اصحاب صاحب الزنج ـ ابا احمد ارتفعت اصواتهم بما ارتجت له الارض»[٢٥] • ويقول الطبري ، أيضا خلال حديثه عن هجمات الموفق المتعددة على مدينة المختارة ، واصفا جماعة صاحب الزنج ما يلي « فاشتدت محاماة الفسقة عن ذلك ـ أي عن المسجد في المختارة ـ والذي عنه* بما كان الخبيث يحضهم عليه » ويعلق على استماتهم في الدفاع عن مدينتهم قائلا « حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب احدهم السهم او الطعنة او الضربة فيسقط فيجذبه الذي الى جنبه ويقف موقفه اشفاقا من ان يخلوا موقف رجل منهم فيدخل الخلل على سائر[٢٦] أصحابه» • وفي حادثة اخرى اوردها الطبري تفيد بأن احد قواد صاحب الزنج المشهورين بهبوذ بن عبد الوهاب اصيب بجراح في احدى المعارك فوهنت حالته ، ولكن اصحابه دافعوا عنه وفرقوا جيش ابي العباس وانقذوه من موت محتم[٢٧] • هذا فضلا[٢٨] عن تصريح عدد من المؤرخين بصلابة وشجاعة

---

(٢٥) م ٣ / ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ •

* اعتقد ان الاصح الذي بجنبه •

(٢٦) م ٣ / ٢٠٣٤ •

(٢٧) م ٣ / ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥ •

(٢٨) م ٣ / ٢٠٩٢ •

مؤيدي صاحب الزنج وقواده ، فسليمان بن جامع كما يقول الطبري « كان آكثر أصحابه غناء[28] عنه » ، وبهبوذ بن عبدالوهاب كان « أشد حماته بأسا واكثرهم عددا[29] وعدة » ، واحمد بن مهدي الجبائي «كان اعظم اصحابه[30] غنى عنه » ، واحمد البرذعي « كان من اشجع رجال[31] الخبيث » ، وابو النداء من القواد المشهورين بالبأس والنجدة ومن اجلد رجال سليمان بن[32] جامع ، واحمد بن موسى بن سعيد كان قائدا جليلا واحد عدد[33] الناجم ، ودرمويه الزنجي كان «من انجاد الزنج وابطالهم[34] » ، ويقول الطبري عن عميره انه « ذو بأس ونجدة وتقدم[35] في الحرب » ، والمهذب « من مذكوري اصحاب الخبيث ورؤسائهم[36] وشجعانهم » وغيره من الاقوال التي تصرح بقوة مؤيدي الثورة وصلابتهم في الدفاع عنها .

كان علي بن محمد ، وكما هو الحال في الترتيب العسكري لجميع الامارات الاسلامية في العصور الوسطى ، صاحب الزنج والداعي للثورة والقائد الاعلى للجيش ومنذ الايام الاولى لاندلاعها في سنة ٢٥٥ هـ والمشرف على جميع العمليات العسكرية والمعارك التي دارت رحاها بين مؤيديه من جهة وجيش العباسيين والبصريين من جهة ثانية . وهذا امر تقتضيه ضرورة تلك الفترة المبكرة من عمر الثورة ونقص التنظيم والانضباط عند جماعته ، ففي حادثة وقعت في الايام الاولى من سنة ٢٥٥ هـ يقول الطبري ان رجلا من السودان قد قتل من قبل بعض موالي الهاشميين في

---

(٢٩) م ٣ / ١٩٨٤ .
(٣٠) م ٣ / ١٩٦٩ .
(٣١) م ٣ / ١٩٩٩ ، ابني ابي الحديد : م ٢ / ٣٤٢ .
(٣٢) الطبري م ٣ / ١٩٦٦ .
(٣٣) ابن ابي الحديد م ٢ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .
(٣٤) الطبري م ٣ / ٢٠٩٦ .
(٣٥) ن.م. م ٣ / ١٩٨٥ .
(٣٦) م ٣ / ١٩٩٢ — ١٩٩٣ .

قرية القادسية في منطقة البصرة ، فلما وصل الخبر الزنج طلبوا من علي أن يأذن لهم بانتهاب القرية والقبض على القاتل « فقال : لا سبيل الى ذلك دون ان نعرف ما عند القوم وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم ، ونسألهم ان يدفعوه الينا فان فعلوا والا ساغ[37] لنا قتالهم » والرواية تشير بوضوح الى ان صاحب الزنج لم يكن همه القتل والنهب وكان يتبع اسلوبا سياسيا وعسكريا ذكيا في التعامل مع مؤيديه القليلي الخبرة العسكرية ومع اهالي القرى غير المنظمة الى دعوته ، وتشير الحوادث ايضا الى انه كان خبيرا باختيار المواقع العسكرية قبل التورط في معارك سريعة يقول الطبري « كان علي ـ اذا سار يتنكب[38] القرى » • ومما يذكر الطبري ايضا ان عليا في احدى الحواد ثعبر نهر دجيل ، في البصرة ، باتجاه قرية جبى ولكنه لم يدخلها بل « أقام خارجا منها وارسل الى من فيها فأتاه كبراؤهم وكبراء اهل الكرخ فأمرهم باقامة الانزال له ولاصحابه فأقيم له[39] ما اراد » • وعندما سار صاحب الزنج سنة ٢٥٥ هـ نحو البصرة جرت معارك طاحنة بينه وبين البصريين ، كان النصر فيها للزنج وضعف امر البصريين كثيرا حتى ان الزنج طلبوا من علي بن محمد ان يأذن لهم باقتحام مدينة البصرة لأن لم يكن في وسع اهلها المقاومة « فزبرهم وهجن آراءهم وقال لهم : لا • بل ابعدوا عنها فقد ارعبناهم واخفناهم وامنتم جانبهم ، فالرأي الآن ان تدعو حربهم حتى يكونوا هم الذين[40] يطلبونكم » وان قراءة للاحداث التي اعقبت هذه الحادثة تبين لنا بأن صاحب الزنج كان يتمتع ببعد نظر عسكري وعدم التسرع بدخول البصرة اذ انه لا يريد ان ينشغل اصحابه بنهب المدينة بقدر ما كان يهدف الى اخضاع المناوئين وكسر عزيمتهم • والأهم من هذا كله فانه اعتمادا على رواية الطبري ان اهالي البصرة كانوا قد كاتبوا الخليفة وطلبوا

---

(٣٧) م ٣ / ١٧٥٣ •

(٣٨) م ٣ / ١٧٦٢ •

(٣٩) م ٣ / ١٧٥٣ •

(٤٠) م ٣ / ١٧٨٦ •

منه النجدة ضد الزنج فأرسل اليهم الخليفة جعلان التركي مع امدادات عسكرية ، كما انه امر ابا الاحوص الباهلي بالتوجه الى الابلة واليا عليها وأمده بقائد من[41] الاتراك . وعلى هذا فانه بوصول هذه الامدادات العسكرية سيكون موقف صاحب الزنج ضعيفا ومحاصرا من عدة جوانب فارتأى انه من الضروري التعجل بالانسحاب وعدم دخول المدينة والانصياع الى رغبة أصحابه . فالاجراءات التي سبق ذكرها تؤيد ما ذهبنا اليه بأن ظروف هذه المرحلة من الثورة خطيرة وتحتاج الى تـرو وتوجيه مستمر لاصحابه واشراف دقيق على الحروب والمعارك وتهذيب لنفوس مؤيديه لذلك صار على صلة وثيقة جدا بتحركات اصحابه وانـه كان لا يتوانى باتخاذ قرارات قاسية ضد من يخالف تعليماته ويخرج عن التوجيهات العسكرية العامة فيخبرنا الطبري ان جماعة من جنـد صاحب الزنج قد هاجم قرية الجعفرية في منطقة البصرة دون اذنه وقتلوا كثيرا من اهلها ونهبوا القرية وجـاءوه ببعض الاسرى « فوبخهـم وخلى[42] سبيلهم » (أي الاسرى) ثم وجه غلاما له الى من دخل قرية الجعفرية من الزنج فردهم « ونادى الا برئت الذمة ممن انتهب شيئا من هذه القرية او سبى منها احدا فمن فعل ذلك حلت به العقوبة[43] الموجعة » . ومـن حوادث السنة ذاتها ايضا انه اتاه خبرا بأن اصحابه الزنج قد انشغـلوا بشرب خمور وانبذة وجدوها في قرية القادسية في منطقة البصرة فسار اليهم « واعلمهم ان ذلك مما لا يجوز لهم وحرم النبيذ في ذلك اليوم عليهم وقال لهم : انكم تلاقون جيوشا تقاتلونهم فدعـوا شرب النبيـذ والتشاغل به[44] » . وقد ظل علي بن محمد على اتصال مباشر بقواده حتي بعد ان نجحت الثورة واتسعت انتصاراتها وهناك عدد من الاشارات

---

(٤١) م ٣ / ١٧٨٦ .

(٤٢) م ٣ / ١٧٥٨ .

(٤٣) ن٠م٠ والصفحة .

(٤٤) م ٣ / ١٧٦٣ .

الهامة التي يمكن اضافتها الى ما تقدم ذكره من معلومات التي تؤيد حسن كفاية صاحب الزنج العسكرية وتتبعه الاحداث والتطورات ، ففي سنة ٢٦٦ هـ ٨٧٩ م طلب والي رامهرمز من علي بن ابان المهلبي قائد الزنج في الاهواز مساعدة عسكرية ضد اكراد الداربان • فكتب علي بدوره الى صاحب الزنج يخبره بالامر لكن الاخير نصحه بضرورة أخذ رهائن من والي رامهرمز كي لا يغدر به • يقول الطبري ان والي رامهرمز ارسل الى علي بن ابان ايمانا وعهودا بان يمنحه جميع الغنائم التي يحصل عليها فوافق المهلبي وارسل المساعدات دون ان يخبر صاحب الزنج بذلك فوقع في الفخ اذ خانه والي رامهرمز وكتب على أثر ذلك الى صاحب الزنج يخبره بالنتيجة فكتب اليه الاخير يعنفه قائلا : « قد كنت تقدمت اليك الا تركن الى محمد بن عبيد وان تجعل الوثيقة بينك وبينه الرهائن فتركت امري واتبعت هواك فذاك الذي ارداك واردى بجيشك [٤٥] » • وأراد أهالي البصرة سنة ٢٥٥ هـ ان يخدعوا علي بن محمد وقتله بارسالهم (٣٠٠) ثلاثمائة من الاعراب وايهامه بانهم يريدون الانضمام اليه ومقابلته فلما عاد رسوله بخبرهم « زجره وقال ان هذا مكيدة ، وأمر السودان بقتالهم » فلما قاتلوهم وصرفوهم التفت الى رسوله محمد بن سلم قائلا « ألم اعلمك انهم ارادوا كيدنا [٤٦] » •

ومع ان علي بن محمد كان قائدا أعلى للجيش والمشرف العام على تحركاته وتوسعاته ومراقبة تصرفات مؤيديه مراقبة دقيقة فانه لم يكن متفردا بشكل مطلق في اتخاذ القرارات ورسم الخطط بل ، واعتمادا على ما أورده الطبري وعدد من المؤرخين ، انه عندما رجع من بغداد الى البصرة عازما على بث دعوته بين صفوف الزنوج اعتمد على عدد من رفاقه القدماء وعددهم ستة رجال وكانوا بمثابة مجلس للثورة • وكما يقول الطبري ان عليا كان يشاور هؤلاء الستة في كل تطور جديد

---

(٤٥) م ٣ / ١٩٤٤ – ١٩٤٥ •
(٤٦) م ٣ / ١٧٧٥ •

يواجه الحركة خاصة خلال ايامها الاولى ، فيشير الطبري صراحة ان عليا اذا نزل موضعا من المواضع « اعتزل عسكره باصحابه الستة [٤٧] » • والرجال الستة هم : علي بن ابان المهلبي وهو أحد القادة المشهورين الذين اعتمد عليهم صاحب الزنج كثيرا ، وقد ظل يحارب الى جانب صاحب الزنج حتى نهاية الثورة في سنة ٢٧٠ هـ • وكان صاحب الزنج يستشيره في رسم الخطط العسكرية ، ففي سنة ٢٦٩ هـ ٨٨٢ عندما أفلح الموفق بهدم سور المختارة مدينة الزنج ضاق الامر بعلي بن محمد فأشار عليه علي بن ابان ان يفتح الماء على السباخ التي يسلكها جيش العباسيين وبذلك يصعب عليها التقدم كما انه أشار عليه ان يحفر خنادق في مواضع عدة لتعيق جيش العباسيين من دخول المدينة [٤٨] • وبالفعل استطاع صاحب الزنج ان يعرقل جيش العباسيين ويدحرهم باتخاذه توصيات المهلبي • والثاني محمد بن سلم القصاب الهجري ، وكان قد رافق صاحب الزنج منذ ان كان هذا في البحرين ، واعتمد عليه صاحب الزنج كثيرا خاصة في امور تنظيم وبث الدعوة • اذ ان محمد بن سلم كان مثلا احد الرجال الاربعة الذين ظهروا في مسجد عباد بالبصرة داعين بأمر صاحب الزنج ودعوته [٤٩] • والثالث يحيى بن محمد البحراني ، وكان أيضا قد رافق صاحب الزنج من البحرين • والرابع سليمان ابن جامع وهو الآخر كان قد رافقه من البحرين • والخامس والسادس مشرف ورفيق وهما غلامان تركيان كان ليحيى بن عبد الرحمن ابن خاقان انضما الى دعوة صاحب الزنج عندما كان في بغداد [٥٠] • ويبدو أن هؤلاء الستة لم يقتصر عملهم على مناقشة امور الثورة وتطوراتها بل وأيضا قد تحملوا مسئوليات قيادية لمساعدة صاحب الزنج في الاشراف على انصار الحركة وعلى جبهات القتال وكذلك في الحفاظ على انتصارات

---

(٤٧) م ٣ / ١٧٦٠ ، د. السامر : ثورة الزنج ص ٤٧ .
(٤٨) م ٣ / ٢٠٤١ — ٢٠٤٢ .
(٤٩) م ٣ / ١٧٤٥ .
(٥٠) م ٣ / ١٧٤٦ — ١٧٤٧ .

الحركة وتنظيم المؤيدين . فمثلا ان محمد بن سلم احد الرجال الستة هو الذي قام بابلاغ صاحب الزنج بشأن تناول الزنج الخمر في قرية القادسية، وقد توجه صاحب الزنج الى جماعته برفقة اثنين من هؤلاء الستة محمد بن سلم ويحيى بن محمد (٥١) . كما ان اول من ظهر في مسجد عباد داعيا للثورة هو واحد من هؤلاء الستة (٥٢) ، وقد اعتمد صاحب الزنج على محمد بن سلم في محاولة اقناع البصريين بأمر الحركة وأهدافها (٥٣) . وقد بذل كل من علي بن ابان وسليمان بن جامع مجهودا كبيرا في الدفاع عن الحركة منذ بدايتها وحتى مصرعهما في سنة ٢٧٢ هـ ٨٨٥ م.

واعتمادا على رواية ريحان بن صالح عند الطبري ان صاحب الزنج بعد ان تكاثر جمع المنضمين الى دعوته وحصوله على الاسلحة اتخذ خطوة عسكرية اخرى اذ عمل على تقويد قواده (٥٥) وترتيب عساكره وذلك بتوزيع الزنوج على اولئك القواد . وهنا لا بد لنا من القول بأنه بينما كان علي بن محمد زعيما للحركة وقائدا أعلى للجيوش أصبح كل من الرجال الستة قائدا اعلى للجماعة المنضوين تحت لواءه ، وباتساع انتصارات الحركة ازدادت حجوم الجبهات العسكرية التي يشرف عليها هؤلاء الرجال الستة . فهناك روايات تشير الى ان لعلي بن ابان قواد تابعين لامرته كذلك الحال بالنسبة الى سليمان بن جامع ويحيى ابن محمد .

ومع هذا فان تضخم حجم المنضمين الى الثورة وتقويد القواد وتوزيعهم على جبهات قتال متعددة لم تؤد الى فصم او اضعاف الروابط

---

(٥١) م ٣ / ١٧٦٣
(٥٢) م ٣ / ١٧٤٥ .
(٤٣) م ٣ / ١٧٨٢ .
(٥٤) ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٢٥ ، ٣٣٢ .
(٥٥) الطبري م ٣ / ١٧٧٤ .

بين صاحب الزنج ورجاله الستة المقربين وبقية قواده بل بقي ، كما مر بنا ، على اتصال مباشر ووثيق بهم اذ انه لم يتخلى عن الاشراف العام للقيادة ووضع الخطط العسكرية ومراقبة القواد وتصرفاتهم . وهناك اكثر من دليل يشير الى ان كل قائد أعلى من قواده كان لا يتصرف عسكريا بله اداريا في المنطقة التي يشرف عليها دون ان يتصل بصاحب الزنج ويحصل على مشورته ونصحه في قراراته . ففي سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ م عندما نزل سليمان بن جامع في قرية تقع على الجانب الشرقي من نهر طهيتا بالبطائح للتحصن بها كتب الى صاحب الزنج يعلمه بما فعل فكتب اليه هذا بتصويب رأيه ويأمره بارسال الميرة والنعم والغنم فانفذ سليمان ذلك اليه (٥٦) . وفي السنة ذاتها كتب احمد بن مهدي الجبائي قائد السميريات في جبهة البطائح الى صاحب الزنج يخبره بأن البطيحة خالية من جيش السلطان على أثر سحبها لمجابهة هجوم يعقوب بن الليث الصفار على مدينة واسط . فوجه صاحب الزنج امرا الى القائد الاعلى هناك سليمان بن جامع يقضي بتوجهه وعسكره الى قرية الحوانيت في البطيحة والاستيلاء عليها (٥٧) . وفي سنة ٢٦٤ هـ ٨٧٧ م وبعد ان استطاع سليمان بن جامع السيطرة على الحوانيت والبطيحة كتب الى صاحب الزنج رسالة يطلب فيها ان يأذن له في التوجه اليه « ليحدث به عهدا ويصلح امورا من امور منزله (٥٨) » فجاءه الجواب بالموافقة فحمل معه الاعلام التي حصل عليها اثناء العمليات العسكرية كدليل على انتصاراته (٥٩) . وفي سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م كاتب سليمان الشعراني صاحب الزنج عن نتائج المعركة التي وقعت بين جيشه وجيش ابي العباس بن الموفق وانتصار الاخير وانهزام الشعراني الى المذار ، فما كان من صاحب

---

(٥٦) م ٣ / ١٩٠٣ .
(٥٧) م ٣ / ١٨٩٩ .
(٥٨) م ٣ / ١٩١٧ .
(٥٩) م ٣ / ١٩٢٠ .

الزنج الا ان يوجه كتابا الى سليمان بن جامع قائد المنطقة يعلمه فيه بهزيمة الشعراني وحذره من « مثل الذي نزل بالشعراني ويأمره بالتيقظ في أمره وحفظ ما قبله »[٦٠] • وعندما انتصر الموفق على سليمان بن جامع وسيطرته على البطيحة ثم توجهه نحو الاهواز كتب صاحب الزنج الى علي بن ابان وبهبوذ بن عبد الوهاب بالمجيء الى المختارة لتنظيم شئون الدفاع عن المدينة[٦١] •

كان العدو الرئيس والوحيد لصاحب الزنج في بداية أو الحركة متمثلا بالملاكين البصريين وجيشهم وبجيش العباسيين المرابط في مدينة البصرة لذلك وجدنا علي بن محمد يشارك بنفسه في القتال • ولكن عندما اتسع أمر الحركة فخضعت البصرة والابلة وعبادان والمفتح الى نفوذ صاحب الزنج بات من الضروري تقسيم القتال الى جبهات • وهنا أيضا تظهر حنكة صاحب الزنج في اختياره القواد وتقسيمه الجبهات فسلم الجبهة العسكرية الشرقية المتمثلة بمنطقة الاهواز الى علي بن ابان المهلبي كقائد أعلى ومشرف على القتال فيها ، ولهذا اطلق ابن ابي الحديد على علي بن ابان لقب قائد القواد وامير الامراء[٦٢] • ثم قلد صاحب الزنج المهلبي ولاية المنطقة التي خضعت له في الاهواز[٦٣] • وسلم سليمان بن جامع قيادة الجبهة الشمالية المتمثلة بالبطائح وواسط ، والى سليمان هذا يرجع الفضل في السيطرة العسكرية على جميع القرى والمراكز في منطقة البطائح ، وفضلا عن ذلك صار عاملا عليها[٦٤] •

ويبدو أن الجبهة الواحدة كانت بدورها تقسم الى جبهات أصغر ويقودها قواد تابعون الى القائد الاعلى للجبهة • ففي جبهة البطائح مثلا كان كما قلنا سليمان بن جامع القائد الاعلى بينما يظهر لنا سليمان

(٦٠) م ٣/١٩٦٤ ، ١٩٦٥
(٦١) م٣/١٩٧٤ ، ١٩٧٥
(٦٢) ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٢٥
(٦٣) الطبري م ٣/١٩٠٨ ــ ١٩٠٩
(٦٤) ن٠ م٠ م ٣/١٩١٧ ، ١٩٢٦

ابن موسى الشعراني كقائد لجبهة ضمن المنطقة ذاتها . كذلك كان علي بن ابان قائدا اعلى لجبهة الأهواز في حين كان بهبوذ بن علي بن ابان قائدا لمنطقة اخرى ضمن هـذه الجبهة وفوق هـذا يصبح عاملا على الغندم والباسيان ... الخ ضمن منطقة اشرافه العسكري في الجبهة الشرقية[٦٥].
أيضا كان صاحب الزنج يعين نوابا ومساعدين لكل قائد اعلى من تلك الجبهات، اذ يفهم من الروايات التاريخية ان احمد بن مهدي الجبائي مثلا كان مساعدا ونائبا لسليمان بن جامع في الجبهة الشمالية (أي البطائح). والجبائي يعد من أشهر القواد بسالة في المعارك النهرية اذ كان قائـدا للسميريات [٦٦] . بينما كان بهبوذ بن عبد الوهاب مساعدا ونائبا لعلي بن ابان في الجبهة الشرقية (جبهة الاهواز) ، ويبدو ان هناك مساعدا آخر هو محمد بن يحيى بن سعيد الكرنبائي او الكرماني [٦٧] . فضلا عن هذا فان هناك عددا من الاشارات التي يستفاد منها على ان لكل من علي بن ابان وسليمان بن جامع عدد من القواد ويشرفون على عدد من الجنـود منهم مثلا : عمير بن عمـار [٦٨] ، والصقر بن الحسين [٦٩] ، وجعفر بن محمد [٧٠] ، وريـاح القندلي [٧١] ، وابو النـداء [٧٢] ، وعبدالله المذوب [٧٣] ، والزنجي بن مهربان [٧٤] ، ولؤلؤ [٧٥] ، وابو دلف [٧٦] ،

---

(٦٥) م ١٩٧٥/٣
(٦٦) م ١٨٩٩/٣ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤
(٦٧) م ٢٠٦٨/٣ ـ ٢٠٦٩ ، ٢١١١
(٦٨) م ١٨٩٩/٣
(٦٩) م ١٩٢٢/٣ ـ ١٩٢٣
(٧٠) م ١٩٢٣/٣
(٧١) م ١٩٠١/٣
(٧٢) م ١٩٦٦/٣
(٧٣) م١٩٢٥/٣
(٧٤) م ١٩٢٦/٣
(٧٥) م ١٩٥٧/٣
(٧٦) م ١٩٥٧/٣

ومنتاب [٧٧] ، ونصر السندي [٧٨] ، وهؤلاء كانوا تابعين لسليمان بن جامع واحمد بن مهدي الجبائي في البطائح . ومن القواد التابعين لعلي ابن ابان في الأهواز محمد بن يحيى [٧٩] بن سعيد الكرماني او الكرنبائي ، واحمد البرذعي [٨٠] ، ويحيى بن خلف[٨١] النهربطي ، وابرون [٨٢] ، وفرج المكنى بابي صالح [٨٣] ، واحمد الزرنجي [٨٤] ، وانكلويه[٨٥] ، وجعفروية[٨٦] . من هذا كله يبدو ان الترتيب العسكري عند الزنج كان بصورة عامة يشابه بقية الجيوش الاسلامية بتقسيمها المعتاد الى امير وقائد ونقيب وعريف وجنود ، فالأمير له عشرة قواد ومائة نقيب والف عريف ، والقائد له الف جندي وعشرة نقباء ومائة عريف ، والنقيب له مائة جندي وعشرة عرفاء ، والعريف له عشرة جنود . علما بأنه لم ترد اشارات صريحة عن تعداد الجنود الذين كانوا يتبعون الامير او القائد او النقيب ... الخ عند الزنج . ومع هذا واعتمادا على رواية الطبري كان علي بن ابان يشرف على جيش قوي يقدر بثلاثين الف [٨٧] مما قد يفهم منها ان عليا كان امير الامراء ، وكذلك ترد رواية تفيد بأن ابراهيم بن جعفر الهمداني كان قائدا على جيش تعداده ٤٠٠٠زنجي [٨٨]. ولكن في المقابل يوجد عدد من الاشارات التي يتكرر فيها لقب قائد وعلى

---

(٧٧) م ١٩٨١/٣
(٧٨) م ١٩٥٦/٣
(٧٩) م ١٩١٠/٣ ، ١٩٧٥
(٨٠) م ١٩٩٩/٣ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٤٢ ، ابن الاثير ج٦ ص ٣٣ — ٣٤
(٨١) الطبري م ١٨٧٥/٣
(٨٢) ن.م. م ١٩٣٤/٣
(٨٣) م ١٩٣٤/٣
(٨٤) م ١٩٣٨/٣
(٨٥) م ١٩١٣/٣ ، ١٩٣٣ — ١٩٣٤
(٨٦) م ١٩٣٤/٣
(٨٧) م ١٩١٠/٣ ، ١٩٧٤ — ١٩٧٥
(٨٨) م ١٩٩٠/٣

عدد قليل أقل بكثير من الرقم السابق (٤٠٠٠) ، فيقول الطبري ان صاحب الزنج كافأ في احدى المرات زنجيا يسمى قاقوية بأن جعله قائدا على مائة من السودان [٨٩] ، ولعل المقصود بذلك نقيب وليس قائـدا بالمعنى المعروف آنذاك في الجيوش الاسلامية . كما انه وردت روايـة اخرى تفيد بأن مصلحا احد قواد الزنج كان له عرفاء تحت امرته[٩٠] . والملاحظ بصورة عامة ان هذا الترتيب العسكري لم يكن يراعى بدقة او لم يكن مستقرا ودائميـا ففي حوادث سنـة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م مثلا انتخب صاحب الزنج ٥٠٠٠ من الزنوج وجعلهم تحت قيادة المهلبي وكان فيهم حسبما تشير الرواية مائتين قائدا [٩١] .

المعروف ان دعوة علي بن محمد قد تركزت في منطقة البصرة لوجود اعداد غفيرة من الزنوج وغيرهم العاملين في الارض وبذلك فانهم شكلوا العمود الفقري للتركيب الاثنولوجي للجيش . وكان هؤلاء العبيـد يستوردون من جهات عدة من افريقيا [٩٢] من زنجبار والحبشة وساحل افريقيا الشرقية ومناطق من افريقيا الداخلية لاغراض انتاجية . فكـان عملهم في منطقة البصرة يتركز على كسـح السباخ وتجميع الامـلاح وشق الانهار والترع والزراعة ، ثم كانوا يعملون على شكل جماعـات كبيرة وصغيرة يتراوح تعدادها بين ٥٠٠ ـ ٥٠٠٠ زنجي[٩٣] . وكانوا يعيشون احوالا اجتماعية واقتصادية ونفسية وصحية تعيسة ، الامر الذي ساعد صاحب الزنج ان يبشر بدعوته بين صفوفهم . وكما سبق ذكره ان هؤلاء الزنوج لم يكونوا جنودا او ممن لهم خلفية عسكرية ولكـن صاحب الزنج وأصحابه الستة بذلوا الكثير من أجل تنظيمهم وتوجيه قدراتهم وقابلياتهم واستغلال سوء اوضاعهم واستيائهم فصاروا بمرور

---

(٨٩) م ٣/١٧٦٤
(٩٠) م ٣/١٨٦١
(٩١) بن الاثير : الكامل جـ ٦ ص ٣٣
(٩٢) د. فيصل السامر : ثورة الزنج (بيروت ١٩٧١) ص ٢٢
(٩٣) ن. م. ص ٢٨

الزمن العنصر البارز والكبير في الجيش • وهم كما صنفهم الدكتور السامر اصناف متعددة منهم مثلا الغلمان الشورجيون الذين كانوا يعملون في الشورج أي الملح ، والقرماطيون ، وهؤلاء أيضا كانوا يعملون بالشورج وكانوا يعرفون العربية ، والفراتية وكانوا يعملون في قرى فرات البصرة ، والنوبة ، والزنوج الذين لم يكن يعرفون اللغة العربية ، والغلمان العاملون لحساب التمارين (٩٤) والدباسين • ومما هو جدير بالذكر ان النجاحات الباهرة التي احرزها هؤلاء الزنوج في حروبهم ضد جيش العباسيين المدرب والمنظم يعد خير دليل على مدى تحمسهم واندفاعهم • كما ان معرفتهم الدقيقة لجغرافية المنطقة الجنوبية من العراق تعد عاملا مساعدا آخر في معاركهم ضد جيش العباسيين المتكون من ابن سمعان ، الى ثلاث جبهات • وتم دخول البصرة من ثلاثة أوجه من الاتراك ، لذلك نرى الزنج قد استخدموا استراتيجية عسكرية وخططا عسكرية لم يكن للاتراك دربة عليها وكفاية كما هو الحال مثلا بخطة نصب الكمائن في الانهار والترع وبين الاحراش كما سيأتي ذكره .

ومع هذا فان ما مر لا يعني بأن الجيش كان مقتصرا على الزنوج فقط بل ، وحسبما اورده الطبري صراحة ، ان هناك عنصر البيضان الى جانب السودان • ففي احدى الروايات التي يرجع تاريخها الى سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م يذكر الطبري والصفدي ان عدد من وافى الموفق من جيش الزنج يبلغ ٥٠٠٠ رجل من ابيض واسود (٩٥) ، كذلك الرواية التي تفيد بأن منصور بن جعفر ابن دينار الخياط انتصر على علي بن ابان في الأهواز « وقتل من البيضان والزنج خلقا (٩٦) كثيرا » • كما ويتردد ذكر اسماء عدد من الشخصيات العرب وعدد من القبائل العربية المشاركة

---

(٩٤) ن • م • ص ٣٤ — ٣٧

(٩٥) الطبري م ١٨٦٠/٣ ، ١٩٩٣ ، الصفدي : مخطوط الوافي بالوفيات ورقة (١٤٢) ب

(٩٦) الطبري م ١٨٦٠/٣ • عن تركيب الجيوش الاسلامية انظر (Djaysh) في El. (2)

في جيش صاحب الزنج منهم على سبيل المثـال : علي بن ابان المهلبي والخليل بن ابان ومحمد بن ابان ومحمد بن سلـم وسليمان بن موسى ومحمد بن الحارث العمي واسد بن معلى بن اسد العمي ، ومحمد بن ابراهيم ومحمد بن يزيد الدارمي وجعفر بن احمد (٩٧) وغيرهم من اسماء القواد ومؤيدين لصاحب الزنج • فالعمي مثلا يرجع نسبه الى بني العم ابن مره بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة ودخلوا في قبيلة تنوخ بالحلف واستوطنوا البصرة منذ زمن ولاية ابي موسى الاشعري (٩٨) (١٧ — ٢٩ / ٦٣٨ — ٦٤٩) • والدارمي حسبما يقول ابن دريد يرجع الـى عبدالله بن دارم الذين كانوا بهجر ثم قدموا البصرة مع بني عبدقيس فسموا بالهجريين (٩٩) ، كما ان هناك بطنا كبيرا لقبيلة بني تميم العدنانية يدعى بنو دارم بن مالك (١٠٠) بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم • ومن القبائل العربية الاخرى ورد ذكر بنو ضبيعة والراجح انهم بنو ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل • وقد ذكر كل من السمعاني وابن الاثير وياقوت ان بني ضبيعة سكنـوا محلة بالبصرة اتخذت اسمهم على الرغم من ان ياقوت الحموي قد وقف حائرا بين بني ضبيعة بن قيس أو بني ضبيعـة بن نزار • ولكنه يعود فيعلق على ان الاولى أرجح لأنها أكثر وأشهر (١٠١) • وبنو كحل بن لجيم بن صعب بن

---

(٩٧) انظر : الطبري م ١٧٤٧/٣ ، ١٧٦٠ ، ١٩٢٥ ، ٢١١١ ، ٢٠٦٩ ، ١٩٩٩ ، ١٩٢٣ ، ١٨٤٨ ، ١٩٧٩ ، الطوسي : الفهرست ١٩٦٠ ص ٥٤ — ٥٥ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٣٢ .

(٩٨) انظر الطوسي : الفهرست ص ٥٤ — ٥٥ ، النجاشي : الرجال ص ٧٥ ، ٨٢ — ٨٣ القهبائي : مجمع الرجال (اصفهان ١٣٨٤ هـ) ص ٨٨ ، ٨٩

(٩٩) ابن دريد : الاشتقاق (١٩٥٨) ص ٢٣٤

(١٠٠) السمعاني : الانساب (ليدن ١٩١٢) ص ٢١٨ أ ، ابن الاثير : اللباب في تهذيب الانساب (القاهرة ١٣٥٧ هـ) ج١ ص ٤٠٤

(١٠١) السمعاني : ص ٣٦٠ أ — ب ، ابن الاثير : اللباب ج٢ ص ٧٠ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان (ليبزج) ج٣ ص ٤٦٤ .

علي بن بكر بن وائل وينسب اليهم كثير من الأشخاص من بينهم ابو الاشعث المقدام العجلي من أهل البصرة ولبني عجل مواضع عدة تقع على الطريق من البصرة [١٠٢] الى مكة • كذلك بنو تميم وهم قبيلة عدنانية مشهورة وتشكل العمود الفقري لسكان البصرة ، كما أن القبيلة لعبت دورا بارزا في حياة البصرة السياسية [١٠٣] والاجتماعية • وبنو أسد وهؤلاء حسبما يعتقد انهم بنو اسد بن شريك بطن من قبيلة الازد القحطانية وليسوا ببني اسد بن خزيمة العدنانية • وكانت لهم خطة بالبصرة يقال لها خطة بني اسد بينما يقول ، ابن دريد في الاشتقاق والسمعاني ، ليست بالبصرة خطة لبني اسد بن خزيمة [١٠٤] • وبنو باهلة في البطائح ويرجع نسبهم الى باهلة بن اعصر بن سعد بن قيس عيلان من مضر ، ويبدو ان جماعة منهم قد سكن البصرة اذ يقول السمعاني ان ابا بكر محمد بن حيان الباهلي من أهل البصرة [١٠٥] • كما ورد ذكر عشيرة البلالية الذين كانوا في البطيحة ، ومما يجدر ذكره ان البلالية تعد من القبائل الهامة في البصرة وقد كانوا والسعدية من أبرز اعداء صاحب الزنج ، ويرجع البلالية الى ربيعة [١٠٦] • كما وردت اشارة الى طائفة من الاعراب [١٠٧] في الجيش • واشترك في جيش صاحب الزنج من اهالي

---

(١٠٢) السمعاني ص ٣٨٥ أ ، ابن الاثير ج٢ ص ١٢٤ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥٠ ، ٨٧٥ ، ٩٤٦ ، ج٤ ص ٤٢٧ ، ٩٥٤

(١٠٣) نظر د. صالح احمد العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري (١٩٥٣) ص ٤٦ — ٤٧ ، ٢٩٠ — ٢٩١ ، كذلك Ch. Pellat «Le Milieu Basrien et la Formation de Gahiz», Paris 1953 p. 24; Levi Pella Vida (Tamim) in El. (1)

(١٠٤) السمعاني : الانساب ص ٣٢ أ ، ابن الاثير : اللباب ج١ص٤١

(١٠٥) الطبري م ١٨٩٩/٣ ، ١٩٠٢ ، السمعاني ص ٦٤ ب

(١٠٦) انظر الطبري م ١٩٠١/٣ ، المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن ١٩٠٦) ص ١٢٩ — ١٣٠ ، A.J. Naji : Basra, unpublished Ph. D. thesis 1970, p. 324.

(١٠٧) الطبري م ١٨٤٨/٣ — ١٨٤٩ •

قرية جبى في الأهواز وقيل من قرى البصرة . وقد انتسب عدد من الشخصيات العربية الى جبى منهم ابو علي محمد بن عبد الوهاب وابنه ابو هاشم وابو علي صاحب مقالات المعتزلة وخالد بن حمران بن ابان وهو متكلم أيضا وشيخ المعتزلة [١٠٨] . ويبدو ان هناك عددا كبيرا من الجبائين في جيش الزنج ، ففي رواية للطبري يستفاد منها بأن لصاحب الزنج جيشا معسكرا في الدور وابرسان يتألف من الف وخمسمائة من الزنج والجبائيين[١٠٩] . ولما كنا في صدد الحديث عن التركيب الاجتماعي لجيش صاحب الزنج يعترضنا تساؤل يتعلق بمدى مشاركة أي من العناصر الاجنبية السائدة في الجيش العباسي آنذاك ، أي الاتراك والديلم ، والحقيقة اننا لم نستطع العثور على معلومات كافية توضح ذلك ما عدا اشارة واحدة اوردها الطبري تفيد بأنه عندما قتل تكين البخاري ، احد القواد الاتراك المشهورين في جيش العباسيين ، في الاهواز سنة ٢٦٥ هـ ٨٧٨ م انحازت فرقة من عسكره الى جيش صاحب الزنج [١١٠] . ولكننا لا نعرف فيما اذا ظلت هذه الفرقة الاجنبية تحارب في صفوف جيش صاحب الزنج ام لا ؟ وهناك ايضا اشارة عن مشرق ورفيق وهما غلامان تركيان دخلا دعوة علي بن محمد حينما كان في بغداد واصبحا من رجاله الستة ومن قواده المشهورين [١١١] . كذلك اورد الطبري في حوادث سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ رواية جاء فيها ان محمد بن عبيدالله ابن ازاذ مرد الكردي متقلد الاهواز قد انضم وبرفقته (٣٠٠) فارس مع علي بن ابان المهلبي قائد صاحب الزنج في الأهواز [١١٢] . غير ان هذا لا يعني انهم استمروا يحاربون الى جانب المهلبي اذ ان الطبري

---

(١٠٨) السمعاني ص ١٢١ أ ، ابن الاثير : اللباب ج١ ص ٢٠٨

(١٠٩) الطبري م ١٩٦٠/٣

(١١٠) الطبري م ١٩٣٥/٣

(١١١) ن. م. م ١٧٤٦/٣ – ١٧٤٧ ، ابن الاثير ج٥ ص ٣٤٧

(١١٢) الطبري م ١٩٠٩/٣

يسعفنا برواية اخرى تفيد بأن محمد بن عبدالله هذا كان قد خدع المهلبي وأراد من انضمامه اليه ان يحقق مآربه [113] .

ان الحديث عن العناصر المكونة لجيش صاحب الزنج يجرنا الى موضوع آخر لا يقل أهمية ذلك المتعلق بحجم الجيش وتعداده . وقبل كل شيء لا بد ان نعترف بأنه من الصعب جدا اعطاء ارقام محددة ودقيقة لذلك الجيش كما هو الحال في الصعوبة التي تواجه الباحث في بقية الجيوش الاسلامية آنذاك ، ولكننا سنقوم بمحاولة لتتبع الحركة منذ أيامها الاولى كي نلمس التطور الذي طرأ على حجم جيشها . بادىء ذي بدء يمدنا الطبري برواية مهمة أخذها عنه أيضا ابن ابي الحديد تتصل بعدد الغلمان الشورجين العاملين بجمع الشورج في منطقة فرات البصرة فيقول انهم كانوا ١٥،٠٠٠ غلام [114] ، كما ان هناك رواية يفهم منها ان الزنوج كانوا يعملون في القرى على شكل كتل صغيرة وكبيرة يبلغ حجم بعضها ٥٠٠ [115] الى ١٠٠٠ غلام . غير انه لا يمكن الاعتماد على هاتين الاشارتين في تقديم أية احصائية لعدد العبيد العاملين في منطقة البصرة ، غير انهما وكذلك من خلال مجريات الاحداث العسكرية تمكننا القول بأن اعدادهم كانت ضخمة . ففي تاريخ الرسل والملوك والمصادر التاريخية الاخرى روايات عديدة تشير الى ارقام او اعداد المشاركين في الحروب يمكن الاستعانة بها كما يمكن الاستعانة بالروايات الخاصة بعدد الذين استأمنوا من الزنوج الى الموفق على أثر انتصاراته الحربية ، فكانت حصيلة هذا كله احصائيات تقريبية لجيش صاحب الزنج . فضلا عن هذا كله فان الطبري وعدد من المؤرخين يرددون تعبيرات عامة لا يحدها عدد ولكنها تتضمن اشارات عن ضخامة الجيش ، ومن امثال هذه

---

(١١٣) م ١٩٠٩/٣ – ١٩١١

(١١٤) م ١٧٥٠/٣ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣١٣

(١١٥) الطبري م ١٧٤٩/٣ – ١٧٥٠ ، د. فيصل السامر ص ٢٨

التعبيرات : « خلق كثير » او « جمع كثير » او « جمع[116] كثيف » .
فاعتمادا على الطبري ان صاحب الزنج بعد ان نزل منطقة فرات البصرة مبشرا بدعوته قام بجمع العبيد من الوكلاء فاجتمع حوله حوالي ٨٠٠ رجل ثم تزايد بسرعة حتى بلغ حوالي ٢٠٠٠ رجل في الايام الاولى من الحركة[117] ، وهناك عدد من الشواهد العسكرية التي تؤيد ذلك . ففي احدى الروايات يذكر الطبري ان عليا وجه طليعة للتعرف عن خبر البصريين وجيش العباسيين ثم امد الطليعة بالف رجل[118] . وفي رواية اخرى تفيد ان الزنج اندحروا في احدى المعارك ضد البصريين فتفرقوا ولم يبق منهم الا ٥٠٠ رجل لكن العدد تضاعف في اليوم الثاني فوصل الى ١٠٠٠ رجل[119] . وفي سنة ٢٥٧ هـ ٨٧٠ م عند دخول الزنج مدينة البصرة ارتفع العدد كثيرا حتى ان الجيش المهاجم قد قسم ، حسبما شاهده زهران والمربد[120] وبني حمان وهي محلات مشهورة في البصرة . ويقول ابن ابي الحديد ان عليا سار الى البصرة بجيش يبلغ الـ ٦٠٠٠ رجل[121] . ومع هذا فانه من الممكن القول ابتداءا من سنة ٢٥٧ هـ فصاعدا يأخذ الطبري ترديد عبارات تدل على تضخم جيش الزنج بشكل أكبر مثلا يذكر ان علي بن ابان كان مقيما في قرية جبي بجمع كثير من[122] الزنج،وكان للزنج في قرية بالبطيحة تسمى الصينية جيش كثيف[123] .. الخ ،

(١١٦) الطبري م ٣/١٨٥١ ، ١٨٦٢ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٣ ، ١٩٨٥ ، ٢٠٠١ ، ٢٠٠٦ ، ٢٠١٠ ، ٢٠٦٧ ، ٢٠٦٩ ، ٢٠٧١ ، ٢٠٨٣ ، ٢٠٨٨

(١١٧) ن.م. ٣/١٧٤٩ ، ١٧٥١ ، ١٧٦٧ ، ١٧٧٣ ، ابن الاثير ج ٥ ص ٣٤٨ ، العيون والحدائق لمؤلف مجهول ، تحقيق نبيلة عبد المنعم (١٩٧٢) ج ٤ ق١ ص٥٠

(١١٨) الطبري م ٣/١٧٦١ — ١٧٦٢
(١١٩) ن. م. م ٣/١٧٨١
(١٢٠) م ٣/١٨٥٢ — ١٨٥٣

(١٢١) شرح نهج البلاغة مجلد ٢ ص ٣١٤ ؛ د. السامر : ثورة الزنج ص ١٠٣
(١٢٢) الطبري م ٣/١٨٦٢
(١٢٣) م ٣/١٩٥٦

كما نعثر ابتداءا من تلك السنة على روايات لاعداد كبيرة تختلف عن تلك التي سبق ذكرها • المعروف كما تقدم ذكره ان صاحب الزنج فتح بعد ان ضم البصرة والقرى المجاورة لها جبهتين جديدتين الاولى في البطائح والثانية في الأهواز فضلا عما تتطلبه جبهة البصرة من قوة عسكرية ، فترد في احدى الروايات ان الزنج وضعوا كمينا لابي العباس بن الموفق في برتمرتا ـ موضع في البطيحة ـ يقدر بـ ١٠٫٠٠٠ رجل وفي قس حثـا ـ موضع بالبطيحة أيضا ـ يقدر بـ ١٠٫٠٠٠ [١٢٤] رجل ايضا ، فكان بذلك مجموع الكمين فقط ٢٠٫٠٠٠ رجل • وللطبري رواية اخرى تفيد بان صاحب الزنج استدعى سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م علي بن ابان من الاهواز وكان هذا مقيما بحوالي ٣٠٫٠٠٠ [١٢٥] رجل • ويحتمل ان سليمان بن جامع كان ايضا مقيما بالبطيحة بمثل ذلك العدد من الجنود ، علما بأن سليمان قد تسلم عددا من الامدادات العسكرية [١٢٦] من صاحب الزنج في أوقات مختلفة • فضلا عن هذا قمت باحصاء ما اورده الطبري عن اعداد الزنوج والآخرين المستأمنين [١٢٧] الى ابي العباس وأبيه الموفق ان كان ذلك في الاهواز او البصرة فكان حوالي ١٨٫٠٠٠ رجل عدا التعبيرات غير المحدودة بعدد من امثال : واسروا « بشرا كثيرا [١٢٨] » أو فانضم الى

---

(١٢٤) م١٩٥١/٣ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٢٤

(١٢٥) الطبري م ١٩٧٤/٣ ، العيون والحدائق ج٤ ق ١ ص ٩٥ ، ابن الاثير ج٦ ص ٣١

(١٢٦) الطبري م ١٩٢٣/٣ ، ١٩٢٥ ، ١٩٥٣ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٢٣

(١٢٧) فمثلا استأمن في الاهواز ١٠٫٠٠٠ رجل ، وفي البصرة سنة ٢٦٧ هـ ٦٠٠٠ رجل ، وفي سنة ٢٧٠ هـ استأمن حوالي ١١٫٠٠٠ رجل انظر الطبري م ١٩٧٧/٣ ، ١٩٨٠ ، ١٩٩٣ ، ٢٠٩٤ ، ٢٠٨٨ ، ٢٠٩٤ ، كذلك ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣٤٠ يذكر ان مجموع ما استأمن في سنة ٢٧٠ هـ ٧٠٠٠ رجل ، الصفدي : الوافي ورقة ١٤٢ (ب) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٤٤

(١٢٨) الطبري م ١٩٦٣/٣

الموفق خلق كثير من الزنج (١٢٩) وغيرهم ، ويذكـر ابن كثير ان عـدد المستأمنين من الزنج الى الموفق بلغ(١٣٠) ٥٠,٠٠٠ رجل ٠

أما فيما يتعلق الامر بمنطقة البصرة فلقد كان لصاحب الزنج جيش مرابط في المختارة للدفـاع عنها ضد هجوم الموفق وفضلا عن ذلك ثلاث قواعد عسكرية في ثلاث مناطق استراتيجية غرضها كما يعتقد مجابهـة هجوم جيش العباسيين من جهة وتأمين وصول الامدادات والتجارات مـن جهة اخرى ٠ وكانت الاولى في موضع حيان روذان تحت اشراف القائد ابراهيم بن جعفر الهمداني وتحت امرته جيش يتكون من ٤٠٠٠ رجـل والاخرى في موضع في نهر القندل وتحت اشراف محمد بن ابان المهلبي وتتكون من ٣٠٠٠ رجل والثالثة في ابرسان وتتكون من ١٥٠٠ رجل من الزنج والجبائيين (١٣١) ٠

ومما يذكر ايضـا انه بعـد انكسار الزنج في البطائح والأهواز انسحبت جيوش هاتين الجبهتين نحو المختارة فتضخمت بذلك الجيوش المدافعة عن المدينة والمتبقية لصاحب الزنج ٠ ففي يوم السبت لاربع عشرة ليلة خلت من شعبـان سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م سار الموفق نحو المختارة بحوالي ٥٠,٠٠٠ رجـل بينما كان عـدد جيش الزنـج كما يقـول الطبـري ٣٠٠,٠٠٠ (١٣٢) رجل ٠ وعلى الرغم مما في هذه الرواية من مبالغة واضحة

---

(١٢٩) ن٠ م٠ م ١٩٨٥/٣

(١٣٠) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص ٤٤

(١٣١) ميان روذان : جزيرة تحت البصرة وفيها عبادان وفيها نخل وعمارة وقرى (ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٧٠٨-٧٠٩ اما نهر القندل فهو نهر في البصرة يأخذ من شط العرب الى الجنوب من نهر ابي الخصيب ، والقندل موضع بالبصرة على ذلك النهر . انظر سهراب : عجائب الاقاليم السبعـة الى نهاية العمارة (ليبزج) ص ١٣٦ ، ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص ١٨٣ ، ٨٤٣ . وعن الرواية انظر الطبري م١٩٩٠/٣

(١٣٢) الطبري م ١٩٨٦/٣ - ١٩٨٧ واورد الرواية ايضا العيون والحدائق ج٤ ص ٩٨ ، ابن الاثير ج٦ ص ٣٢ ، ابن ابـي الحديد مجلد ٢ ص ٣٣٠ ، ابن العماد الحنبلي : شـذرات الذهب ج١ ص ١٥٢

غير انها قد تساعدنا على تثبيت الفكرة المتمثلة بضخامة جيش صاحب الزنج ، ومن المحتمل ان يكون الرقم ٣٠٫٠٠٠ رجل أو دون ذلك بدلا من ٣٠٠٫٠٠٠ رجل •

لم ترد اشارات تتعلق بتقسيمات الجيش العسكرية ولكن هنالك روايات متعددة عن عدد من الاشخاص الذين كانوا يحتلون مركز القيادة، ويبدو ان اعداد هؤلاء كان كثيرا فمما يذكر انه في سنة ٢٦٥ هـ ٨٧٨ م قتل ابن ليثويه قائد العباسيين في ناحية جنبلاء حوالي ٤٧ قائدا وخلقا لا يحصى كثرة [١٣٣] من الزنج • ويذكر الطبري في رواية اخرى ان صاحب الزنج أمر المهلبي في شوال من سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م بالهجوم على الموفق بجيش عدته ٥٠٠٠ رجل بينهم نحو من ٢٠٠ [١٣٤] قائد ، والاعداد المذكورة تدل بحد ذاتها على كثرة عدد جيش صاحب الزنج • واعتمادا على عدد من الروايات يمكن القول بأن الجيش لم يكن مقصورا على الرجالة بل هناك فرسان أيضا فقد ورد في سنة ٢٥٨ هـ ٨٧١ م ان يحيى بن محمد كان في الاهواز في ١٢٠ [١٣٥] فارسا ، وانضم الى علي بن ابان المهلبي في الاهواز حوالي ٣٠٠ فارس [١٣٦] من الاكراد • واستأمن في سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م جمع كثير من الفرسان وغيرهم من الزنج [١٣٧] للموفق • هذا فضلا عن وجود قواد متخصصين في المعارك النهرية وقيادة السميريات امثال احمد بن مهدي [١٣٨] الجبائي ، والصقر [١٣٩] بن الحسين ، والزنجي بن مهربان الملقب بالاشتيام (أي المشرف على شئون [١٤٠] السفن والشذورات) • كما ويظهر من المعلومات التي أوردها الطبري في احدى الروايات ان هنالك تخصصات فرعية اخرى في جيش صاحب الزنج تستند

---

(١٣٣) الطبري م ١٩٢٨/٣
(١٣٤) ن٠ م٠ م ١٩٩٤/٣
(١٣٥) ن٠ م٠ م ١٨٦٦/٣
(١٣٦) ن٠ م٠ م ١٩٠٩/٣
(١٣٧) ن٠ م٠ م ٢٠٠١/٣
(١٣٨) ن٠ م٠ م ١٨٩٩/٣ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤
(١٣٩) م ١٩٢٢/٣
(١٤٠) لسان العرب مادة شتم

على نوعية السلاح المستعمل كالقاذفين بالمقاليع [١٤١] على الاعداء والرماة بالعرادة والرماة بالمنجنيق ورماة السهام ان كان من القسي الناوكية أو قسي الرجل والرماة بالحجارة [١٤٢] . وهناك من هو مختص بالنعير والصياح [١٤٣] ، واشتركت النساء في العمليات الحربية اما بجمع الاجر وامداد [١٤٤] الرجال بها واما بتشجيع الرجال وحثهم على الاقدام في القتال [١٤٥] .

★ ★ ★

لقد هيأت الطبيعة الجغرافية للمنطقة الجنوبية من العراق ـ منطقة البصرة والبطائح ـ ظروفا استراتيجية ملائمة لتطبيق عدد من الاساليب التعبوية الهجومية والدفاعية من قبل الزنج أثناء معاركهم . ودون الخوض في دراسة السمات الجغرافية للمنطقة بالتفصيل فان السمة الاولى والواضحة هي كثرة الانهار والترع الصغيرة والكبيرة المتفرعة من نهر شط العرب حتى ان الاصطخري وابن حوقل اوردا رواية على الرغم من المبالغة الواضحة فيها تشير الى ان هناك ١٢٠ر٠٠٠ نهر تجري في جميعها الزوارق [١٤٦] . واشتهرت المنطقة ايضا بوفرة بساتين النخيل وغابات من القصب والاحراش وخاصة في منطقة البطائح . وكان لهؤلاء العاملين من العبيد في هذه

---

(١٤١) والمقلاع يتكون من كفة توضع فيها القذيفة المربوطة بثلاثة حبال تمسك من اطرافها د. جهادية القرغولي : التنظيمات الادارية والعسكرية ص ٢٦٩ .

(١٤٢) الطبري م ٣/٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤ . والقسي الناوكية اقواس كبيرة توضع على الاسوار ويصيب السهم الواحد منها عدة اشخاص . الطبري م ٣/١٩٨٢ ، الطرسوسي : تبصرة ارباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب (بيروت ١٩٤٨) ص٦

(١٤٣) الطبري م ٣/١٩٨٧

(١٤٤) ن. م. م ٣/١٧٨٤

(١٤٥) ن. م. م ٣/١٩٨٦ ـ ١٩٨٧

(١٤٦) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٨٠ ، ابن حوقل : صورة الارض ص ١٥٩ د. فيصل السامر : ثورة الزنج ص ١٩٣ ، كذلك ص ٩٦ ـ ١٠١

الأراضي معرفة دقيقة بالطرق والمسالك لذلك استطاعوا ان يستفيدوا من هذه الصفات باستعمال استراتيجية جديدة وناجحة كاسلوب نصب الكمائن او المهارة في المعارك النهرية في الوقت الذي لم يكن فيه الاتراك في جيش العباسيين على معرفة بجغرافية المنطقة فباءت الكثير من محاولات القادة الاتراك العسكرية لاحباط او عرقلة انتصارات الزنج بالفشل تماما كما هو الحال في الفترة البويهية . اذ ظهر في هذه الفترة عمران بن شاهين في البطائح ولم تستطع جيوش البويهيين من الديلم المشاة والاتراك الفرسان ان تكبح جماح حركته والقضاء على امارته . ويرجع سبب فشل الحملات العسكرية هذه الى عدم معرفة جيوش البويهيين بحرب المستنقعات والاحراش (١٤٧) .

وكما هو الحال في بقية الجيوش الاسلامية فان صاحب الزنج اعتمد ومنذ ابتداء أمر الثورة على امرين أولهما بث الجواسيس والاستفسار من القادمين عن بعض الامور الحربية عند الاعداء وثانيهما بالطلائع وارسالهم للتفقد على شئون عسكرية مختلفة عند العدو واخباره بها كي يستطيع تفاديها في ارساله الجيوش . ففي سنة ٢٥٥ هـ عندما دخل ريحان بن صالح دعوة علي بن محمد استفسر منه عن الاوضاع العسكرية للبصريين وعما اذا كان امره قد شاع في مدينة البصرة ، وسأله عن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية للغلمان العاملين في الشورج (١٤٨) . وتلمح رواية اخرى الى ان سيران بن عفو الله كان يأتي بالاخبار الى صاحب الزنج من مؤيديه في البصرة ، وتتناول تلك الاخبار اوضاع البصرة العامة . فقد سأله صاحب الزنج مرة عن الزينبي ، العدو الاول والمشهور لصاحب الزنج في البصرة ، وعن عدة أصحابه وعددهم فأخبره سيران بجيش الزينبي هذا والعناصر المكونة له واسم (١٤٩) قائده . واهتم صاحب الزنج ايضا بارسال الطلائع

---

(١٤٧) لكاتب المقالة بحث معد للنشر عن امارة عمران بن شاهين

(١٤٨) الطبري م ١٧٤٨/٣

(١٤٩) ن. م. م ١٧٦٧/٣

قبل البدء بالهجوم ، ففي سنة ٢٥٥ هـ ايضا وجه صاحب الزنج طليعة لمعرفة الموضع الذي نزل فيه البصريون فلما رجعا اليه بالخبر وجه جيشا عدده ٢٠٠٠ رجل المتمركز في سبخة على فوهة نهر برد (١٥٠) الخيار . وعلى الرغم من انه ليس هنالك معلومات توضح العدد الذي تتكون منه الطليعة لكن من الممكن القول بأنه قد يكون شخصا واحدا كما ورد في روايـة ترجع الى سنة ٢٥٥ هـ عندما وجه صاحب الزنج شخصا ليكون طليعة المتعرف على خبر البصريين ، ويقول الطبري انه اختاره « شيخا ضعيفا (١٥١) زمنا لئلا يعرض له » وهي اشارة واضحة تدل على بعد افق صاحب الزنج وذكاءه العسكري . ولم يقتصر هذا الاهتمام على صاحب الزنج فقط بل استعمل ايضا من قبل قواده . اذ يورد الطبري ان احمد بن مهدي الجبائي الذي كان في البطيحـة اعتاد ان يتوجـه في طلائع كل ثلاثـة ايام لمعرفة خبر جيش (١٥٢) العباسيين . وان علي بن ابان وجه في سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ م طلائع ليأتونه باخبار ابن ليثويه قائد العباسيين فجاءوه بخبر مفاده ان ابن ليثويه متوجه نحوه وان اوائل خيله قد وصلت قرية (١٥٣) الباهليين .

وبرع صاحب الزنج وقواده الآخرين برسم خطط لنصب الكمائن التي بسببها خسر العباسيون العديد من المعارك الحربية وهنالك أمثلـة عديدة توضح مدى تفنن هـؤلاء في استعمال هـذا الاسلوب الهجومي والدفاعي العسكري . ففي سنة ٢٥٥ هـ عندما جمع البصريون جيشا كثيفا لمهاجمة صاحب الزنج الذي كان مقيما على نهر سلطان ، وجه هذا احد قواده ليكون كمينا في غربي النهر وقائدا آخر ليكون كمينا في الجانب الشرقي منه ، كما امر علي بن ابان ان يلاقي القـوم فيمن معـه وأمره ان يستتر وأصحابه بتراسهم « ولا يثور اليهم منهم ثائر حتى يوافيهم القوم ويوموا

(١٥٠) م ١٧٦٢/٣ ، د. السامر : ثورة الزنج ص ١٠٤
(١٥١) م ١٧٦٩/٣
(١٥٢) م ١٩٥٢/٣
(١٥٣) م ١٩١١/٣

اليهم باسيافهم ، فاذا فعلوا ذلك ثاروا اليهم • وتقدم الى الكمينين : اذا جاوزهما الجمع وأحسا بثورة اصحابهم اليهم ان يخرجا من جنبتي النهر • ويصيحا بالناس »[١٥٤] • وفي سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ م عندما ضيق اغرتمش قائد جيش العباسيين على سليمان بن جامع في البطيحة نظم هذا كمينا وأمر قائد الكمين « الا يدع احدا من السودان يظهر لأحـد من أهل جيش اغرتمش ، وان يخفوا اشخاصهم ما قدروا ، ويدعوا القوم حتى يتوغلوا النهر الى ان يسمعوا اصوات طبوله ، فاذا سمعوها خرجوا عليهم وقصدوا اغرتمش »[١٥٥] • وفي الرواية التالية تفصيل دقيق لنصب كمين عملـه سليمان بن جامع واحمـد بن مهـدي الجبائي في البطائح سنة ٢٦٤ هـ ٨٧٧ أثناء حربهم ضد تكين البخاري قائد جيش العباسيين ، فقد عرض الجبائي على سليمان ان يتوجه بالسميريات لملاقاة جيش تكين ثم يتظاهر بالهرب ، وان ينصب سليمان كمينا في الصحراء « مما يلي ميسرة خيـل تكين ، وأمرهما ــ أي قواد الزنج ــ اذا جاوزهم خيل تكين ان يخرجوا ورائهم • فلما علم الجبائي ان سليمان قد احكم لهم خيله وأمر الكمين رفع صوته ليسمع اصحاب تكين بقوله لاصحابه : غررتموني واهلكتموني وقد كنت امرتكم الا تدخلوا هذا المدخل فأبيتم الا القائي وأنفسكم هذا الملقى الذي لا أرانا ننجو منه • فطمع أصحاب تكين لما سمعوا قوله وجدوا في طلبه وجعلوا ينادون : بلبل في قفص • وسار الجبائي سيرا حثيثا واتبعوه حتى جاوزوا الكمين وقاربوا عسكر سليمان وهو كامن من وراء الجدار في خيله وأصحابه ، فزحف سليمان فتلقى الجيش وخرج الكمين من وراء الخيل وثنى الجبائي صدور سميرياته الى من في النهر فاستحكمت الهزيمة عليهم من «الوجوه كلها • »[١٥٦] وكان الجبائي ينصب أنواعا اخرى من الكمائن لعرقلة تقدم جيش العباسيين ، فلقد « حفر آبارا فوق نهر سنداد وصير فيها سفافيد حديد وغشاها بالبواري واخفى مواضعها وجعلها

---

(١٥٤) م ١٧٨٤/٣ ، ابن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٣١٥ ، ابن الاثير ج ٥ ص ٣٤٩ ــ ٣٥٠ •

(١٥٥) الطبري م ١٩٠٥/٣ ، ابن الاثير ج ٦ ص ٩

(١٥٦) الطبري م ١٩١٨/٣ ــ ١٩١٩ ، ابن الاثير ج٦ ص ١٠٦ •

على سنن مسير الخيل ليتهور [١٥٧] فيها المجتازون » • وفي سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م رسم صاحب الزنج خطة كمين ضد جيش الموفق فاختار ٥٠٠٠ رجل اختفوا في آخر النخل مما يلي السبخة بينما عبر جماعة اخرى من أصحابه في الشذا والسميريات امام جيش الموفق لحربه « فاذا نشبت الحرب بينهم انكب من كان عبر من قواد الخبيث فصار الى السبخة على عسكر ابي احمد وهم غارون مشاغيل بحرب من بازائهم [١٥٨] » •

ونظرا لكثرة انهار المنطقة فقد شكلت المعارك النهرية دورا بارزا في الحروب التي نشبت بين الزنج والعباسيين سواء كان في منطقة البصرة او منطقة البطائح • ففي البطائح على سبيل المثال كان هناك قائد متخصص ومشرف على السميريات والشذوات والحروب النهرية وهو الجبائي الى جانب القائد الاعلى للمشاة والرجالة سليمان بن [١٥٩] جامع • ولعبت حرب الزوارق النهرية دورا اساسيا في انتصارات جيش صاحب الزنج في البطيحة بشكل خاص لذلك عند قراءة تاريخ الطبري وغيره من المصادر يتردد ذكر انواع متعددة وارقام كبيرة للزوارق الحربية التي كان يمتلكها جيش صاحب الزنج ، وبعض تلك الزوارق لها مواصفات معينة يتطلبها الظرف العسكري آنذاك ، ففي رواية طريفة تعود الى سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ طلب سليمان بن جامع امدادات من الزوارق السميريات من صاحب الزنج على ان يكون لكل سميرية اربعون مجذاف ، فزوده صاحب الزنج باربعين سميرية ولكل واحدة مقاتلان ومع ملاحيها السيوف والرماح والتراس [١٦٠] • وفي السنة ذاتها امر صاحب الزنج بعمل شذوات فعمل له خمسين شذاة رتب بها الرماة وأصحاب [١٦١]

---

(١٥٧) الطبري م ٣ / ١٩٩٤

(١٥٨) م ١٩٩٤/٣

(١٥٩) م ١٨٩٩/٣ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤

(١٦٠) م ١٩٥٣/٣

(١٦١) م ١٩٩٦/٣

الرماح . ولقد تمرس الزنج على حرب الانهار حتى انهم تفننوا في الهجوم النهري على جيش العباسيين فمما يرويه الطبري عن بهبوذ بن عبد الوهاب وهو احد القواد المشهورين انه قام بهجمات كثيرة على العباسين بالسميريات الخفاف فكان « يخترق الانهار المؤدية الى دجلة فاذا صادف سفينة لأصحاب الموفق أخذها فأدخلها النهر الذي خرج منه فان تبعه تابع حتى توغل في طلبه خرج عليه من النهر قوم من أصحابه قد اعدهم لذلك فاقتطعوه (١٦٢) وأوقعوا به» ، وكان بهبوذ مثارا للفزع في جيش العباسيين لهجماته السريعة والمتكررة حتى انهم أخذوا يتحذرون منه « فلما كثر ذلك وتحرز منه ركب شذاة وشبهها بشذوات الموفق ونصب عليها مثل اعلامه وسار في دجلة فاذا ظفر بعزة من أهل العسكر أوقع بهم فقتل واسر ويتجاوز الى نهر الابلة ونهر معقل وثبق شيرين ونهر الدير فيقطع فيقطع السبل (١٦٣) » .

ولما كنا بصدد المعارك النهرية لعله من المناسب أن نذكر بضعة كلمات عن أنواع الزوارق التي كان يستعملها الزنج ، ولحسن الحظ فقد ورد ذكر بعض هذه الزوارق (١٦٤) والسفن خلال التعرض للحروب والمعارك التي قام بها الزنج منها : السميريات (١٦٥) والحربيات (١٦٦) ،

---

(١٦٢) م ٣/٢٠٢١

(١٦٣) م ٣/٢٠٢٢

(١٦٤) انظر عن الزوارق والسفن في التاريخ الاسلامي
Kindermann, H. Schiff in Arabischen. Zwickau 1934, p. 2, 4, 5, 10, 13.
حبيب الزيات : السفن والمراكب في بغداد في عهد العباسيين مجلة لغة العرب (مجلد ٥/١٩٢٧) ص ٤٦١ ـ ٤٦٥

(١٦٥) انظر مادة (سمر) لسان العرب . وهي ضرب من السفن تستعمل للحرب وغير المجالات .

(١٦٦) ورد ذكرها عند الطبري على انها تستعمل للحرب . انظر حبيب الزيات : معجم المراكب والسفن في الاسلام ، بيروت ١٩٥٠ ، ص ٣٢٧

والمجونحـات [١٦٧] والشذوات [١٦٨] ، ويبدو ان هناك انواعا من هـذه الشذوات فلقد ورد ذكر الشذا الجنابيات [١٦٩] • ومن السفن الحربية الاخرى الصلغة وهي عبارة عن [١٧٠] سفينة كبيرة ، ولعل الصلغة كانت تستعمل في حمل الحبوب اضافة الى استعمالها الحربي فلقد وردت اشارة الى صلغة كانت تحمل [١٧١] الشعير • وكذلك هنالك الزوارق [١٧٢] وهي ضرب من السفن الحربية ، والحراقات وهي السفن التي فيها مرامي نيران تقذف على العدو [١٧٣] ، والزلالات [١٧٤] • وجاء ذكر نوع من السفن استخدم لحمل الخيول يسمى الرقيات والرقية ضرب من الزوارق التي كانت تصنع من الخوص وخشب النخيل ولها مقدمة [١٧٥] طويلة •

وتظهر الروايات التي أوردها الطبري وغيره ان صاحب الزنـج كان يمتلك عددا كبيرا من الزوارق الحربية سواء كانت تلك التي أسرها مـن جيش العباسيين او التي كانت تصنع في الابلة والمختارة • ولقـد قست

(١٦٧) هناك الجوانحيات وهي سفن ذات جآجي أي صدور سميت بذلك لانحنائها وميلها ولجوايح فيها كالاضلاع مما يلي الظهر انظر معجم المراكب ص ٣٢٩ انظر الطبري م ٣/١٧٦٠

(١٦٨) استعملت الشذاة في الحروب وكانوا يضعون بها آلات الحرب والسلاح والرماة ويعملون لها مظلات من خشب تغلف بجلود الجاموس وتطلى هذه الجلود بأنواع الادويـة كي يمنـع احتراقها . خالد جاسم الجنابـي : تنظيمـات الجيش في العصر العباسي الثاني (اطروحة) ص ٦٢ ، ومن الشذوات في جيش الزنج انظر الطبري م ٣/١٨٦٠ ، ١٨٧٨ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٦ ، ١٩٢٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، ٢٠٢٢ ، ٢٠٦٨ .

(١٦٩) الطبري م ٣/١٧٨٣

(١٧٠) الطبري م ٣/١٩٠١ ، ١٩٥٥ ، الزيات : معجم ص ٣٤٧

(١٧١) الطبري م ٣/١٩٥٥

(١٧٢) م ٣/١٩٧٩

(١٧٣) م ٣/٢٠٦٨ ، د. جهادية القرغولي ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧

(١٧٤) الطبري م ٣/٢٠٦٨ ، الزيات : معجم ص ٣٣٨

(١٧٥) م ٣/٢٠٧٤ ، المقدسي : احسن التقاسيم ص٣١ ، الزيات : معجم ص ٣٣٨ .

باحصائية بسيطة لعدد السفن التي كانت بحوزة جيش الزنج فكانت حوالي ٣٠٠ سفينة ، اما مجموع السفن والزوارق التي تم اسرها فكان حوالي ٤٠٠ سفينة • وتؤيد بعض الروايات صراحة الى ان الزنج كان لديهم من السفن اكثر مما ذكر ، ففي سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ اسر ابو العباس ابن الموفق من الزنج حوالي ٤٠٠ سفينة[١٧٦] . ويقول الطبري في رواية ثانية تعود الى سنة ٢٦٩ هـ ٨٨٢ انه على أثر هجوم الموفق على المختارة ونجاحه في السيطرة على السجن « اخرج صاحب الزنج كل ما كان بقي في نهر ابي الخصيب من شذا ومراكب بحرية وسفن صغار وكبار وحراقات وزلالات وغير ذلك من اصناف[١٧٧] السفن » •

ومن الاساليب الهجومية التي اتبعها صاحب الزنج ذلك الذي طبقه عند هجومه على البصرة سنة ٢٥٧ هـ ٨٧٠ • فقد قسم جيشه المهاجم الى ثلاث جبهات وعلى رأس كل جبهة وضع قائدا مشرفا • فكان علي بن ابان قائدا على الفرسان والمشاة للجبهة العسكرية المهاجمة من جهة المربد الى ناحية بني سعد وكانت الجبهة الثانية تحت قيادة يحيى بن محمد البحراني وقد دخل البصرة من جهة الخريبة (تقريبا الجانب الجنوبي الشرقي من البصرة مما يلي نهر عدي) ، اما الجبهة الثالثة فكانت تحت قيادة محمد بن يزيد الدارمي وتتألف من الاعراب ، وقد دخل البصرة من ناحية نهر القندل[١٧٨] •

ومما له علاقة بهذا الموضوع السلاح النفسي الذي استخدمه صاحب الزنج في حروبه • والمعروف ان السلاح النفسي له اثار كبيرة في تصعيد همم المناصرين خاصة في اوقات الازمات • فمما يرويه الطبري ان واحدا من الزنج قد جاءه ليخبره عن هرب الزنج امام جيش ابي احمد بن المتوكل في سنة ٢٥٨ هـ ٨٧١ فما كان من صاحب الزنج الا ان ينتهره ويصيح به

(١٧٦) الطبري م ٣/٢٠٠٠
(١٧٧) م ٣/٢٠٦٨
(١٧٨) م ٣/١٨٤٨ ـ ١٨٤٩

قائلا « اغرب عني فانك كاذب فيما حكيت وانما ذلك جزع دخلك لكثرة ما رأيت من الجمع فانخلع قلبك ولست[179] تدري ما تقول » . ولم يكتف بهذا القول بل امر السجان وهو احد مقربيه ان ينادي بالزنج ويحركهم على الخروج الى موضع الحرب وبذلك تم النصر للزنج واستحوذوا على سميريتين[180] . كذلك وردت رواية مفادها ان علي بن ابان المهلبي اثناء قتاله مع ابن ليثوية في سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ في الاهواز وقف في جماعته « يعدهم الظفر ويحكي لهم ذلك عن[181] الخبيث » ، وعندما قام صاحب الزنج بمحاولة لكسر حصار الموفق في سنة ٢٦٧ هـ امر بعمل شذوات وقسمها الى ثلاث جبهات وعلى ثلاثة قواد « والزم كل واحد منهم غرم ما يصنع على يديه[182] منها » .

اما بالنسبة الى الاساليب التعبوية الدفاعية فتتمثل خير تمثيل بذلك الدفاع المستميت الذي اظهره الزنج اثناء دفاعهم عن مدينتهم المختارة ، وفي كفايتهم في استخدام شتى أنواع الخطط العسكرية الدفاعية اذ يحدثنا الطبري في هذا الصدد انه عندما اشتدت هجمات الموفق على المختار ونجاحه في هدم سورها سنة ٢٦٩ هـ ٨٨٢ ضاق بصاحب الزنج الامر فأشار عليه المهلبي « اجراء الماء على السباخ التي يسلكها اصحاب الموفق لئلا يجدوا الى سلوكها سبيلا وان يحفر خنادق في مواضع عدة يعوقهم بها عن دخول المدينة . فان حملوا انفسهم على اقتحامها فوقعت عليهم هزيمة لم يسهل عليهم الرجوع الى سفنهم . ففعلوا ذلك من عدة مواضع من مدينتهم[183] » . وقد تحملوا اثناء حصار الموفق للمختارة الجوع والعوز فيحدثنا الطبري وابن الجوزي ان الزنج حرموا من الخبز اكثر من سنتين حتى انهم اكلوا الجيف ولحوم الناس ونبشوا القبور فأكلوا لحوم

---

(١٧٩) م ٣/١٨٦٤
(١٨٠) ن. م. م ٣/١٨٦٤
(١٨١) م ٣/١٩١١
(١٨٢) م ٣ / ١٩٩٦
(١٨٣) م ٣ / ٢٠٤٢

الموتى وأكلوا لحوم أولادهم . وتتمثل اساليبهم الدفاعية أيضا بما اظهروه من شجاعة وتفان في صد الهجمات المتكررة التي قام بها الموفق وابنه،[184] وقد تتبعت مسيرة الموفق على المختارة ابتداء باليوم الذي بعث فيه كتابا الى صاحب الزنج يدعوه الى طلب الامان والتوبة وانتهاءا بدخوله مدينة المختارة وقتله صاحب الزنج فوجدت اعتمادا على الطبري وآخرين ان هجومه استغرق حوالي ثلاث سنوات اذ كانت بداية هجماته على المختـــارة في العشرين من رجب سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ ونهايتها في يوم السبت لثلاثين حلت من صفرسنة ٢٧٠ هـ ٨٨٣ . وقد ركز الموفق خلال هذه السنوات الثلاث جميع عملياته الحربية في الهجوم على المدينة وهدم اسوارها ودك حصونها بغية الاستيلاء عليها ، وقد وردته الامدادات العسكرية من كل مكان . فضلا عن ان العباسيين قد خصصوا اموالا هائلة لهذه العمليات العسكرية سيما وان الموفق كان الرجل الاول في الدولة العباسية وليس المعتضد . وقد فرض الموفق حصارا سياسيا واقتصاديا منيعا متمثلا باتخاذه الموفقية لمنافسة المختارة وسلبها اهميتها ، وكذلك بقطعه الطرق والمسالك التي تصل عن طريقها المواد الغذائية والاسماك الى المختارة ومع كل هـــذه الاجراءات فان احتلالـــه للمدينة استغرق ثلاث سنوات تقريبا .

★ ★ ★

لم ترد اية اشارة واضحة تشير الى الطريقة التي اتبعها صاحب الزنج في دفع ارزاق جنده على الرغم من ورود بضعة روايات يشم منها رائحة بأن التوزيع اثناء الحروب كان قائما على اساس تقسيم الغنائم فيما بين المحاربين ففي رواية عن ريحان بن صالح يقول فيها « فلقد رأيت صاحب الزنج يومئذ ينتهب معنا ، ولقد وقعت يدي ويده على جبة صوف مضربة

---

(١٨٤) أنظر الطبري م ١٩٨٢/٣ ـ ١٩٨٣ ، ٢١٠٩ ، ٢٠٣٢ ، ٢٠٣٤، ٢٠٤٠ ـ ٢٠٤١ ، ٢٠٤٢ ، ٢٠٥٠ ، ٢٠٥٢ ، ٢٠٥٣ . ابن الجوزي : المنتظم ج٥ ص ٦٤

فصار بعضها في يده وبعضها في يدي وجعل يجاذبني عليها حتى تركتها[١٨٥] له » . وهناك رواية ادلى بها الصفدي في الوافي بالوفيات مفادها ان اصحاب صاحب الزنج اختلفوا مع قائدهم في مسألة التوزيع اذ حجب عنهم أكثر مما اعطاهم[١٨٦] . كما ان هناك رواية غامضة اوردها الطبري جاء فيها ان الموفق ارسل في احدى المرات احد قواده الى مؤخرة عسكر صاحب الزنج لاحراق بيادر له « كان الخبيث يقوت اصحابه منها[١٨٧] من الزنج وغيرهم » . والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هل هذا يعني ان صاحب الزنج كان يوفر ما يحتاجه جماعته من مواد غذائية وكذلك فعل كل قائد من قواد الجبهات العسكرية التي ذكرناها ؟

كانت أهم مشكلة واجهها صاحب الزنج في بداية أمر الحركة نقص الاسلحة أو بالاحرى انعدامها لذلك عمد آنذاك لغرض الاقتصاص من الوكلاء العباسيين الذين كانوا يسومون الزنج كل أنواع العذاب عن طريق استعمال[١٨٨] الشطبة (أي السعف الاخضر الرطب من جريد النخل وجمعها شطب) . بعد ذلك استطاع ان يغنم ثلاثة اسياف فوزعها على عدد من اصحابه الستة ، ثم تزايدت غنائم الزنج ومن بينها الاسلحة فأصبح لديهم السيوف والبالات والزقايات والتراس والمجانيق والمقاليع[١٨٩] والعرادات . واستعمل الزنج السهام بأنواعها المختلفة اذ ورد ذكر السهام التي ترمى من القسي الناوكية وهي عبارة عن أقواس كبيرة تنصب على الاسوار والابراج وتسمى الزياد وتحتاج هذه الاقواس في شد وترها الى

---

(١٨٥) الطبري م ٣/١٧٧٣

(١٨٦) فيقول الصفدي « فلما كثرت حاشيته ـ اي صاحب الزنج ـ كفّ ايدي الزنج عن النخل والمزارع وجبي الخراج منهم » ورقة ١٤٢ أ

(١٨٧) الطبري م ٣/٢٠٧٩

(١٨٨) م ٣/١٧٥٠

(١٨٩) م ٣/١٧٥٤ ، ١٧٥٥ ، ١٧٨٤ ، ١٨٣٤ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ٢٠٠٣ ، ٢٠٠٤ ، ٢٠٤٢ ، د. السامر ص ١٠٣

عدد من الرجال ، ويصيب السهم الواحد منها عدة اشخاص مرة[١٩٠] واحدة . والسهام التي ترمى من قسي[١٩١] الرجل . واستخدموا الرصاص الذائب ، كما استعملوا الاجر[١٩٢] والحجارة فيها . لكن بقي علينا ان نعرف فيما اذا كان الزنج يعملون اسلحتهم ام يستوردونها ام انهم اكتفوا بما يحصلون عليها في حروبهم ؟ ومن المؤسف ليس هناك معلومات واضحة عن هذا الموضوع ما عدا روايةواحدة ذكرها الطبري في حوادث سنة ٢٦٩ هـ مفادها ان جيش الموفق انتصر في احدى المعارك على جيش انكلاي ابن صاحب الزنج وسليمان بن جامع وتمكن من احراق الجسر على نهر ابي الخصيب وبعد ذلك تجاوز جيش العباسيين « الحظيرة التي كان يعمل فيها شذوات الفاسق وسميرياته وجميع الآلات التي كان[١٩٣] يحارب فيها » . ان هذه الرواية تمكننا الى درجة كبيرة من القول بأن الزنج كانوا يعملون اسلحتهم في المختارة .

كلمة اخيرة

نخلص مما تقدم ذكره في هذا البحث ما يلي :

١ ـ بروز الشخصية العربية والطابع العربي في التكوين البشري لجيش صاحب الزنج ابتداءا بالقيادة المتمثلة بزعيم الحركة ، علي بن محمد، ومجلس الستة رجال وانتهاءا بالفرد العادي والعناصر الاخرى المكونة للجيش . لم يكن هذا القول استنتاجا غير مستند على حقائق وأدلة تاريخية بل واقعة واعتمادا على عدد من الاستشهادات والادلة . وبذلك

---

(١٩٠) الطرسوسي: تبصرة ارباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب . بيروت ١٩٤٨ ، ص ٦

(١٩١) الطبري م ٣/٢٠٠٤ ، انظر مادة Djaysh في EI بقلم Cahen

(١٩٢) م ٣/١٧٨٤ ، ٢٠٠٤ ، ٢٠٤٢

(١٩٣) م ٣/٢٠٦٢

يحق لنا رد الرأي القائل بأن حركة الزنـج وجيشها كان مقصورا علـى الزنـوج •

٢ ـ صحيح ان جيش صاحب الزنج كان في بداية امر الثـورة غير مدرب وغير منظم عسكريا لكنه نتيجة للممارسات الحربية العديدة ونتيجة لكفاية القيادة صار جيشا لـه تنظيم عسكري واضح وصار له كفايـة وتدريب عسكري متميز سواء في استعمال الاسلحة او في وضع الخطط العسكرية وتنظيم جبهات القتال • ولما كنا بصدد الحديث عن هذا الموضوع لا بد لي من التعقيب على عدد من الاشارات الواردة في مقالة الباحث الدكتور فاروق عمر فوزي التي نشرها في مجلة آفاق عربية (عدد ١١ لسنة ١٩٧٦) تحت عنوان « حركة الزنج وموقعها من الاصالة الثورية العربية» •

يذكر الدكتور فاروق (ص ٦٤) ان العباسيين كانوا غير مهتمين بحركة الزنج عند اندلاعها فلم يرسلوا الاقوات رمزية • بينما نرى في الواقع وحسبما اورده الطبري ان هناك سلسلة غير متناهية من الحملات العسكرية التي أرسلها العباسيون تحت قيادة قواد اتراك وغيرهم ومنذ الايام الاولى لاندلاع الحركة ابتداءا بـ (رميس) الى جعلان الى سعيد ابن صالح المعروف بالحاجب الى منصور بن جعفر الخياط الى محمد المولد الى صاعد بن مخلد الى ابي احمد بن المتوكل الموفق نفسه اذ قاد جيشا ضد الزنج سنة ٢٥٨ هـ • ولنقرأ ما كتبه الطبري عن جيش الموفق في تلك السنة المبكرة من عمر الثورة يقول « فعايننت انا الجيش الذي شخص فيه ابو أحمد ومفلح ببغداد وقد اجتازوا بباب الطاق •• فسمعت من مشايخ أهل بغداد يقولون : قد رأينا جيوشا كثيرة من الخلفاء فما رأينا مثل هذا الجيش احسن عدة وأكمل سلاحا وعتادا وأكثر عددا (١٩٤) وجمعا » ، غير ان جميع هذه الحملات باءت بالفشل • ومما يلفت النظر ايضا ان الموفق ظل محاصرا مدينة الزنج ، المختارة ، مدة تقارب الثلاث سنوات شن خلالها الحملة تلو

---

(١٩٤) الطبري م ١٨٦٢/٣

الاخرى وفرض حصارا اقتصاديا صارما تجرع بسببه الزنج شتى صنوف الجوع والفقر والعوز ومع ذلك لم يستسلموا في الوقت الذي وصلت فيه امدادات ومساعدات عسكرية كبيرة الى الموفق من عدد من القوى السياسية المعاصرة آنذاك كجيش لؤلؤ صاحب ابن طولون وجيش عامل ايزج ونواحيها من كور الاهواز ومن اهل البحرين (١٩٥) .

كذلك أورد الدكتور فاروق (ص ٦٥) ما يلي : « وكان يدير العمليات العسكرية مع صاحب الزنج اربعة من الشيوخ العرب .. وطبيعي فان هؤلاء الزعماء العرب لا يقودون زنوجا لا يعرفون حمل السلاح ... فهذا مستحيل اضافة الى كونه خطأ تاريخيا ذلك لأن هؤلاء الزعماء العرب لا يقودون بالدرجة الاولى الا افراد من قبائلهم وعشائرهم المتمرسين على الحرب والقتال » وهذا الرأي ايضا لا تؤيده الوقائع التاريخية لهذه الحركة وان هناك اشارات تشير الى انه ليس بالمستحيل ان يقود علي بن ابان المهلبي العربي مثلا زنوجا . فقد اورد الطبري نقلا عن محمد بن سمعان ان عليا بن ابان المهلبي قد دخل البصرة على رأس قوة من الاعراب الفرسان والرجالة (١٩٦) الزنج . ويقول الطبري ايضا ان عليا هذا كان مقيما في جبي في سنة ٢٥٨ هـ في جمع كثير من الزنج (١٩٧) ، وعندما كان معسكرا في الاهواز كان على رأس جيش يقدر بثلاثين الف من الزنج (١٩٨) . كما أورد الطبري اسماء عدد من القواد الزنج كانوا تحت امرة المهلبي من أمثال البرذعي وحسين المعروف بالحمامي ويحيى بن خلف النهربطي وابرون (انظر ص ١٦ ــ ١٧ من البحث) . وكان محمد بن ابان المهلبي على رأس جيش من ٣٠٠٠ من الزنوج في موضع القندل (١٩٩) .

فضلا عن ذلك فان استنتاج الدكتور فاروق حول عدم معرفة الزنوج

---

(١٩٥) م ٣/٢٠٨٠ ، ٢٠٨٦
(١٩٦) م ٣/١٨٥٣
(١٩٧) م ٣/١٨٦٢
(١٩٨) م ٣/١٩٧٤
(١٩٩) م ٣/١٩٩٠

حمل السلاح قد يكون صحيحا كما ذكرنا سابقا في الايام الاولى من اندلاع الثورة لكنه غير صحيح بالنسبة الى الفترة العامة لها ، وللتدليل على ذلك نكتفي برواية واحدة اوردها الطبري خلال حديثه عن استعدادات الموفق للهجوم على المختارة فيقول « والفاسق ــ يعني صاحب الزنج ــ يومئذ في زهاء ثلثمائة الف انسان كلهم يقاتل او يدافع فمن ضارب بسيف وطاعن برمح ورام بقوس وقاذف ، بمقلاع ورام بطرادة او منجنيق واضعفهم أمر الرماة (٢٠٠) بالحجارة » كذلك انظر الادلة الاخرى الموجودة في متن البحث .



(٢٠٠) م ٣/١٩٨٦ ــ ١٩٨٧

البطل التاريخي
بين كارلايل وتوينبي

دكتور محمود اسماعيل
المغرب

من القضايا الشائعة في اوساط المؤرخين ، والتي أشار اليها بين وقت وآخر قضية البحث عن القوى المحركة للتاريخ والمسؤولة عن التحولات والانعطافات الكبرى في تحولـه • وقـد انتهى العلم الحديث ان أن قوانين اجتماعيـة اقتصادية تحكم مسار هذا التطور • وكان ذلك تتويجا لجهـود سابقة بذلها المشتغلون بفلسفـة التاريخ منذ ثيوكيديد وحتى كارل ماركس •

ونحن في غنى عن اثبات ان تصورات فلاسفة التاريخ على تنوعها جاءت معبرة عن ثقافة عصورهم التي كانت كذلك انعكاسـا للاوضاع الاقتصادية الاجتماعية آنذاك ، فالفكر لم ينعزل قط عن الواقع بل مرتبط به في علاقة جدلية دائمة التأثير والتأثر •

ومن تحصيل الحاصل كذلك ان كافة التصورات الفلسفية للتاريخ تندرج تحت نمطين أساسين ، مثالي ومادي • ومن المفهوم المثالي انبثقت كافة التصورات العينية والثيولوجية والاسطورية ، وكلها تقيم وزنا كبيرا للفرد البطل او العبقرية الفذة لمحور العملية الحراك بالتاريخي • سواء أكان هذا البطل نبيا أو قديسا أو حتى مفكرا من طراز فريد ••

وعلى النقيض تقف الرؤية الحاديـة التي تتلمس قوانين حركـة التاريخ في الواقع الاجتماعي ذاتـه وتنتهي الى ان الشعوب هي التي

تصنــع اقدارهــا محكومة في ذلك بطبيعــة اوضاعهــا السوسيو ــ اقتصاديــة •

وفي القرن التاسع عشر بلغ الجدل بين أصحاب الرؤيتين مداه ولا يزال محتدما الى الآن مواكبا للصراع الايدولوجي بين الشرق والغرب ، ومصاحبا للصراع بين النظم العربية المحافظة منها والثورية •

ومن أسف خفتت أصوات دوي الرؤية الاجتماعية في الاونة الاخيرة كنتيجة منطقية لسطوة المد الامبريالي على العالم العربي ، ولا غرو فقد تعرض الكثيرون من أصحاب المدرسة الاجتماعية لمزيد من العنت حتى في حياتهم الاكاديمية (الامر الذي يتطلب وقفة موضوعية من اتحــاد المؤرخين العرب) ، حفاظا على بارقة الامــل المنشود في دراسة تراثنــا التاريخي على اسس علميــة موضوعيــة ، ووقف الهجمــة الشرســة المحافظــة ــ ان صحت التسمية ــ لتشويهه ومسخه وفق مناهج عقيمة لفظتها روح العصر) •

واذا كنا نحتفل اليوم بذكرى مؤرخنا ارنولــد توينبي لمواقفــه السياسية المتعاطفة مع كثير من قضايانا العربية ، فلا بأس ولا تثريب ، لكن ينبغي الا يغيب عن البال ان مؤرخنا يندرج ضمن المدرسة المثالية وحفاوتنا بتخليد ذكراه لاهداف سياسية وقومية لا يجب ان تحفزنا للاخذ بمنهجيته في ميدان البحث التاريخي • ففي تراث الانسانية الكثيرون الذين بزوا توينبي اصالة وعماقــة ان كنا نبحث عن مثال تستأنس به • ولم نذهب بعيدا وتراثنا التاريخي حافل بنماذج عديدة فذة في هــذا السبيل وحسبنا ذكر اسماء المسعودي وسكويه وابن خلدون والمقريزي وغيرهم ممن تتلمس في كتاباتهم اصالة الاتجاه الاجتماعي والسبق الى الأخذ بالماديــة التاريخيــة ــ بشكل أو بآخر ــ قبل ان تصاغ بقرون طويلــة •

ولا حاجــة الى القول بأن توينبي المــؤرخ • رغم شموخ عملــه من حيث الجهد الكبير الذي يعد حقا اعجازا في الانجــاز ــ أقــول

توينبي المؤرخ قد هلهل نقوا وتجريحا حتى من قبل مؤربين مـن بني جلدتـه ...

ان الفهم الصحيح لفلسفة توينبي التاريخية يكمن في وضعه ضمن اطار المدرسة الانجليزية المحافظة التي تنحو نحوا مثاليا مسرفا ، وتقيم كبير وزن للفرد البطل والعبقري الملهم محرك التاريخ ، والفصول التي كتبها في هذا الصدد استمرار طبيعي ومنطقي لفلسفة توماس كارلايل ، برغم ان مرور نحو قرن من الزمان بينهما . وبرغم التفاوت بين منطلق ومنطق كل منهما .

والغريب حقا ان يترسم توينبي خطى كارلايل في حماسـه لتقدير البطولة التي اشهد كارلايل نفسه افلاسها في نهاية المطاف .

واليكم البيـان :

بدأ كارلايل في القاء محاضراته عن الابطال والبطولة في التاريخ في مايو من عام ١٨٤٠ على جمهور من عصر فيكتوريا وصفه كاسيرو في أدب بأنه « من ارستقراطي الفكر » . وبديهي ان تستهدف هذه الافكار ارضاء مشاعر الجمهور الارستقراطي النزعة ، فقد كانت كذلك بالفعل، كما لاحظ كاسيرر أيضا . كانت محاولة محمومة لتثبيت روح المحافظة والرجعية امام التأثيرات الليبرالية والثورية التي انجزتها الثورة الفرنسية، وثورات عام ١٨٣٠ في اوروبـا . بل انطوت هذه المحاضرات على خطر لم يفطن اليه هذا الجمهور المترف رغم اعجابه الشديد بكارلايل ، وربما لم يفطن كارلايل نفسه الى السموم التي تضمنتها محاضراته . لم تكـن تلك السموم الا تقديم اساس اديولوجي بتكريس من التاريخ للنزعات الوطنية السوفيتية والدكتاتوريات المتسلطة ولا غرو فقد اعتبره بعض الدارسين مبررا ومدافعا عن الفاشستية والنازية ، واعتبر البعض الآخر محاضراته بذرة من بذور الفلسفات الامبريالية الحديثة .

فالتاريخ في نظر كارلايل مسيرة للابطال والعظماء . وسجل منقبي لأعمالهم الاسطورية التي تشكل مادة ثرية لهواة كتاب السير والتراجم .

فبغير العظماء ـ يعتقد كارلايل ـ ليس ثمة تاريخ ، وانجازات الشعوب واسهاماتها في اثراء الحضارة الانسانية المستمرة أمر بعيد جدا عن فكر كارلايل • لا وزن البتة للشعوب ولا تقدير ، وانما الفضل كل الفضل يعزى الى ابطال من نوع خاص اعدتهم العناية الالهية اعدادا خاصا كي يجعلوا للبشرية معنى وبدونهم ليس الا الفوضى •

لذلك من الصعب وضع كارلايل في سجل مفلسفي التاريخ لانه لم يقدم نسقا فلسفيا في تفسير التاريخ • بقدر ما قدم من تصور عفوي انتقائي مضطرب يصعب ادخاله داخل اطار اللهم الا الدعـوة لتقديس البطولة وعبادة الابطال •

لقد استغل كارلايل المامه الواسع بتاريخ البشرية في تقديم نماذج على غرار ابطال الاساطير ، معيار بطولتهم اتيان الأعمـال الخارقـة كالعادة مستهدفـا اثلاج صدور جمهـوره الارستقراطي • فقد اشترط ان يكون البطل ارستقراطيـا ، اما الزعماء الشعبيين وقادة الحركـات الثورية فليسوا الا افاقين على حد زعمه • ناهيك عن اتباعهم من الغوغـاء والدهماء فليسوا الا رعاعا وعبيدا • وعلى أحسن الاحوال « جموع من الاشقيـاء » •

لقد كان كارلايل ـ ومن حسن الحظ لم يكن توينبي ـ نغمة نشاز في عصره الـذي اقترن بالتنوير والتثوير • فآلى على نفسـه الا رفض الريـاح الجديـدة وتعويق مسيرة التاريـخ • بل العودة بعجلتـه الى الوراء •

وعلى النقيض كان موقف توينبي في مناصرة الحريات والعدالة وشجب العنصرية والاستعمار ، وتحدي النزعـات الارستقراطية الوطنية والنزعات الفكرية المتسامية شأنه في ذلك شأن برتراند راسل • فقد رفض فكرة شائعة بين مثقفي عصره عن « أوروبة الحضارة » ونادى بعالميتهـا وساهم الشعوب جميعا فيها صرح بنائها •• ولا زلت اذكر اقوالا لـه

في محاضرة القاها بجامعة القاهرة عام ١٩٦٢ ساوى فيها بين دور الانسان البدائي في مقاومة الوحوش الضارية وبين دور الانسان المعاصر في ارتياد مجاهل الفضاء .. كذا ندد بسخافة فكرة الميزة الخاصة بشعبه ممن تجري في عروقــه الدماء الزرقــاء ، وكشف عن زيف هذه الاسطورة ضاربــا أمثلة عن مواقفه ابان الحرب العالمية الثانية . ناهيك عن مواقفه السياسية والفكرية في مناهضة الصهيونية وكافة الدعاوي العنصرية . اما سلفه فقد ارتمى في احضان الرجعية والارستقراطيــة على صعيد وطنه ، فكانت محاضراته عن تقديس الابطال حديث « بطــل » الى نخبة ابطال عــن اسلافهم من الابطال الغابرين لا يحكم الا ارضاء مشاعرهم دون موضوعية أو منطق ..

ومن التجني الحديث عن المنطــق والمعقــول في أفكار كارلايــل المطروحة آنذاك ، فقد سخر بنفسه من المنطق والعقل بالقول في هــذا الصدد « نحن لن نوفق في فهم الحياة اعتمادا على المنطق ، ناهيك بحياة البطولة اسمى صور هذه الحياة ... ان المعرفة وادراك حقيقــة أي شيء من الافعال الغيبية ، وكل ما تستطيع ابرع السبل المنطقية ان تفعله هــو الطفح على سطح الحقيقة » .

فالمنطق الغيبي هذا الذي اشار اليه يمثل حجر الزاوية عنده وعند توينبي كذلك في افكارهما عن البطل والبطولة وان غلب على فلسفــة توينبي منطقية الشكل وبراعة المبنى كما نذكر بعد قليل .

ان طبيعة موضوع محاضرات كارلايل ، وكذلك طبيعة سامعيــه كانتا من وراء شططه وترديه الى هذا الدرك من التفكير .. فقد املت عليه نهج التأثير لا الاقناع . لذلك لم يقدم فلسفة او تصورا منطقيــا للتاريخ قدر تقديم نماذج « بانورامية » لحشد من الابطال ، لعب الخيال الارستقراطي السقيم ودغدغة الغرائز الارستقراطية الفجة الدور الفعال في تشكيلها .. ولا غرو فقد اعترف بدوافعه تلك حين اعلن ان تقديس البطل تعبير عن غريزة وجبلة في الطبيعة البشرية .

ولنا ان نتساءل كيف تسنى لمؤرخ كبير مثل كارلايل كرس عمره لدراسة التاريخ ان يخرج من هذه الدراسة بهذا الحصاد المتواضع ؟؟.
أغلب الظن انها نزوة سيق اليها بفعل اعجابه بفلسفة فيشته التي زودته بميتافيزيقا كاملة عبادة البطولة . كذا مظاهر الاعجاب والاغتباط من قبل جمهوره الخاص اذكى في نفسه نشوة زائفة جعلته يسترسل جامحا لا يلوى على شيء ..

فلما تبخرت تلك النشوة العابرة ادرك تورطه فنقد نفسه نقدا قاسيا ربما غفر له زلته حيث قال :

« لا شيء مما كتبت ساءني على هذا النحو ، فلم يتضمن جديدا ، بل لم ينطوي على شيء ذي اصالة » .

★ ★ ★

بعد حوالي قرن من خرافة ابطال كارلايل ، وبعد ان تقدمت البشرية تقدما هائلا في شتى مناحي المعرفة ومنها العلوم الاجتماعية بطبيعة الحال يأتي توينبي في دراسته للتاريخ مؤكدا كسلفه على مفهوم البطولة متناسيا ما احدثته المادية التاريخية من طفرة في فلسفة التاريخ ، ومتأثرا بشطحات برجسون التصوفية ، ومحاولات فرويد في فهم طبيعة النفس البشرية وان كان قد افاد في عجالة من بعض الدراسات الانثروبولوجية وعلم الاحياء الامر الذي خفف الى حد ما من غلواء انحيازه للبطولة والابطال .

ونعتقد ان هذا الانحياز يرد الى عوامل متعددة زمنها شغفه الطويل بالهيلينيات واعجابه الشديد بپلوتارك ، فضلا عن طابع المحافظة الغالب على مدرسة التاريخ الانجليزية . وربما كان لتدينه الشديد وتأثره بحياة المسيح وسير القديسين دخل في تشكيل نظرته . اذ انعكس ذلك كله على تناوله لابطاله الذين كانوا في الغالب انبياء ورسلا وحواريين ورهبانا أو علمانيين حالمين ذوى ميول رومانسية . ولم يكن توينبي في رقته

ووداعته وتواضعه وطلاوة أحاديثه الا استمرارا لأبطالــه ٠

على ان من الانصاف القول بأن مفهوم البطولة ليس نغمة سائدة في فلسفته ، ففي دراساته يبرز المنظور الحضاري لتاريخ البشرية من خلال دراسات طويلة معمقة أشبه ما تكون بمسح شامل لتاريخ الحضارات ٠٠٠ ولا يملك من يقرأ دراسة توينبي الا التسليم بشموخ هذا العمل علــى الأقل من حيث الجهد الكبير الذي ينوء بانجاز مثله فرد واحد ٠ ولقد ولقد قيل بأنه محصلة جهوده وجهود اجيال من تلامذته ، وان صح ذلك؛ فيمكن تنوع الرؤى وتعدد الاتجاهات داخل العمل ذاته بحيث يصعب الوقوف على نظرية محددة لها مقوماتها المستمدة من العمل كلها ٠ وان وضحت مثــل تلك النظرية مــن الحيث المبني او الشكــل فيما يعرف بميكانيكية تنــوع الرؤى داخــل العمل ذاتــه وعدم الوقوف علــى منظــور محدد بعينه رغم وحدة المبنى فيما يعرف بنظريــة التحــدي والاستجابــة ٠

ونحن في غنى عن تبيان شموخ هذا الانجاز ، فقد اعترف بذلك كل من طالعه سواء أكان مؤيدا أو معارضا لما تضمنه من أفكار ٠ وما يعنينا هنا هو ان نعرض لتصور توينبي للبطل التاريخي ٠

لم يستطع توينبي تجاهل الحقيقة القائمة من لدن ارسطو في ان الانسان كائن اجتماعي لكنه يرفض اتجاه المدرسة الاجتماعية في تفسير التاريخ ٠٠ ورغم رفضه صراحة اتجاه المقابــل الا ان حصاد دراستــه للموضوع تضعه في النهاية ضمــن الاتجاه الفردي ٠٠ فهــو يرى في المجتمع نظاما للكائنات البشرية يقوم فيه الوسيط الاجتماعي بدور ميدان الفعل اما مصدر الفعل بأسره فمرجعه الى الافراد ٠٠٠ وتصبح المقولة مقبولة لو انه قصد كافــة افراد المجتمع ، لكنــه عني قطاعا معينا من الافراد اطلق عليهم « الشخصيات » البطلة العبقرية بالمعنى الحرفي لا المجازي على حد قوله ٠

ويعود في محاولة لتمييع الموقف فيشرك مع البطل « صفوة مبدعة»

على شاكلة البطل وليس لها سمات البشر العاديين ، وهنا يبدو التأثير المسيحي حيث يقتبس فكرته من حواري السيد المسيح •

« التحدي والاستجابة » تلك الميكانيكية التي انسحبت أيضا على ابطال توينبي فيما عرف بعملية « الانسحاب والعودة » ••

ورغم اعتراف توينبي العابر بأهمية البعد الاجتماعي في تفسير التاريخ ، وكذا رغم اعلانه صراحة رفض الاتجاه الفردي ومحاولة التوفيق بين المائعة بين النظريتين تأتي نتائج دراساته الموضوع لتضعه في قائمة المدرسة الفردية المثالية • فهو يرى في المجتمع نظاما للكائنات البشرية ، أو يرى في الفرد كائنا اجتماعيا لكن المجتمع مجرد وسط او ميدان للفعل الفردي ، وبالتالي تصبح افعال الافراد هي الثقل في عمليات الحراك الاجتماعي ؛ وليته عني في هذا الصدد كافة افراد المجتمع لكنه قصد قطاعا خاصا من الافراد أو « الشخصيات » البطلة ذات المواهب العبقرية بالمعنى الحرفي لا المجازي ، على حد قوله • ويبدو انه أحس بخطورة اندفاعه نحو الاتجاه الفردي فحاول تمييع القضية باشراك « صفوة » أو « أقلية مبدعة » ليس لها سمات البشر العاديين ، واقرب ما تكون الى شاكلة البطل ، عزى اليها القيام بدور مساعد البطل في انجاز مهامه التاريخية • ولعله تأثر في هذا الصدد بتاريخ الانبياء وحوارييهم او صحابتهم كما في المسيحية والاسلام • ولكن لما كان هؤلاء في درجة أدنى حيث لا ترقى طبيعتهم الى طبيعة الابطال يبقى للبطل التأثير الفعال ويصبح العامل الحاسم في التحولات التاريخية •

يفهم ذلك بداهة من دراسة لابطاله ، فعلى ايديهم تتم الطفرة أو النقلة حقبة حضارية الى اخرى اكثر تقدما •

والتطور بهذه الكيفية لا يأتي طبيعيا او تلقائيا •• وانما بفعل عفوي يتوقف على ظهور العبقري البطل •• وقد استعار من برجسون ــ الذي اعجب به ــ كلمة « رجة » أو « هزة » للتوافق مع انجاز البطل ، ولم

يقل بتغيير أو تطور حتى لا ينصرف الذهن الى البحث عن اسبابه داخل المجتمع ذاته •

وبرفضه مفهوم التطور الطبيعي تصبح الانعطافات التاريخية رهينة بفعل عبقرية صادر عن بطل صوفي تولد رسالته من خلال معاناة ذاتية وتجربة صوفية قحة هذه الرسالة فيض علوى معزولة الصلة عن الواقـع الارضي وتجاوز له بل هي حالـة من تخطي حدود الذكاء البشري ، على صاحبها ان ينتقل بحالة مجتمعه الى عالمها أو بالاحرى اعادة تشكيـل الواقع وصياغته على منوال ما صدر من الهام الباطن •• ولا يرى توينبي في تحقيق ذلك ثمة غرابة طالما تحوم ذات الافكـار في ذات الوقت في خواطر من اطلق عليهم « الاقلية المبدعـة » ، فيكون التوافق مـن ثم تكريسا لجهودهم في نصرة الدعوة الجديدة والدعوة اليها وبالتالي تتم النقلة أو الانعطافـة •

قد يبدو من منطق توينبي هذا مقبولا ، لكنه منطق صوري علـى كل حال •• فالتجربة الصوفية الخاصة بالبطل مسألة غاية في الخصوصيـة ولطالما اسفرت عن حالـة تجاوز حدود الذكاء البشري ، فكيف تكرر أو مجرد تحوم بخواطر عدد من البشر في نفس الوقت ؟ اللهـم الا اذا كانت تنطوي على شكل عام تضرب اصوله في الوسط الاجتماعي الـذي يضم البطل وصفوته وجماهيره • كذلك الحال بالنسبة للجماهير بصورة أكثر اعضالا فكيف يمكن ان تتحول الى عالم البطل « بقدرة قادر » الا اذا كانت من صفوة أي شعب كامل من العباقرة ؟ ان هذا المنطق المثالي ــ منطق الافكار الهائمـة الجائلة ــ بين « الاقانية الثلاثة » البطـل ، والصفوة ، والجماهير منطق مرفوض من أساسه •

واذا سلمنا جدلا بصحة هذا المبنى ــ أي القوى الثلاثة ــ يستحيل وقـوع الاستجابة ما لم تكن الاخطار صادرة من القاعدة الى القمـة وليس العكس ، لأن القاعدة هي حجر الزاوية في عملية الحراك التاريخي

وهي المختبر ـ الحقيقي في حركتها او سكونها ـ لنجاح الافكار أو توازيها •• وبالتالي تصبح من خلال تطلعها لتغيير الواقع او تطويره ملهمة للبطل والصفوة معا في التعبير عن تجسيد هذه التطلعات في صورة أخرى من الافكار ، فاذا ما توافق هذا التجسيد مع متطلبات التغيير كانت استجابة الجماهير ايجابية بالضرورة ، والا فالفشل والاخفاق مصير أية أفكار فائضة او صادرة من اعلى كما تصور توينبي •

ان الانعطافات الكبرى في التاريخ تتم من خلال جدل مستمر بين قوى المجتمع ، بين الفكر والواقع ، لا وزن للصفوة ولا مكان للابطال وان وجدوا فلأنهم نسيج في وحدة المجتمع ككل ، لا لكونهم منقطعين عن وسطهم الاجتماعي في عوالم اخرى حتى يحدث التجلي فيعودون الى وسطهم لأحداث الطفرة •

لذلك لم تفلح صيغة « الانقطاع والعودة » التي جسد توينبي فيها تصوره لطبيعة البطل وعمليات التحول التاريخي ، لم تفلح في تقديم نسق فلسفي يفسر تاريخ البشرية • وحتى هذه لا تنبو عن دائرة التفسير الاجتماعي للتاريخ • وحتى هذه الصيغة التوينوبية ليست من فيض عبقرية توينبي ، انما استعارها من ابن خلدون في حديثه عن النبوة والانبياء أصحاب الرسالات يقول ابن خلدون « ان للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات في لمحة من اللمحات ، وذلك بعد ان تكمل ذاتها الروحانية بالفعل ، ثم تعود النفس الى البشرية بعدما تستقبل عن طريق الملائكة الرسالة التي يوكل ابلاغها الى البشر » •• ولا يخفي على المؤرخين الأسباب التي حدت بابن خلدون الى التضارب في فكره بين المادية والمثالية ••

واذا استعار توينبي هذه المقولة وطبقها على حياة موسى وعيسى ومحمد وسير بعض القديسين والرهبان كبولس ونبركت فلا يعني ذلك

نجاحه في تقديم نظريـة تفسر تاريخ البشرية برمته فكيف يمكن تفسير الثورة الفرنسيـة والانقلاب الصناعي والاستعمار وحركة التحرر الوطني والثـورة العلميـة •• الخ وفقا لصيغة « الانقطاع والعودة » ؟؟

لقد حاول توينبي تطبيقها على حياة ميكيافيللي ودانتي وحسب ولكن أين هؤلاء وما مكانتهم في مسيرة الانسانية الطويلة ؟ لم يكونوا وغيرهم الا كما قـال توينبي نفسه « مجرد خميرة في الكتلة البشرية العادية » •

ان الشعوب ـ لا الابطال ـ هي صانعة التاريخ وتلك حقيقـة لا يماري فيها سوى اعداء الشعوب وعبد العباد ••



من وحي مهرجان توينبي

د. محمد حسين فنطر
تونس

مساهمة مني متواضعة في هـذا المهرجان التذكاري الذي يقـام اجلالا لشخصية ارنولد توينبي استسمحكم اخواني وزملائي الافاضل تقويم بعض الخواطر الذاتية أثارتها لدى قراءة بعض ما اتنجه ارنولد توينبي خلال حياة في خدمة التاريخ أي في خدمة الانسان .

ان الاهتمام بالتاريخ يفيد الاهتمام بالانسان حيث ما كان ماضيـا وحاضرا ومستقبلا وقد كان توينبي لا يؤمن بمجانية الابحاث التاريخة والتفتيش عن الماضي بل كان يؤمن بما فيه عمل المؤرخ ويرى انه لمـن واجبـات المؤرخ مواكبة العصر ومساهمة معاصريه في توضيح الرؤية واتخاذ المواقف التي تمليها عليه ما يعتقده الحقيقة وهو مستند الى ملفات جاهزة محققة . مطويا لمؤرخ حاول التحقيق في قضايا الانسان ولم يبخـل بتقديم ما يعتبره الحقيقة والحق . فلم يكن التاريخ عائـق تعرض في قاعات المتاحف ولا مجددات تتحلى لها رفوف المكتبات بل هو عمل انمائي يضاف الى شتى الاعمال الانمائيـة الاخرى غايتهـا يناعـة الانسان الشاملـة .

على أن الخواطر التي أريد تقديمها لكم تتعلق بالانسان والحضارة ان قراءة بعض ما مر به تفكير توينبي جعلني اعتقد راسـخ الاعتقاد ان الحضارة في مدلولها العام الشامل هي تنيجة لقـاء الانسـان بالمحيط

واعطي منا لكلمة حضارة مدلولها الموضوعي دون ما تقييم دون ما حكم لها ولا عليها فهي اذن وليدة الانسان والمحيط بالمعنى الفسيح بابعادة الافقية وابعادة الشاقولية المادية والغير مادية •

فالنتيجة المنهجية التي نستخلصها مما سبق هو أن الحضارة تتحول بتغيبي احدى العنصرين الاساسيين وهما الانسان والمحيط فيما ان تغير احدهما الا وطرأ تغيرا حتميا على الوليد أي على الحضارة •

ففي العصر الحجري القديم السفلي تم لقاء بين المحيط وانسان لم يستكمل اذ ذاك انسانيته فكانت النتيجة حضارة لها ملامحها الخاصة منها مجاراة كيفت وسخرها ذلك ان الانسان البدائي لصالحه وبسط نفوذه على المحيط أو بعض ذلك المحيط • فتلك الحجارة المكيفة المشكولة ان صح هذا التعبير مظهر من مظاهر حضارة ذلك الانسان البدائي • وبتطور ذلك الانسان تتطور الحضارة ظرفا ومظروفا وكذلك الشأن عند تطورالمحيط من حيث المناخ والتضاريس مثلا فكان العصر الحجري الحديث وغزو المعادن والكتابة وكلها نتائج لقاء الانسان بالمحيط ولا فرق مبدئيا بين المواليد جميعها فالحجرة التي كيفها او قد شكلها الانسان البدائي لا تختلف من حيث هي حضارة عن الاقمار الصناعية التي تجوب الفضاء وتقضي على المسافات •

وهذه الرؤية للحضارة تسقط تل الفوارق بين الانسان وأخيه الانسان فهو حيوان حضاري شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وما الفوارق الى عناصر ظرفية مكتسبة واكتسابها ميسر مبدئيا للجميع وهنا نلتقي بقولة أرخميد Arclimede « اعطني نقطة ارتكاز ارفع لك العالم » • ما الفوارق الحضارية من حيث الألوان والأشكال والقدرات لا تتضمن تفوقا جذريا وجوهريا تمتاز به طائفة من البشر على طائفة اخرى أو عرق على عرق وان ثبت علميا ان لا وجود للعرق الصريح باعتبار تمازج السلالات البشرية منذ أقدم عصور تواجدها على هوة الأرض فالحضارة

جوهر ومظاهر فالجوهر هو الانسان والمظاهر ظرفية • وفي الجوهر معنى الخلود والمظاهر الظرفية تزول وتتحول وتكتسب وتضيع ما دام الانسان هو الجوهر فلنجهزه حتى يكتسب ما يكتسب ولا يفرط في مكتسباته ونجعله واعيا ذهنيا وعمليا بقيمة ومفعولية ما لديه وما ليس لديه فهي لعمري رؤية تبدد سحب اليأس وتكسر اغلال مركبات النقص وعدم الايمان بالذات فهي الايمان بالانسان وسمو الانسان بالايمان والمتخلفون قوم خوت قلوبهم من الايمان •

واستنادا الى ما سبق ذكره يتحتم اسقاط تلك النظريات التي تصنف المجتمعات البشرية الى منتجين ومستهلكين جبلة اي الى مجتمعات قادرة جبلة على خلق الحضارة ومجتمعات مقصورة جبلة على استهلاك الحضارة وهذه النظريات الخاطئة الضالة قد قولبت الدراسات التاريخية طيلة قرون سميا لما تبوأ الغرب الاوروبي عرش السيادة الاقتصادية والتكنولوجية وبالتالي عرش السيادة السياسية فلو استعرضنا على سبيل المثال الرؤية الغربية لتاريخ شمال افريقيا لتبين لنا ان الذين كتبوا تاريخ هذه الرقعة من العالم العربي جعلوا منها مسرحا لحضارات تعاقبت عليها فتراهم يثبتون انها كانت مرتعا للحضارة الفينيقية وللحضارة الرومانية وللحضارة البيزنطية بعد الغزو الوندالي ثم للحضارة الاسلامية وكأن بلاد المغرب العربي الكبير لم تكن سوى وعاء استوعب هذه الحضارات على التداول دون ان يكون لسكانه الاصليين مساهمة تذكر• وكأنهم أخذوا ولم يعطو شيئا وكأنهم اكتفوا باستهلاك ما تقدم اليهم من غذاء حضاري دون ان يساهم في تهيأة ذلك الغذاء لا من حيث عناصره ولا من حيث طهيه ان قراءة كتابات تويبني توحي بطرح تلك النظريات الجائرة وتعطي كل ذي حق حقه وتجعل من الحضارة نتيجة عمل مشترك متعدد الاطراف ونتيجة جهود كتب لها ان تتظافر او حملتها الظروف على التظافر والتعاون والتلاقح •

كانت كتب التاريخ في تونس تقدم لنا الحضارات التي تعاقبت في

بلادنا كالفينيقية والرومانية والعربية الاسلاميـة كالبضاعات الجاهزة أو كالمصنوعات الجاهزة آت بها الاجانب من غـزاة وفاتحين واستخدموها لمصالحهم واستفاد منها أهل البلاد احيانا • ان قراءة ما كتبه توينبي توحي بعكس ذلك بل فيها ما يشير الى مساهمة من وقع غزوهم عسكريا أو حضاريا لأن في الأخذ عطاء •

ويترتب على ذلك اعادة قراءة التاريخ حتى يتم ابراز كل العناصر التي يتركب منها النتاج الحضاري وقد تكون دخيلة وقد تكون أصيلـة بل لا يتأصـل النتاج الحضاري في محيط بشره ما الا اذا يساهم ذلـك المحيط في سبكه وقد ترتدي تلك المساهمة اشكالا وألوانا مختلفة وتتبوأ مستويات مختلفة •

كان المؤرخون الغربيون ينكبون على دراسة الحضارة الرومانيـة في تونس باعتبارها حضارة دخيلة لا نصيب منها لأهل البلاد باستثنـاء الاستهلاك وأي استهلاك فعلى ضوء نظرية المساهمة التي أشرت اليهـا من حين تبين ان للحضارة الرومانيـة في تونس مثل ملامحها الخاصـة ملامح اعطتها خصوصية تونسية ان صح هذا التعبير ومعنى ذلك ان لهذه الحضارة الرومانية في تونس عناصر ساهمت في تركيبها الكيماوي تعود الى المحيط التونسي فاذا تمعنت في الهندسـة المعمارية أو في ألـواح الفسيفسـاء أو في الادب أو في المعتقدات لمست فيها ما لا يمكن ارجاعه الى اصول لاتينية يونانيـة بحتة بل هي عناصر من تقويم المحيط بمدلوله الفسيح العميق بل هي مساهمة المجموعة الأقلية • فاستعان بها والمساهمة في سبكها أصبحت الحضارة الرومانية حضارة البـلاد في ذلك العصر السحيق • فالبنايات التي ما زالت أطلالها بيننا وألواح الفسيفساء التي تتحلى بها متاحفنا ومؤلفات القديس أوغستنوس كلها من نتاج المغاربـة الأفارقة سبكوها بعقولهم وعواطفهم وأيديهم ففي كل مظهر من مظاهر هذه الحضارة في بلادها المغربية تجد بصمات المغاربة فهي طابعها الذي يسبي الى مساهمتهم في تصورها وتطويرها فكأنهم أخذوا طفـلا لاتينيا

وأضافوا اليه طفلا محليا ثم صوروه أوعية مختلف الأشكال والوظائف بلمساتهم الخاصة فلا بد للمؤرخ الباحث اذن من التنقيب عـن عناصر المولود الحضـاري ولا بد له من القيام بعمليات تحليلية كيماوية تساعده على فصل العناصر المختلفـة وعزلهـا حتى يتعرف اليها او يتعرف على هويتها ومغبتهـا .

وعلى هذا الاساس تبدو الرومنة « La romani te» حضارة انتجتها شعوب مختلفة شأنها شأن النهر الكبير الذي يتزود بميـاه روافد مختلفة وعديدة فعلى المؤرخ اذا يقف عند النهر وينسى مساهمات الروافد على ان الخصوصيات والمساهمات المختلفة لا تنفي الوحدة بل في الخصوصيات اثراء والبحث عنها يقرب المؤرخ من الحقيقة وفيه اعتراف بحقوق الانسان ورفع لمنزلته اذ لا يجعل منه المستهلك المتواكل بل يبرز مساهماته مهما كانت متواضعة في رأيه وفي هذا طرد سبعه العنصرية والتفوقية التـي تصنف الناس الى منتجين حبلة ومستهلكين حبلة .

من هو مؤلف الروض المعطار في خبر الاقطار

الدكتور صالح الحمارنه
الجامعة الاردنية
كلية الآداب / قسم التاريخ

تعليق على الطبعة الكاملة لكتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، تأليف ابن عبد المنعم الحميري ، تحقيق احسان عباس* .

ان اول اشارة الى كتاب « الروض المعطار في خبر الاقطـار » في الدراسات الحديثة كان من قبل المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال وذلك في مؤتمر المستشرقين العالمي الذي عقد في مدينة ليدن عام ١٩٣١ ، فقد لفت الاستاذ ليفي بروفنسال الانظار الى وجود مخطوط لمعجم جغرافي تاريخي عنوانه : « الروض المعطار في خبر الاقطار » [١] . ثم حقق الاستاذ بروفنسال كل ما يتعلق ببلاد الاندلس (والبرتغال) وجنوب فرنسا ونشره في القاهرة عام ١٩٣٧ تحت عنـوان : « صفة جزيـرة الاندلس » منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، ثم ترجم النص العربي الى الفرنسية وضمه في كتاب واحد عام ١٩٣٨ [٢] .

ومنذ ذلك الحين حاول عدد من الباحثين ان يحققوا اجزاء اخرى من كتاب الروض المعطار صغيرة كانت او كبيرة ونشرها ومثال ذلك ما قام

---

* صدر عن مكتبة لبنان معجم جغرافي تاريخي بعنـوان « كتـاب الروض المعطار في خبر الاقطار » . من تأليف محمد بن عبد المنعم الحميري . وقد حقق هذا العمل الكبير الدكتور احسان عباس استاذ اللغة العربية وآدابها في الجامعة الاميركية في بيروت ـ لبنان .

به البرفسور ليفتسكي ، امبزنوريتزيتانو ، وكاتب هذا التعليق (٣) .

اما عمل الاستاذ احسان عباس والذي نحاول هنا ان نقدمه للقارىء الكريم فهو يشمل « كتاب الروض المعطار » كاملا وقد وقع الكتاب في ٧٤٥ صفحة من الحجم الكبير وجاءت الطبعة جيدة وعلى ورق أبيض صقيل وقامت بطبعها دار القلم للطباعة ــ لبنان .

لقد قام الاستاذ المحقق بتقديم الكتاب ببحث عميق وشيق ضمنه خلاصة دراسته لمخطوط الكتاب بشكل شامل وتعرض لاكثر الدراسات التي قام بها الباحثون المحدثون .

ان ابرز شيء في تحقيق الاستاذ عباس لكتاب الروض المعطار هو دراسته الدقيقة للسفر كله فقد تعرف من خلال دراسته لمتن الكتاب على مضمونه وحاول كذلك ان يتعرف على الكاتب نفسه سيما وان التراجم لم تذكر شيئا مهما عن تفاصيل حياة الحميري ولقد استطاع الاستاذ المحقق من خلال هذه الدراسة الدقيقة ان يرد المتن من السفر الى مصادره الاولية التي استقى منها الحميري معلوماته ، وهذا بالذات جهد كبير يستحق كل تقدير ، ثم ان المحقق ساق كثيرا جدا من الملاحظات والتعليقات الغنية والقيمة كلما اقتضى الحال ذلك لتوضيح المعنى وشرح المتن ثم أتبع الاستاذ عباس هذا كله بفهارس عدة اغنت الكتاب وجعلت تناوله على القارىء سهلا وميسورا ..

اما الفهرست الاول فهو في اسماء الاماكن التي جاء ذكرها في الكتاب والثاني في اسماء الاعلام ، والثالث في اسماء القبائل والامم وفهرست في اسماء الكتب التي جاء ذكرها في المتن وفهرست في قوافي الاشعار التي وردت في المتن .

ثم اعقب ذلك كله بقائمة واسعة باسماء المصادر التي استفاد منها المحقق في كتابة المقدمة وفي تحقيقه متن الكتاب .

ان أول قضية اعترضت كل من أراد البحث في كتاب الروض

المعطار .. او التقديم له هي قضية مؤلف الكتاب . ترى من هو مؤلف الروض المعطار الحقيقي ؟

هل هو عبدالله محمد بن محمد الحميري المتوفى سنة ٩٠٠ هـ ؟ ام هو ابو عبدالله محمد بن عبد المنعم الحميري ؟ دون ذكر لسنة الوفاة كما جاء في كتاب كشف الظنون [٤] .

لقد عالج هذا الموضوع بشيء من التفصيل كل من الاستاذ ليفي بروفنسال والاستاذ ريتزيتانو وخلص الاستاذ بروفنسال الى القول بوجود مؤلفين اثنين لكتاب الروض المعطار كل منها ينتسب الى حمير . قام اولهما بكتابة صورة اولى من « الروض المعطار » . وقام الثاني بانتحال عمل الاول . وربما اضاف اليه شيئا من دون ان يذكر ما للمؤلف الاول من فضل عليه [٥] .

اما امبرنوريتزيتانو فيقول : « ان مؤلف الروض المعطار .. » شخص واحد هو ابو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله ابن عبد المنعم الحميري المتوفى ٧٢٣ هـ او ٧٢٧ هـ [٦] والى هذا الرأي يذهب ايضا الاستاذ احسان عباس في مقدمته لكتاب الروض المعطار [٧] .

وحتى تتضح للقارىء هذه النقطة الهامة علينا ان نذكر هنا وبايجاز شديد أهم الدلائل التي أوردها الباحثون السابقون بهذا الصدد .

ذكر القلقشندي صاحب كتاب « صبح الاعشى » الذي انتهى من تأليفه عام (٨١٤ هـ ١٤١٢ م) ، كتاب الروض المعطار واعتمده كواحد من مصادره الجغرافية [٨] . فعليه لا يمكن ان تتأخر وفاه الحميري مؤلف الروض المعطار حتى سنة ٩٠٠ هـ . فاذن لا بد ان يكون مؤلف هذا الكتاب ممن عاش قبل مطلع القرن التاسع الهجري على أقل تقدير ..

يقول الاستاذ عباس : « ان ذكر حاجي خليفة له مرتين يعني انه اطلع على نسختين : احداهما ذكرت اسمه كاملا والاخرى ذكرت اسمه موجزا ولما كان حاجي خليفة ــ وهو منسق ببليوغرافي ــ غير

مسئول عن تحقيق الفرق بين الاسمين فاثباته ما اثبته امانة دقيقة منه في عمله [٩] .

وقد حاول غودفروا ـ ديمومبيين ان يفسر ذكر حاجي خليفة سنة ٩٠٠ هـ تاريخا لوفاة المؤلف ، بان هذا يعود لخطأ شائع في المخطوطات العربية التي تخلط بين كلمة « تسعماية » و « سبعماية » ووافقه على ذلك الاستاذ ريتزيتانو [١٠] .

اذن كل الدلائل تشير الى ان مؤلف كتاب الروض المعطار هو محمد بن عبد المنعم الحميري المتوفي في النصف الاول من القرن الثامن الهجري وهو ذلك الحميري الذي وجد ليفي بروفنسال ترجمة لحياته ولو بسطور بسيطة نزره في كتاب « الاحاطة » للسان الدين ابن الخطيب [١١] . ووجدها ريتزيتانو في سطور أقل منها في كتاب « الدرر الكامنة » لابن حجر والذي يذكر ان وفاة ابن عبد المنعم الحميري كانت سنة ٧٢٧ هـ [١٢] .

ان الذي يتصفح باتنباه كتاب الروض المعطار يرى ان التركيز فيه على الحوادث التاريخية التي وقعت في القرن السابع ومطلع القرن الثامن الهجريين ، ففي بلدان غرب الخلافة يتحدث عن دولتي المرابطين ثم الموحدين وبعض الدويلات الصغرى الاخرى التي قامت في بلدان المغرب . اما في المشرق فهو يتحدث عن الهجوم التتري على بلدان الخلافة الشرقية وفي بلدان السواحل السورية يتحدث عن انحسار الوجود الفرنجي « الصليبي » في الشواطيء السورية الفلسطينية .. من كل ما تقدم نرى انه ليس هناك ما يعطل نسبة الروض المعطار الى ابن عبدالمنعم الحميري وان لم يحاول المؤلف في كتابه ان يبرز موقفه من ناحية الاحداث فالحميري كما يصفه الاستاذ احسان عباس : « لا نجد انسانا شديد الحرص على انكار ذاته كما نجد الحميري ، وكأنه يقول بلسان الحال : أريد ان ارتب معجما جغرافيا معتمدا في ذلك على الانتقاء من عدد معين من المصادر . دون ان يكون لي أي رأي ذاتي او عرض لتجربة خاصة » [١٣] .

غير ان هذا القليل الذي يتعدى فيه الحميري مطلع القرن الثامن للهجري يدعو مع كل ذلك للتساءل فبالاضافة الى ملاحظة حاجي خليفة صاحب كشف الظنون بوجود حميري آخر توفي عام ٩٠٠ هجري ... فقد ورد كتاب « هداية العارفين » تأليف اسماعيل البغدادي ما يعزز هذا الرأي ، فقد ذكر البغدادي عن الحميري ما يلي : محمد بن محمد بن عبدالله ابن عبد المنعم شمس الدين ابو عبدالله الحميري الذي توفي في سنة ٩٠٠ للهجرة ، كتب الروض المعطار في ذكر المدن والسير والاخبار وهو الكتاب الوحيد الذي وجدته له* (١٤) .

امام صمت التراجم ، ونزر المعلومات عن الحميري وعن حياته وعن أعماله لا نجد امامنا الا الرجوع الى كتابه نفسه « الروض المعطار » علنا نجد فيه ما يفي بالغرض ويشفي الغليل ..

فاذا ما تصفحنا الكتاب فاننا نعثر على بعض زيادات حدثت بعد نهاية القرن السابع الهجري . من هذه الزيادات ما جاء عند ذكر مدينة ايله : « والتي اصلحها الاشرف قانصوه الغوري آخر ملوك الجراكسة ** من جملة ما أصلح في طريق الحجاج ، في أواخر عمره قبل العشرين والتسعماية » .

وجدير بالذكر انه يوجد نقش على بوابة قلعة العقبة والتي تقع عند مدخل المدينة فيه اسم قانصوه الغوري وبجانبه تاريخ يرجع الى ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م (١٥) .

ونحن نعلم ان قانصوه الغوري اهتم بالعقبة لوقوعها على طريق الحج والتجارة (١٦) .

والحميري يصف مدينة ايله « ينزلها اليوم قوم من بني امية وأكثرهم موالي عثمان رضي الله عنه كانوا سقاة الحاج ، وبها علم كثير وآداب ومتاجر وأسواق عامرة ، وهي كثيرة النخل والزرع » . مما يدل على أنها كانت مدينة عامرة نشطة .

في حين ان الادريسي الذي يستقى منه الحميري معلوماته في أكثر

الأحيان يصفها في كتابه نزهة المشتاق وكأنها قرية صغيرة خاملة فيقول : « أيله قرية صغيرة يأتيها البدو لقضاءحاجاتهم » (١٧) •

ويذكر الحميري مدينة الرملة في كتابه مرتين مرة تحت حرف الف ومرة اخرى تحت حرف الراء ـ كما هو مفروض ـ وذكر في الوصف الاول « الرملة احدى مدن الشام وهي مدينة عامرة بها أسواق وتجارات ودخل وخرج ، ومنها الى يافا التي على ساحل البحر نصف يوم ، ومن الرملة الى نابلس يوم ، ومنها الى قيساريه مرحلة » • مأخوذ من نزهة المشتاق كما عودنا الحميري اما الوصف الثاني فهو : « الرملة بالشام ، سمتها الرملة لما غلب عليها الرمل وهي من كور فلسطين وبينها وبين القدس ثمانية عشر ميلا ، ومدينة الرملة واسطة بلاد فلسطين ، وهي مسورة ولها اثنا عشر بابا ، القدس ، وباب عسقلان ، وباب يافا ، وباب يازور ، وباب نابلس ، ولها أربعة أسواق متصلة من هذه الأبواب الى وسطها وهناك مسجد جامعها ، فمن باب يافا يدخل في سوق القماحين حتى يتصل بمسجد جامعها ، وهي سوق حسنة يباع فيها أنواع السلع ويتصل بباب القدس سوق القطانين الى سوق المشاطين الكبار الى العطارين الى المسجد ، الجامع ويتصل سوق الخشابين من باب يازور ثم سوق الجزارين ثم الشاقين الى المسجد الجامع ، ويتصل سوق الخشابين من باب يازور بآخر من أسواقها : سوق الأكافين وسوق الصياقلة ثم سوق الراجحين الى المسجد الجامع ، ويقال ان الرملة اربعة آلاف ضيعة بين الرملة وايليا ثمانية عشر ميلا في صحار ووهاد •• » •

هذا الوصف وجدته يطابق ما جاء في كتاب « الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل » تأليف ابن مجير الدين المتوفي سنة ١٤٦٣ م ن (١٨) • وان المصادر التي عودنا عليها الحميري لم تذكر ذلك ، فاذا صح ان هذا النص مأخوذ عن ابن مجير الدين فلا شك اذن انه جاء على يد حميري آخر متأخر ••

وعند ذكر مادة زلاقة التي استرسل الحميري في الحديث عنها يقول في النهاية : « قال مؤلف الكتاب رحمة الله عليه : خالفت بشرح هذه الوقيعة شرط الاختصار لحلاوة الظفر في وقت نزول الهمم ووقوعها في الزمن الخامل » •• قال مؤلف الكتاب رحمة الله عليه !! ان استنزال الرحمة على مؤلف الكتاب لا بد أن تأتي من كاتب آخر يترحم على سلفه ألا وهو الحميري الثاني الذي عاش في الزمن « الخامل » هذا الزمن المختلف عن زمن الحميري الأول الحميري الشيخ العمدة الذي كان زمنه زمن تقدم للمسلمين فقد أخذوا فيه يطردون الافرنج الصليبين من البلاد المقدسة وكانت الأندلس ما زالت عامرة وقوية بيد المسلمين ••

في حين ان زمن الحميري الثاني هو زمن خامل فعلا فيه خرج العرب من الأندلس بعد عذاب واضطهاد كبيرين •• وكذلك سقط حكم سلاطين مصر والشام تحت ضربات الأتراك العثمانيين ••

من كل ما تقدم ، واعني من الملاحظة التي ذكرها كل من حاجي خليفة والبغدادي ومن الزيادات الطفيفة التي وردت هنا وهناك في متن كتاب الروض المعطار نستطيع ان نسوق الرأي التالي : ان مؤلف الكتاب الأصيل هو الشيخ العمدة ابو عبدالله محمد بن عبد المنعم الحميري الذي فرغ من كتابه أو معظمه مع نهاية القرن السابع الهجري أو بداية القرن الثامن الهجري ••

اما أبو عبدالله محمد بن محمد الحميري والمتوفي حوالي ٩٠٠ هـ فهو ولا شك الذي اضاف بعض الزيادات ونعتقد أيضا انه قام كذلك باختصارات كثيرة اساءت للكتاب الأصيل كثيرا • فقد ادّعى الكتاب لنفسه اذ ربما انه من احفاد الحميري الأصيل وورث نسخة الكتاب فيما ورث عن سلفه وادعاه اعتباطا لنفسه ، ونحن هنا لا نستطيع ان نعده الا في جملة النساخ لا أكثر ولا أقل ••

اما من حيث المخطوطات التي استعان بها الاستاذ احسان عباس

في تحقيق كتاب الروض المعطار فقد اشار الى مخطوطتين كاملتين نسخة موجودة في مكتبة بيرم باشا التابعة لنور عثمانيــة وتحمل رقم (٤٤) والنسخة الاخرى كانت ملك المرحوم الشيخ محمد نصيف بجدة •

وقد نقلت عن نسخة مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة وكان الانتهاء من نقل نسخة المدينة سنة ٩٧٠ هـ • والنسختان تتقاربان الى حد بعيد ، وهذا التقارب يوحي بالقــول انهما اعتمدتا على اصل واحد • وهناك أيضا نسخــة اخرى ناقصة لكتاب الروض المعطار لم يشر اليهــا الاستاذ عباس تنتهي عنــد حرف (ز) ومكتوبــة بالخط النسخي علــى الطريقة المغربية وهذه المخطوطة وجدت في مدينة مكنس وهي الآن في معهــد الدراسات الاسلاميــة في جامعــة باريز • هــذا والاستــاذ بروفنســال قد أشار في مقدمته « صفة جزيرة الاندلس » ــ المذكورة سابقا الى وجود عدة نسخ يظهر انها قد اتلفت اثنــاء الحرب العالمية الثانيــة •

وأخيرا لا شك ان الاستاذ عباس قد قــام بعمل جليل في تحقيقه هذا المعجم الجغرافي التاريخي الكبير الــذي يمكن اعتماده ــ رغــم عدم اصالتــه ــ كمصدر هام للاحداث التاريخية خاصة تلك التي وقعت في القرن السابع وبدايــة الثامن الهجريين في شرق الخلافــة كما في غربهــا • ومع هذا أقول مع الاستاذ المحقق : « ليس من الضروري ان نغالي في تقييم « الروض المعطار » • فان مهمته لا تتعدى شيئين :

> انه يشبه ان يكون نسخة ثابتة من كل مصدر نقل عنه ، وهو في هذه الحالة يصحح أحيانا بعض النصوص في تلك المصادر، كما انه احتفظ عبارة عزيزة تدور حول أحداث القرن السابع ربما طــال بنا الزمن قبل العثور على مصادرها • وبمادة مما لا يزال مفقودا من مسالك البكري ، وخاصة فيما يتعلــق بجغرافية القارة الاوروبيــة والاندلس [١٩] • وأيضا فيمــا يتعلق بافريقية •

وبعد •• فهذا عمل مشكور قــام به الاستاذ الفاضل احسان عباس أمد الله في عمره لنرى أعمالا كبارا أخرى له •

الهوامش

1 — E. Lévi-Provençal, Actes du XVIII International Congres des Orientalistes, Leyde 1932, p. 138-40.

2 — E. Lèvi-Provençal, La peninsuie Iberique au Moyen Age d'après le Kitab ar-Rawd al-Mi'tar fi Haber Al-Aktar d'Ibn, Abd-al-Mun'im al-Himyar, Leyde 1938.

3 — Umberto Pizzitano, Kitab al-Rawd al-Mitar li Ibn Abd al-Mun'im al-Himyar, Khassa bi-I-Djuzur wa-I-bika al-Italiyya, fi Mad-jattal Kulliyyat al-Adab, XVIII, Cairo, May 1956.
ch. Pellat, Documents et notices, Extraits d'une notice inedite sur Basra. «Arabica», 1954, t. I, fasc, 2, pp. 213-215.
T. Lewicki, Braga et Miska d'après une source arabe inedite. «Folia Orientalia», time I, fasc, 2 (1959), Cracovie 1960, p. 322.
M. Malecka, La côte Orientale de l'Afrique au Moyen Age d'après le Kiteb ar-Rawd al-Mi'tar de al-Himyar (XXeS.), «Folia Orientaia», tome IV, Cracovie 1964.
S. Hamarneh, The description of Damascus in the ar-Rawd al-Mi'tar by al-Himyar. «Folia Orientalia» tome IX, Cracovie 1968, pp. 275-290. — An unpublished description of Jerusalem in the Middle Ages, «Folia Orientalia», tome IX, Cracovie 1970.

٤ ـ حاجي خليفة : كشف الظنون في اسماء الكتب والفنون تحقيق ليفيقال F. Flügel ص ٥٨٠ .

5 — Saleh Hamarneh: Are There one of two Authors of The work Ar-Rawd al-Mi'tar By Al-Himyari. Folia Orientalia Tome XII Cracow 1970. p. 79.

٦ ـ امبرتوريتزيتانو : منتخبات من كتاب الروض المعطار .. عن مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة .
المجلد الثامن عشر جزء اول سنة ١٩٥٦ مايو ص ١٣٥ .

٧ ـ احسان عباس : مقدمة كتاب الروض المعطار .. بيروت صفحة « ل » .

٨ ـ احمد القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشاء القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ ، جزء ٤ ، ص ١١١ .

٩ ـ احسان عباس ن . م . صفحة ز .

١٠ ــ لفي بروفنسال : مقدمة صفة جزيرة الاندلس . الترجمة الفرنسية ص ١٥ . ومقدمة ريتزيتانو ص ١٣٢ .

١١ ــ لفي بروفنسال : ن . م . ص ٢٧ ــ ٢٨ وكتاب الاحاطة النسخة الكتانية بالرباط رقم ٢٧٠٤ ورمزها (ك) الصفحة ٥٤ .

١٢ ــ ابن حجر ، الدرة الكامنة م : (١٥ رقم ٢٩٥٠ ــ ط القاهرة)

١٣ ــ احسان عباس : مقدمة الروض المعطار صفحة م .

١٤ ــ اسماعيل البغدادي : هداية العارفين اسطنبول ١٩٧١ جزء ١١ ص ٢١٧ .

* ــ ولم يشر الاستاذ عباس الى هذا الكتاب .

** ــ حكم قنصوه الغوري الثاني من ١٥٠٠ ــ ١٥١٦ ميلادي ، ولكن آخر سلاطين المماليك الجراكسة هو الاشرف تومباي الثاني الذي حكم (١٥١٦ ــ ١٥١٧) م .

١٥ ــ لانكستر هاردنج : آثار الاردن عمان ١٩٧١ ص ١٧٢ ، تعريب سليمان موسى .

١٦ ــ ابن اياس : بدائع الزهور ٤ : ١٣٣ ، ١٥٢ ، ٥ : ٩٥ .

١٧ ــ الادريسي : نزهة المشتاق . تحقيق براندل ايسالا ١٨٩٤ ص ١٦ ــ ١٧ .

١٨ ــ ابن مجير الدين عبد الرحمان : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، القاهرة ١٨٦٦ . ص ٤١٦ ــ ٤١٧ .

١٩ ــ احسان عباس : المقدمة صفحة ص .

or historical are not greatly illuminated by his philosophy of History. Toynbee in this regard may well have been no unique. I know of no comparable American example. His intellectual powers would probably have been too forbidding for an American establishment group to have named him to this highest research chair in a foreign policy center. His ability to defer to rather ignorant men who happened to hold financial or political power was surely less than that of some Americans. It may also be that historical studies occupy a different place in Britain and the U.S.A. and if so, so much the worse for America. Unless any nation including the Arab nations is continually alert to the danger, it may brush aside the mighty contributions objective and incorruptible minds can make to its destiny and blindly follow those who are so busy gaining power they have no time to think. In any event Toynbee's contribution is universal. The lessons to be drawn from his findings are worthy of reflection and study within every culture. The modesty of his formulations make us return to his laws again and again not as a statement of absolute truth but as pointers to what must be wighed and considered.

This is true of his History but true as well of his concepts of war and peace which have enduring value for social scientists and policy-makers.

least in a rough and ready reckoning based on France's recovery following the Napoleonic wars. As Toynbee stated this law and illustrated it: «The position of France after the general war of 1792-1815 declared itself when the Bourbon Restoration was supplated by the Orleanist regime of Louis Phillip through the revolution of July 1830, in the 15th year after the decisive military defeat of Napoleon at Waterloo. The post war recuperation of Germany after the General War of 1914-18 declared itself in the 15th year after the capitulation of the Prussian General Staff». (Survey of International Affairs, 1933, p. 11). One final illustration of Toynbee's laws of war and peace relates to conflict between more or less antagonists. In any protracted struggle the latter usually enjoys decisive advant ages. The reasoning supporting this law has special relevance to mass societies and democracies. The civilized nations has greater ability to mobilize moral, spiritual and material energy in a crisis in war and peace. In peace this ability accounts for the advance of such civilized nations. In war it condemns such a nation up to spend its blood and treasure and totally commit itself psychologically to the point of self destruction. After the first world War in 1918 Germany lay prostrate for over a decade having spent its resources and energies. Russia and Turkey were enabled to retrieve their losses in war in the space of a few years, a backward country is less likely to consume its full moral and national energy in war and therefore retains a margin of power for bold new adventures and programs. It is interesting to ask to what extent this law accurately describes the position of Great Britain and the U.S.A. after world war II and to what extent they can be resisted by a nation resources and capacity for renwal.

What is most revealing about Tobnbee's laws of war and peace is the equal likelihood they will be set forth in his contemporary diplomatic writings as in his History indicating the extent to which his two worlds of thought interpenetrate and are connected. It is fair to question, however, whether Toynbee, the student of British or American foreign policy is not sometimes carried away by his bent to generalize as expressed is History. Some of laws appear to have the character more of moral maxims than universal prinples. However no one can see that the problems he discussed whether current

from the ordinary course of history». (Survey of International Politics, 1937, p. 133) states which occupy the homeland of any civilization sooner or later are dwarfed and dominated by a new order of emerging great powers which rise up on the fringe.

One other end for our purposes the most significant type of laws are those relating to war and peace, curiously enough, Toynbee's views of war and peace fall into a third class of laws of descending order of generality. Some of his propositions have peculiar relevance for the modern western industrial age. Thus he observed: «if old institutions of struct the action of new social forces without ultimate success, the degree of violence of the eventual revolution is proportionate to the time span of its retardation.» (A Study of History, Vol. IV, p. 189). In this sense, the American revolutionary war could be considered similar to those wars Gibbon characterized as, «temporate and indecisive contests of the eighteenth century. The outbreak of nationalist wars in Latin America. Italy and Germany in the 19th cent, took far heavier tolls because of their retardation and today's uprisings in Eastern Europe and South West Asia have shattered two empires and threatened western civilization. It is fair to ask Toynbee whether one important qualification to this law may reside in the immense power of the organized state with its monopoly over the means of power and violence and its resistence to forces of change.

A strategic law of war and peace which mighty empires overlook at great price is that of everextending one's power or in Toynbee's words, «on a stationary military frontier between civilization and a barbarian time always works in the barbarian's favor; and, besides this, the barbarian advantage increase (to borrow Malthus famous mathematical metaphor) in geometrical progressism at each arithmetical edition to the length of the line which the defenders of the civilization have to hold» (ibid, Vol. 2, p. 283). Those nations including my own whose beginning have become over-extended might better has studied Toynbee than build more centers of strategic natures. Another law has to with the recovery of great nations following major wars. The eventual recovery of Germany following World War I might have been forecast at

It is worth noting that Toynbee's approach drew fire from some of the most renounced western historians. For instance Charles Beard wrote, «... no meaning can arise from such comparisons, even assuming that there are such classes of societies an assumption based on a physical analogy (Charles Beard Review of a Study of History», American Historical Review, XL (January, 1935), p. 308). From the opposite pole on the spectrum, the historian Buckle would have gone much farther than Toynbee saying that uniformity in nature provides a basis for predicting in advance the character of relations which individuals will have. For example, «the food of a people determines the rate of their wages...when the wages are low... the distribution of political power and social infiluence will be very unequal also.. (Henry Buckle, Introduction to the History of Civilization in England, (New York, 1952), Vol. 1, p. 39). Another type of law is the balance of power in the sphere of political dynamics which «comes into play whenever society articulate into a number of notable independent local states». (Toynbee, A Study of History, Vol. 111, p. 301). All political constellations in which multiple units carry on relations are characterized by the operation of this principle. Toynbee would seem to have been in accord with Admond Burke who wrote, «The balance of power had been ever assumed as the common law at all times and by all powers. «Since 1930, Toynbee found one aspect of this common law especially intriguing. Throught much of history the balance of power appears to have shifted from the center of any political system to its periphery. Europa can decline in world politics after World War I can be comprehended in these terms and he made the comparison in the third century B. C., we see the city states of Greece an Athens, a Sparta, a Sicyon, a Rhodes developped by a ring of outer powers which owed their own vitality to Hellinism a Macedon, a Syria, an Egypt, a Carthage, a Rome...In the Far Fastern exterimity on the old world, we shall perceive the little states in the centre- a song, a chou, a lu- which had been the seedbed of Chines culture, on the point of succumbing to the great powers on the periphery; tòu, a chu, a tsien. From these analogies, it would appear that the plight in which Europe found...itself was not after all an unprecedented departue

dom of Man» the great Russian historian Michael Rostovtzeff, in the final chapter of «A History of the Ancient World, developed the concept of an internal and external prolitaréte Toynbee acknowledged these infiluences in an interview he gave me on December 2, 1950, but added that he got the idea of challenge and response from the poet Browning and that he also drew upon the thought of Turgot as reflected in the writings of Tegart

1. Laws of History and politics, war and peace:

Toynbee's contributions to the theory of international politics is illustrated in his «Laws of history and Politics, war and Peace» Toynbee followed Morris Cohen in his attempt to set forth such principles behaving as Cohen put it: « The absolutely unique, that which has no element in common with anything else is indesirable, since all description and all analysis are in terms of predicates, class concepts, or repeatable solutions», (Morris Cohen, The Meaning of Human History (La Salle, Illinois, 1947), p. 84). Toynbee had no doubt that for him this was a central point saying, «May not it mean that we ought all of us to give far more time and far more strenous and serious thought than many of us have ever give to this job of forming one's general ideas?» (Toynbee, Pieter G. P. Sorokin, The Pattern of the Past, (Boston, 1949) pp. 90-91). In the general area of history, Toynbee proceeded on the assumption that historical events displayed sufficient siclarity to warrant treating them as the representatives of a class of events, for example the American Civil War was in some respects a member of the same class of events as the Bismarkian wars of 1964-71. In both cases what was involved was the prospect that an imperfect political union would dissolve alltogether. Both confilicts were decided by war and after the war a great increase in industrial activity took place. In a limited but important sense neither struggle has to be considered as comprising seperate and isolated events but rather as a particular type of event. Again the federal forms of government in Great Britain, America and Germany and later in Canada, Australia, South Africa and Brazil possesed enough common elements to deserve the formulation of certain general principles.

concerned with what was current and the foreign policy establishment who must have been puzzled and sometimes ill at ease in the world of the universal historian.

It would be difficult to exaggerate the importance of Toynbee's example in demonstrating that the historican can contribute both to world history and contemporary international politics. His historiography gave clues to the social scientists as when he wrote «In methodology what I am trying to do is to apply the seconditific notion of law regularly and recurrence to the history of human affairs and find out experimentally how far this way of looking will go in this field». (Letter from Toynbee to this writer dated September 22, 1949), «Theories of International politics propounded by social scientists seek for «laws and recurrence» and in this derive their example from Toynbee. As he argued for the comperative method on the methods and writings of E.A. Freeman, Toynbee also pointed out which students of international politics have followed sometimes and at points removed from history and contemporary diplomacy which he would have found unacceptable. In all this, Toynbee appears to be following the scientific method and once again the prevailing self thought in international and comperative politics have followed him. Yet Toynbee in his Study of history had doubts and reservations about this method if applied; and quite early in his Study he asks, «Have we not been guilty of applying to historical thought which is a study of living creatures, a scientific method of thought which have been devised for thinking about inanimate nature». He used myth; he turned to individualism and mysticism stemming from Bergson pointing his work as much to an epic than to a science of society.

Toynbee's approach was also influenced by classic literature, Gibbo and Goethe, by St. John and Blake. Three other writers had an influence on him. One was Spengler whose writings confirmed for Toynbee the possibility of comperative history but whose stresses on irrevocable human laws was too fixed for Toynbee. The other two scholars who contributed to Toynbee's thought were less widely known. Toynbee's idea of challenge and response is foreshadowed in a little book by Winwood Reode published in 1872 under the title, the Matry-

particular coming events only in a very short way ahead». (Arnold J. Toynbee Civilization on Trial, (Oxford, 1948), p. 204).

In this Toynbee plainly shared with social scientists in general and in particular with theorists of international politics an abiding concern for the present and future world order. It would be surprising ifthis had not been the case for Toynbee was also a working observer of contemporary diplomacy as Director of research at the Royal Institute of International Affairs in London and a sometime member of the Foreign Office. No parallel exists in the U.S.A. of a major historian who also served as a director of research of the most prestigous with the exception perhaps of Professor Philip Mosely, who for an all too brief period filled this post at the Council on Foreign Relations in New York. It may be that only in England can a broad-gauged philosopher of history be accepted by the men of power in government or business. Or it may be that Toynbee was unique and the group who are the power-brokers, men such as Douglas Dillon David Rockefeller in the U.S.A. were never confronted with such a choice. The question is not without significance as one ponders the choices of survival of a civilization.

The main point here is that Toynbee was at home both in historical studies and in writing about contemporary foreign policy in his Survey of International Affairs, from 1920-23 to 1937. It s significant that his candidate for the Stevenson chair at the Royal Institute of Intern. Affairs was the late Professor Martin Wight of the London School of Economics who would have continued in Toynbee's tradition of philosophical history and the theorotical approach to International politics. Professor Geoffrey Barroclgh was the other example of this tradition who left his mark at this Royal Institute suggesting that perhaps Toynbee was not unique but that it was the British who saw the connection between history and international politics as other peoples have not always done. Toynbee's role was to strive to keep the scholar and the observer in close touch with one another however much this may have earned him the criticism of the traditional historians on one hand who thought he was too much

TOYNBEE'S THEORY OF INTERNATIONAL POLITICS : CONCEPTS OF WAR AND PEACE

Kennith W. Thompson

Department of Government and Foreign Affairs

University of Virginia

U. S. A.

The tests which are commonly applied to Arnold J. Toynbee's monumental work are those of historiography and it is an historians that most scholars will choose to judge him. There is a certain difficulty in grouping him, with historians of metropolitan government in New England or of the local whaling industry of Alaska. Even those who doubt Toynbee's standing as a rigourous emperical historian are willing to acknowledge his life's work can be viewed from another perspective. Historical writing is seen primarily as an approach which tries to report and describe past events as fully and faithfully as possible, Philosophers of history, however, seek to explain why events took place as they did, far from history's meaning and formulative principles of history. The historian as judged by the accuracy with which he portrays the past; the philosopher of history must meet the additional test of being judged for the value of his world view for understanding and interpreting the present. Some philosophers of history not only seek to offer perspectives on the present but the future as well. While Toynbee was always very modest about his capacity for historical prophecy, no one can read his history without being aware of his anxious concern for the future. He wrote «while we can speculate on the general shape of things to come, we can for see the precise shadow of

life's work had led him in a full circle as far as the problems of confilict between East and West and of Palestine were concerned.

Forme, however, Toynbee's most important lesson and one more than ever valid today is that the study of history can promote goodwill. «In order to save mankind we have to learn to live together in concord... In order to live together in concord successfully, we have to know each other and knowing each other includes knowing each other's past». Thus I believe Toynbee would have approved the purposes of the Conferences organized here.



In 1961 he published the twelth and last volume of his **Study** entitled **Reconsiderations**,in which he took into account many of the criticisms made of the earlier volumes. He rejected assertions that he was anti-Semitic although he admitted that «long before Zionism had become practical politics» (**Study XII** p. 597) he was opposed to it and he demonstrated his opposition very fully. «In the Jewish Zionists I see the disciples of the Nazis». (Ibid p. 628). To quote at some length: «On reconsideration, I do not find that I have changed my view of Zionism. I think that, in the Zionist movement, Western Jews have assimilated gentile Western Civilization in the most unfortunate possible form. They have assimilated the West's nationalism and colonialism. The seizure of the houses, lands, and property of the 900,000 Palestinian Arabs who are now refugees is on a moral with the Worst crimes and injustices committed by the West in the last five centuries» (Ibid p. 627). Toynbee did admit that he had been wrong in not distinguishing between the enormity of the guilt of the Nazis and of the Zionists, but their behaviour made him despair of human nature (that is from the point of view of his search for virtue in human history).

He repeated these views in 1964 in another article «Britain and the Arabs: the need for a new start», his feeling of guilt on behalf of Britain growing deeper. «The Palestinian Arabs would never have been dispossessed, and the relations between Arabs and Jews would never have become so utterly hostile..., if Britain had not made the series of moral errors and political blunders that she did make in her dealings with Palestine from 1917 to 1948. (**International Affairs**, Oct. 1964 p. 641). To avoid another debacle, this time in Arabia, Toynbee suggested the British should go quietly and «above all... go quickly» (Ibid, p. 646) reiterating to the last his condemnation of British imperialism.

In 1967, he was still writing of an independence «promised to the Arabs» and «in the event,...withheld from them», (**Acquaintances**, p. 196) repeating what he had first written in 1918. As a historian Toynbee had come to this conclusion and had maintained it; as a judge of men and morals he condemned Britain for having given falso promises and the Zionists for having taken immoral advantage of them. His

talk at Chatham House, other speakers took a much less realistic and more inaccurate view of the future of Palestine).

In 1934 Toynbee published the first three volumes of his Study. It was not until 1954 that volume eight appeared in which he healt with ·Encounters between contemporary Civilizations', one of which was that between ·The Modern West and the Jews'. The second World War had intervened between those dates and whatever he had thought about the Jews in 1934 must have radically changed twenty years later. By 1954 he was able to make the startling and even horrifying claim that it was the Jews' supreme tragedy that they had learnt how to behave from the Nazis, and had imitated «some of the evil deeds that the Nazis had committed against the Jews.» (**Study VIII** p. 290). He came by two roads to this view; first-he believed that religious Jewish Society had been affected by the evils of secular nationalism; second, that Palestine had been wrongly promised to the Zionists as a Jewish National Home. Toynbee was not partisan by prejudice nor was he anti-Semitic, but his theories forced him to these conclusions. Jewry was an example of an assaulted society, assaulted by the West and reacting disastrously. Ultimately, therefore, the West was to blame, but «when Fate transfigures... an inoffensive Jewish denizen of the Pale...into a Zionist **sicarius**...this demoralizing metamorphosis brings bane to the Holy Land (Ibid p. 534). The encounter between the Western world and Jewry eventually numbered the Palestine Arabs among its innocent victims. Britain in issuing the Balfour Declaration had not learned from the example of exploding incompatible nationalisms in the Ottoman Empire, Greek and Turk or Balkan.

Disaster was obvious from the beginning (and here we can see he was not writing purely with the benefit of hindsight). Toynbee agreed that on the basis of ancestral tenure alone the Zionists would have a strong case for settlement in Palestine, but not on the grounds of the possession and «human rights of the living generation». (Study VIII 297 f.n. 3.) In 1954 Toynbee on the basis of long study was still firm in his assertion that the Jews had been illegally given and had immorally taken Palestinians were the innocent and suffering third party.

with current affairs. As has been noted, the **Surveys** and his **Study** exercised a mutual influence on each other. The developments he chronicled in the **Surveys** largely seemed to strengthen his theories. In an article, ('The present situation in Palestine' **International Affairs**, Jan. 1931, pp. 38-68), originally a talk given at Chatham House, and published in 1931, he summarized his views on the Palestine problem to that date and it is clear that again, in the vein of the **Western Question**, he is both preaching and reporting. He begins by putting the Palestine problem in perspective,» it is not a local event, it is an event in the life of the universe » (Ibid p. 38). It was a confilict between world forces-Jews, Arabs; the Jews of the whole world, and the Arabs of the area from the Taurus to the Gulf, living in an area once united but at that time split into smaller states. (It is interesting to note that he calls Arabs unity under the Ottomans formal, external and unreal. In 1931 he saw greater actual economic and social unity.) «I feel sure that the desire in Arab Asia for political unity in some form is a very real force». (Ibid p. 42). As the forces is Palestine were world forces, Toynbee foretold that the confilict could never be settled by force. «I prophesy confidently that, sooner or later, the Jews will have to come to terms with the Arabs.» (Ibid p. 44). He repeated his belief that the Arabs had been promised an independent Palestine by Britain and that British honour would not be saved unless a reconciliation between Jew and Arab was brought about by British statesmanship. In an age of fanatical nationalism Britain had pledged herself to create a self-governing state which was not the National State of any single nation. This was a difficult but not impossible task and its achievement would be a triumph of concord and virtue. Little had been achieved by 1931, especially in progress towards self-government and Toynbee accurately foretold that Britain had only twelve or so more years left in Palestine to solve the problem and he also foresaw the ignominious end to the mandate accompanied by disaster, loss and misery. (Ibid p. 58). In this article we can see the constant aspects of Toynbee's writing-prophesy, nationalism, belief in the need for virtue in politics, and the long historical view. (It is interesting to note that in the discussion that followed Toynbee's original

therefore, the Balfour Declaration was incompatible with this promise. From here stemmed his feeling of guilt for what he was as British double-dealing and whether he approved of the Balfour Declaration in itself or not he believed it could not be put into operation without injuring the rights of the local inhabitants. This view he held throughout the rest of his life. He believed that Britain was pledged to a Palestine «Arab« and «independent» and that from 1918 onwards she should have done all possible to facilitate this end, rather than encourage Jewish imigration.

In 1922 he published his important work **The Western Question in Greece and Turkey**, important as a study of the conflict itself but also because of the influence it had on the formation of his thought. He visited the Near East at the time when Britain's 'moment' was beginning, that period when so many Arab countries were under some form of British influence, and he saw the giant shadow cast by the West over the Middle East. «The exploitation of small states by greater is particularly mischievous when the two states belong to different civilizations.» (**Western Question** p. 40.) The first chapters of his book describe Western diplomacy in the whole of the Middle East and we can see his ideas beginning to christalize. Most themes are touched upon, including a section devoted to Allied perfidy towards the Arabs. For the first time this is placed in the wider background of relations between civilizations.

The Greco-Turkish confilict had shown that no country was capable of governing well a mixed population containing an alien majority, and the West had erred in encouraging one country to fight against another. The moral to be drawn from the catastrophe was that charity was necessary «between members of different civilizations» and that «such charity can only be imported into our unhappy contemporary relationships by a combination of the two principles of reciprocity and individuality» (**Western Question** p. 362). He also seemed to accept that nationalism, despite his misgivings was perhaps the only basis for better and equal relationships.

During the years 1925-55 Toynbee wrote and edited the volumes of the **Survey** and thus was closely concerned with

effect of such encounters is «apt to be a disturbing one» «on the life of both parties;» (Study VIII p. 522). Toynbee sees the weaker society, that in the non-Western, as the «assaulted party» (Study VIII p. 530) which has to suffer serious shocks to its system. To him the West has been a perpetual agressor which has exploited others economically and politically. The root of the West's arrogance he traces to the Jewish idea of a chosen people. The Jews have retained this role themselves but it has also become a part of the Western psyche and at the root of imperialism. He sees Jewish influence appearing again in such idealogies as Marxism, Fascism and Nazism. Toynbee criticizes the West for having adopted this attitude and the Jews for having retainedi t. They have defended their identity with «fanaticism» but have also as a society had to suffer the effects of a Western assault. This assault impregnated Jewish society with the seeds of secular nationalism which expressed itself as Zionism. This, to Toynbee, is an abandonment by the Jews of their spiritual heritage and further means that they forfeited their right to Eretz-Israel as a spiritual home. The Zionists betray their ambivalence; claiming God's promise of a homeland and at the same time adopting secular nationalist ideas.

The third theme in Toynbee's writing on the Middle East is that of Arab unity. Here he is a little ambigious as, despite his dislike of nationalism, he writes in favour of Arab nationalism. By this he means, however, the natural unity of the Arabs in Asia which, preserved under the Ottoman, was broken by the downfall of the Ottoman Empire, by the West's imposition of the mandate system, by its support of local states and most disastrously by the introduction of an alien nationalism, Zionism, into Palestine thus cutting it off from Greater syria.

We can look at the way in which Toynbee treated these themes throughout his lifetime of writing. He began in 1918 while working in the British Foreign Office when he was asked to prepare a paper discussing British commitments made to the Arabs and Jews in the Middle East and to determine whether they were compatible. He examined the Husain-McMahon correspondence and came to the conclusion that Syria and Palestine had been promised to the Arabs and that,

Three themes as we know, appear consistently in Toynbee's work when he is writing about the Middle East. These are the break-up of the Ottoman Empire and the clash between Greek and Turkish nationalisms, the role of Judaism and Zionism, and the effect of both of these on Arab nationalism and unity and on the Arabs of Palestine.

In Toynbee's scheme of history one type of state arouses his particular dislike-the universal state. «All known universal states have had a starting point in a revolutionary change from a previous regime of political disunity» (**Study XII** p. 206). The Ottoman Empire was a universal state which arose out of the political disunity of the Byzantine Empire. But Toynbee has a somewhat ambivalent attitude towards the Ottoman Empire. Although a universal state, it did tend to preserve orthodox Christian Society (Indeed at one point he calls it Ottoman Orthodox Christendom) (**Study VIII** p. 190) and was broken up by what he disliked more, nationalisms imported from Late Modern Western Society. Yet on the other hand the Ottoman state also disrupted Arabic Society and imposed on it an oppressive imperialism. (He sees the Arabs opposing the Ottomans in a series of revolt such as those of the Wahhabis and Mahdists). Arabic Society was forcibly unified into Ottoman, thus losing for a time its own identity. The breaking of the Ottoman Empire was caused by the growth of nationa-lism but it also imposed nationalism on peoples little hitherto affected. The Arabs I will refer to later, but in 1920 Greek and Turkish nationalisms stood opposed to one another. Toynbee in 1922 saw Hellenic civilization in Anatolia destroyed and saw this as the fault of the West, morally guilty of the importation of the concepts of nationalism into an area unsuited to such ideas. To him, nationalism in its Western European birthplace was comparatively innocouous; «Its noxious potentialities revealed themselves on alien ground». (**Study VIII** p. 536).

The clash between Greek and Turk was also an example of a conflict between Western and Middle Eastern societies which led Toynbee to formulate his theories about the disasters resulting from encounters between agressive Western society and other civilizations in the rest of the world. The

do.» International Affairs, 1955). He related the problems of his world to a long historical background. The past and the present were his concern but he could not prevent himself from looking into the future and often assured the role of prophet. Toynbee denied (Study XII pp. 3-5) that he had consciously taken on this role, yet his whole system of civilizations replacing one another implied centain laws of history and that what happened in the past might happen in the future. Moreover, in his writings on occasions he actually begins sentences with «I again prophesy confidently that...» (International Affairs 1931, p. 44.) In much of his work there is the feeling that the future is being pointed to, even if indirectly, and that history can teach us lessons. If we do not do such a thing, then other things are likely to happen.

History is morality and Toynbee's concepts are moral ones. People behave 'immorally' at their peril and reap their just deserts. If certain rules are broken the result is unhappiness and even catastrophe. The historian has a positive calling to teach, to promote a better world. «A study of human affairs must be comprehensive if it is to be effective. It must include, not only the whole of the living generation, but also the whole of the living generation's past. In order to save mankind we have to learn to live together in concord... In order to live together in concord successfully, we have to know each other, and knowing each other includes knowing each other's past.» (Study XII pp. 138-9.) Man must try to attain the harmony and self degermination which can be achieved by the practice of virtue. Virtue is growth, sin is the cause of decay and catastrophe. What destroys men and civilizations is hubris, overwhelming pride and ambition, the ultimate challenge to the gods. All wordly ambition will eventually fail. In politics he believes that the only fruitful results of encounters (between contemporary civilization) are the works of peace» and that these are rare in comparison with «disastrous conflicts» (Study VIII, p. 451.) The historian must judge and evaluate, he must take a stand on the issues he writes about. In Toynbee's words «history cannot be written effectively unless the writer has acquired an outlook that can be given only by actual experience of practical life» (Study X p. 166). This attitude led him to take clear stands on issues where others have been more cautious.

adds his belief that the Jews betrayed their heritage first by espousing Zionism and then by expelling part of the Arab population from Palestine.

Toynbee's ideas on the growth, flourishing, encounters and decay of civilizations seem to have been shaped by two influences; his classical education which taught him about the growth and decay of Greek civilization, to which was added his first hand experience of the decay of the Ottoman Empire during his journeying through the area. Secondly, he had a strong feeling that Western historians had been looking at world history from too narrow an ethnocentric point of view with their worship of the Western nation state. The first of these influences automatically turned his attention towards the Middle East and he followed this by applying the second, his hatred of Western nationalism, to the same area. Toynbee believed that the nation state was «the social prison-house in which our Western souls are incarcerated» (**Study** V, 373) and he wrote of the «morally devasting effect of a modern Western Nationalism» (**Study** VIII 191 f.n. 2) on the Middle East. It is interesting to note, however, that this feature of Toynbee's thought is one thing about which he did modify his views. In 1915 he had written we have identified ourselves «with the principle» that peace can only be secured by giving free play to every manifestation of the spirit of Nationalily». (**Nationality and War** p. 411). We shall see later that this principal, still retained some influence on his thought in one important area.

Writing a universal history gave to Toynbee the long synoptic historical view in which he saw patterns, connections and influences may be not so obvious to others. He sought a meaning behind the facts of history and did not rest until he had established a link between what happened centuries ago and what happened yesterday. It must be remembered that while Toynbee was writing his **Study** he was also working as a recorder of contemporary facts for the **Surveys** and the two works exercised an influence on each other. Toynbee himself wrote that «A survey of current affairs on a world-wide scale can be made only against a background of world-history». («A study of History: What I am trying to

THE CONTINUITY OF TOYNBEE'S VIEWS ON THE MIDDE EAST

By: Derek Hopwood

In a paper of this length it is clearly impossible to discuss more than one small aspect of Toynbee's vast output. I want to try to follow the line of his thoughts about Arabs, Jews, Palestine and Zionism; to discover how his ideas developed, to seek the sources of these ideas and to see how they fit with some of his more general theories of history. His writings on these subjects stretch over a long period-the first mention I can discover was in 1918; late in the sixties he was still concerned with the problem. (I have not seen the history he published posthumously but I suspect he is repeating the same lines from beyond the grave). I find his ideas on the whole to be remarkably consistent over such a lengthy period. Remarkable because few people are likely to hold unchanged views on any subject for most of their lives. The most uncharitable view is that «only a fool does not change his mind» or that Toynbee's mind was formed before 1914 and that he was incapable of modifying his ideas in later life. It seems more probable that from the beginning he saw the injustice of the West's treatment of the Arabs, especially with regard to Palestine, and that his later work, whether the theories of his **A study of History** or the more practical reporting of the Chatham House **Surveys of International Affairs**, served to strengthen his original opinions. Of course, we can see developments of certain ideas in certain directions, but the main thrust of his argument is unchanging. It is that the West destroyed the basis of Arab unity by the promises and policies of the First World War, especially the promise to help to establish a Jewish National Home in Palestine. To this he